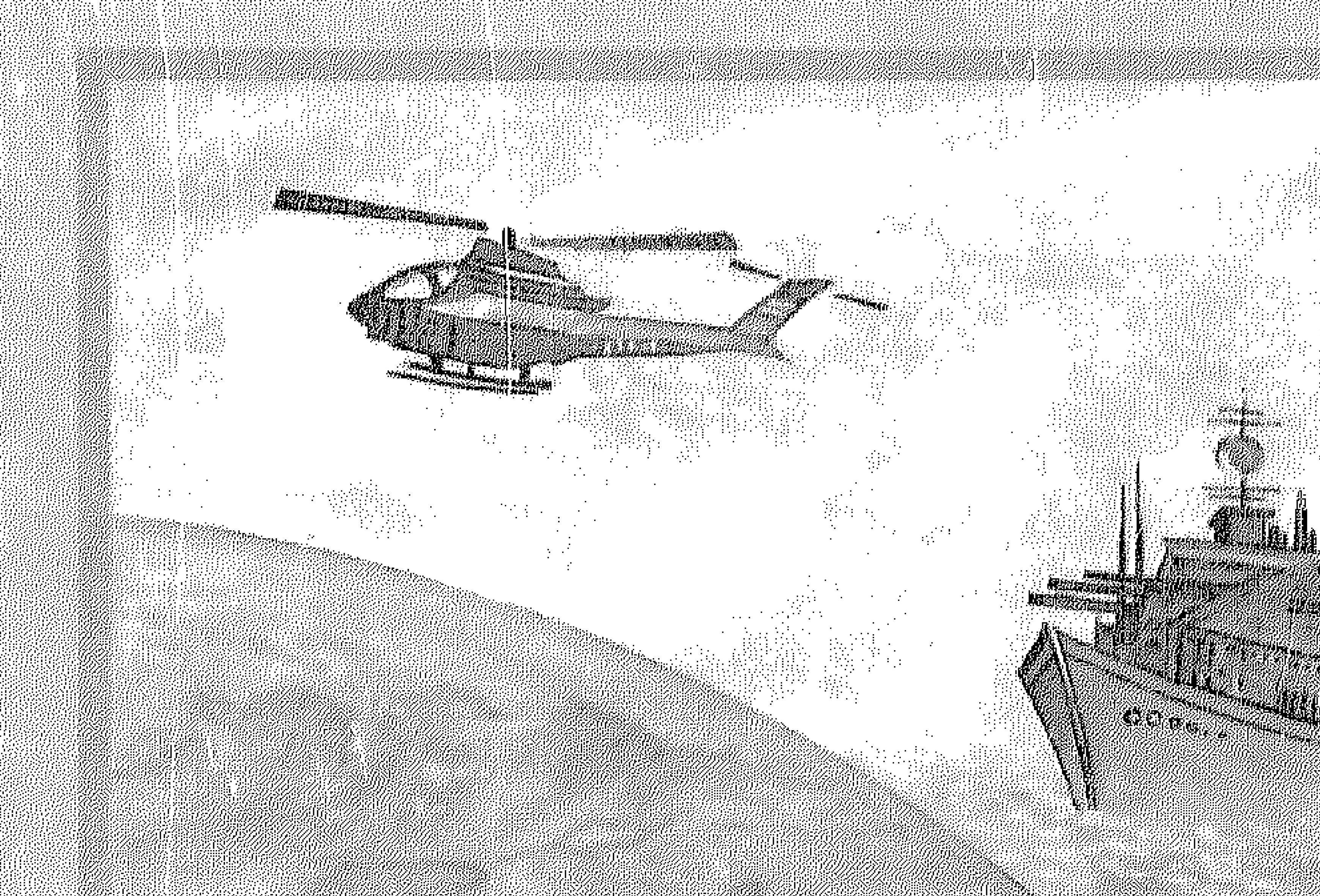
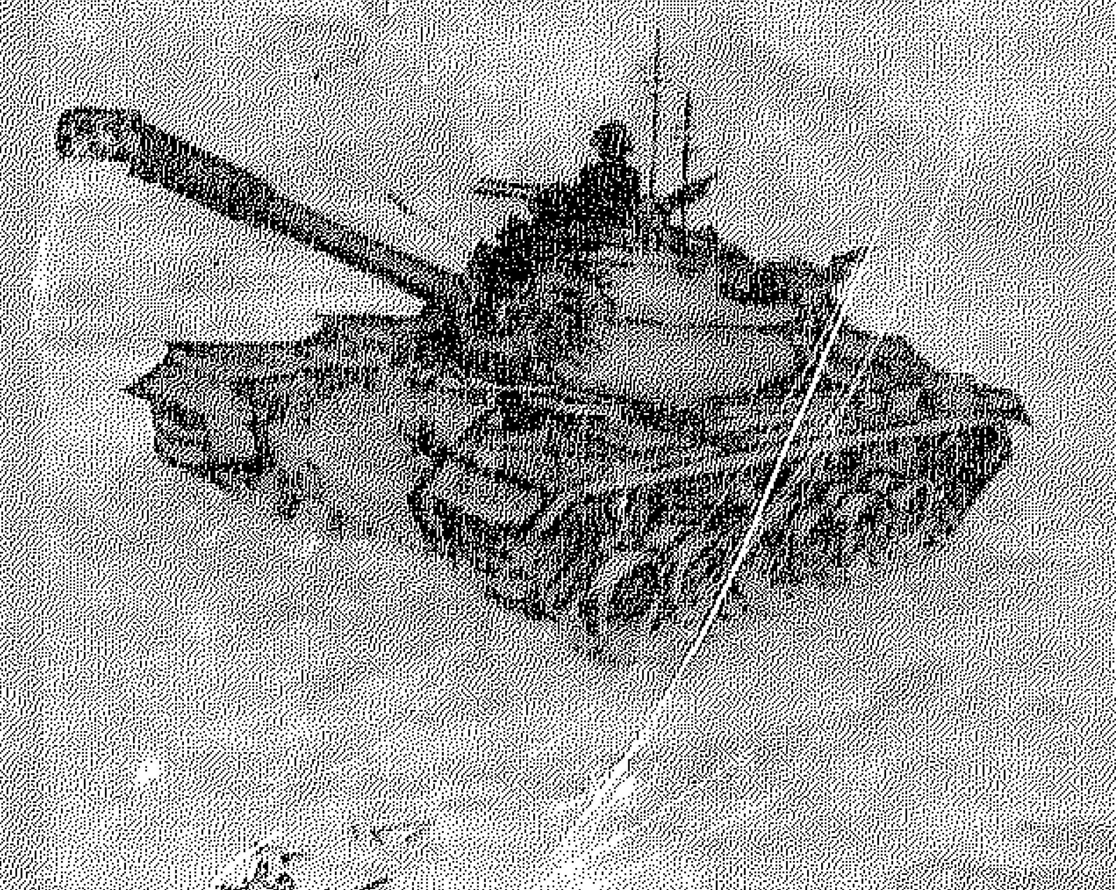


سلسلة الكتب والمطبوعات العلمية

٥

جغرافية فن الحرب







تعريب

اللواء الركن حسين أحمد البدري

الدكتور طه بن عثمان الفراء

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

جغرافية فن الحرب

تعريب

اللواء الركن حسن احمد البدري

الدكتور طه بن عثمان الفرّاء

المحتويـــــات

تقـــديم

استكمالا لخطة التأليف والترجمة والنشر المعتمدة ، تقدم الكلية للقارىء الكريم هذا الكتاب الجديد في مجال الجغرافيا العسكرية ، بعد أن قامت لجنة متخصصة بترجمته عن الأصل الإنجليزي ، على أمل أن تحدث منه الفائدة المرجوة بإطلاع القراء على ما يحويه المتن من معلومات غزيرة في أهم القضايا الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية التي تتأثر بجغرافية فن الحرب وتؤثر فيها .

يتميز هذا الكتاب ببعديه الأكاديمي والعسكري اللذين يعالجان مختلف قضايا الصراع المسلح وأسباب اشتعال الحروب ومذاهبها وتخطيطها وإدارتها وجني ثمار النصر منها أو الحدّ من نتائج الهزيمة ، كل ذلك مع التركيز بالدرجة الأولى على الجوانب التطبيقية في هذه العلاقات المتشابكة ، مما يجعل الكتاب مرجعا تطبيقيا مهماً .

وعلاوة على ذلك ، فالكتاب يحتوي على كثير من التعاريف والمصطلحات العلمية ، مصحوبة بالشروح المستفيضة ، التي تسهم بدورها في إرساء قاعدة متينة لوحدة الفكر في الألفاظ والمسميات العربية .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يحلل صنعة الحرب بكل أبعادها وأنواعها وتقسيماتها ، فلا يهمل منها شيئا ، ولا يضرب الصفح عن شكلٍ ما لندرة حدوثه ، كما أنه يضيف إلى هذه المعالجة الشاملة لأهم القضايا المطروحة ، كثيراً من التحليلات الجغرافية التي تضفي على المتن بعداً تطبيقيا شديد الوضوح .

والكلية وهي تنشر هذا الكتاب الجديد ، تأمل أن يحقق الفائدة المرجوة منه ـــ بإذن الله ـــ

والله من وراء القصد ،،،

عقيد/
متعب بن عبد الله بن عبد العزيز
قائد كلية الملك خالد العسكريـــة

مقـــــدمة

هذه ثمرة أخرى من ثمار التعاون العلمي الوثيق بين مختلف أقسام الكلية ، نقدمها اليوم في صورة هذا الكتاب القيم عن جغرافية فن الحرب والذي يسدُّ نقصاً ملموساً في هذا المجال العلمي الرفيع الذي تفتقر إليه المكتبة العربية ، ويمزج في توازنٍ دقيق بين النظريات العلمية ، والتطبيقات العملية تحت مختلف الظروف والأحوال الميدانية .

ويقع هذا الكتاب في عشرة فصول تعالج أسس المسائل الاستراتيجية والتكتيكية بمنظار الجغرافيا العسكرية ، إلى جانب جغرافية الإعداد للحرب وإدارتها ، في ضوء الحقائق الجيوبوليتيكية .

كما يتعرض الكتاب أيضا لدور الاستخبارات وتوفير المعلومات في صنع القرار العسكري الذي يعتمد بالدرجة الأولى على المهارة في دراسة طبيعة الأرض وتخطيط الخدع في الدفاع والهجوم ، وكذلك تأثير الأفكار الجيوبوليتيكية على المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، والحدود والقيود المفروضة على صنعة الحرب بمختلف صورها وأشكالها .

والكلية إذ تقدم هذا الكتاب القيّم للقارىء الكريم ، تأمل أن تحصل منه الفائدة العميقة ، وأن يسهم في حركة تحصيل العلم من أفضل وأغزر مناهله .

والله الموفــق

د . عبد الرحمن سبيت السبيت
وكيل الحرس الوطنـــي للشؤون
الثقافية والتعليمية

تصـــــديـر

شد انتباهنا ما احتواه الأصل الإنجليزي لهذا الكتاب ـ الموضوع في جغرافية فن الحرب ـ من معلومات قيّمة وأمثلة تطبيقية كثيرة ، فضلاً على انفراده في المزج بين النظرية والتطبيق الميداني على كل المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية ، مما يجعل منه مرجعا مفيدا للمكتبة العربية باذن الله .

وبعد أن حصلنا على موافقة الناشر على تعريبه وطبعه ، بذلنا غاية الاهتمام في ضبط التسميات والمصطلحات والتعبيرات ، مع وضع الأصل الإنجليزي إلى جانبها حيثما يرد ذكرها للمرة الأولى زيادة في التدقيق .

ونحن إذ نقدم هذا العمل العلمي إلى القرّاء الناطقين بالضاد ، يسعدنا أن نرد الفضل إلى أهله وذويه ، فنتقدم بخالص الشكر والامتنان لكل من أسهم في إخراج هذا العمل . ونخص بالشكر والتقدير سمو الأمير متعب بن عبد الله ابن عبد العزيز قائد كلية الملك خالد العسكرية ، وسعادة الدكتور عبد الرحمن ابن سبيت السبيت وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية ، اللذين تبنيا هذا العمل حتى استوى على سوقه .

كما نشكر الأستاذ الدكتور حسن ظاظا أستاذ الدراسات السامية بجامعة الملك سعود ، والدكتور محمود عبدالرحيم أستاذ اللغة العربية المساعد بكلية الملك خالد العسكرية ، لتفضلهما بقراءة النص ومراجعة المتن قبل طباعته .

ولا يفوتنا أن نزجي الشكر إلى النقيب محمد بن فيصل أبو ساق ومنسوبي مجلة كلية الملك خالد العسكرية لإخراجهم الفني للكتاب والرائد ناصر العرق والأستاذ نايف بن فيصل القحطاني للإشراف على طباعته ، فجزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

كما نقدم الشكر للأستاذ إبراهيم بن رشود العود والأستاذ حسب الرسول علي الفكي على إعدادهما الكشّاف التحليلي المرفق بآخر هذا الكتاب .

كما أننا نحمد الله الذي هيأ لنا إتمام هذا العمل على الوجه المنشود ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعل فيه الفائدة المرجوة كمرجع تخصصي مفيد للمكتبة العربية وللقارىء العربي في وطننا الحبيب .

المعرّبـــــــــان

اللواء الركن/حسن أحمد البدري   الدكتور/طه بن عثمان الفـــــراء

الفصل الأول
الجغرافيا والتكتيك والاستراتيجيـــــــة

GEOGRAPHY, TACTICS, AND STRATEGY

«ولهذا فإن تقدير موقف العدو وحساب المسافات مع الإلمام بدرجة صعوبة الأرض بهدف إحراز النصر تستلزم من القادة مهارة عالية»

صن تزو **Sun Tzu** (الفصل ١٠ ، الفقرة ١٧) .

مقدمـــــة :

تستند مبررات تحرير هذا الكتاب إلى أسس المسائل الاستراتيجية والتكتيكية ذات الطبيعة الجغرافية . ولقد عزا الفيلد مارشال مونتغمري **Field Marshal Montgomery** النصر في المعركة إلى النقل والشؤون الإدارية والجغرافيا ، مع التركيز على الأخيرة .

وليس هدفنا أن نشرح الأوضاع الجغرافية للقوات المسلحة ، أو سجل تطبيقات الجغرافيا على إدارة الشؤون العسكرية فقد سبقت تغطية كل ذلك بجدارة في مطبوعات أخرى . إن الفكرة الرئيسة تنصب على جغرافية الإعداد للحرب وإدارتها ، وذلك لأن قرار خوض المعركة أو النكوص عنها يجب ألا يتصدى له سوى العليم بحقائق الجيوبوليتيكا . وبرغم أن مسألة «كيف نقاتل ؟» تحكمها ــ بالدرجة الأولى ــ الإمكانات التقنية والاقتصادية ، فإنها بالضرورة استجابة للقدرات والقيود البيئية . وبمجرد أن ينعقد العزم على القتال ويتم الاتفاق على أسلوبه تأخذ مشاكل الحرب الصفة الجغرافية . ويصبح الشغل الشاغل للقرار عندئذ هو تحديد أفضل الاتجاهات للزج بالقوات في المعركة .

ويمكننا التمييز بين ثلاثة أنشطة متميزة في مجال إدارة الحرب ، أولها : المعلومات التي يلزم جمعها ، وهي تشمل تحديد الأهداف المطلوب الاستيلاء عليها أو الدفاع عنها ، واتجاه أو مكان تركيز مقاومة العدو ، ومواضع المواقع

ومحاور الحركة . ويبحث مجال النشاط الثاني في أسلوب الزج بالقوات في المعركة بقدر ما تسمح به القدرات اللوجستيكية ، والقيود المفروضة على إمكانات العمل بفعل أماكن إمدادات المقاتلين ، وفتح النيران والمعدات . أما مجال النشاط الثالث فهو اتخاذ القرار المبني على ما حصلت عليه وسائل المخابرات ووفرته وسائل الإمدادات والخدمات عن جغرافية المشكلة للوصول إلى أفضل مكان للزج بأفضل هذه القوات ، وأين يتم تحريكها وانتشارها واتجاه هجومها ، أو خطوط دفاعها ، ومحاور تقدمها أو انسحابها ، وأين تمهد الطرق وتقام الجسور ويتم الإبرار وتجهز المواقع الدفاعية .

ويمكن النظر إلى العلاقات المتبادلة بين المخابرات واللوجستيك والحرص من خلال المنظار الجغرافي وقيوده اللوجستيكية والإخبارية على حرية العمل . وتعمل هذه العلاقات بعدة مقاييس متنوعة مع ما يمكن تحقيقه في مجال محلي ضيق وما يمكن تحقيقه على المستويات العالمية . ونستطيع أن نفرق بين أربع درجات من المستويات المقترنة بأنواع القرارات والأعمال وهي كالتالي :

١ ــ الدرجة المحلية : وهي التي تهتم بالمستوى التعبوي والتكتيكي للقرارات الأقل من تشكيل الفرقة .

٢ ــ الدرجة التعبوية : وتهتم بالمناورات وإسناد القوات الميدانية الرئيسية .

٣ ــ الدرجة الإقليمية : وتهتم بالانتشار الاستراتيجي في مسرح الحرب أو مسارح العمليات .

٤ ــ الدرجة العالمية : وتهتم بالاستراتيجية العظمى المختصة بالأهداف الجيوبوليتيكية والحيل وتصميمات الأنظمة الاستراتيجية العالمية .

مجالات الحرب ومقاييسهـــــا

The Scope and Scale of Warfare

ليست هناك حدود قاطعة بين الاعتبارات المحلية لما تستطيع القوات أن تنجزه بأسلحتها في أرض المعركة ، وكذا استخدام هذه الأرض وانتشار القوات والأسلحة على المستوى العالمي . إن المسائل التكتيكية والإستراتيجية تتداخل بعضها مع بعض ، وعادة ما يُعرَّف التكتيك والاستراتيجية بالمقارنة بينهما على نحو ما يُعرّف كل من المراكب والسفن . فالاستراتيجية تشتمل على عموميات أوسع من التكتيك وقد استخدم اصطلاح الاستراتيجية ليعني فن القيادة ، وإدارة الحملات الحربية ومناورات الجيوش على مستوى جغرافي عالٍ . وتتضمن صورة الاستراتيجية في الأذهان تلك الأسهم العريضة التي تنطلق عبر الأراضي الشاسعة ، ويوجد فوق هذا المستوى الاستراتيجية العظمى بمعناها الأوسع والأكثر عالمية . وتعني الاستراتيجية العظمى استخدام القدرات العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية لتحقيق الغايات الوطنية . وعلى العكس من ذلك فإن التكتيك يعني فن المناورات وتنسيق النيران البرية والبحرية والجوية في مواجهة العدو ، ويتضمن تحليلا للجغرافيا المحلية* وتحديد أسلوب نشر الوحدات الصغيرة المستقلة .

ومن الواضح أن العوامل الجغرافية تؤثر على كل المستويات ، فرجل الاستراتيجية العالمية لا غنى له عن الإحاطة بالمعلومات الجغرافية . كما أن أعلى مستويات القرارات تكون بالضرورة ذات صبغة جغرافية ، وقد يخونها التوفيق لأسباب جغرافية . وإذا ما استخدم السلاح للاستيلاء على هدف جيوبوليتيكي فإن مزايا الموقف الاستراتيجي تتأثر بشكل واضح بما يمكن تحقيقه على المستوى التكتيكي وتكفل التقنية وخفة الحركة في أثناء فتح النيران ، وكذا المواصلات الأفضلية للدفاع أو الهجوم في مختلف أنواع مسارح الحرب . ويمكن تغيير موازين درجة تعرض القوات وقدرتها على الاختراق بتغيير أسلحتها وخفة حركتها

* المقصود بالجغرافيا المحلية ـــ Local Geography ـ جغرافية المكان .

ومواصلاتها أو بتغيير شريحة الأرض التي تعمل عليها .

ومن الواضح أن أي تغيير في موازين المزايا الهجومية أو الدفاعية قد يترتب عليه تغيير في موازين القوى العسكرية ، وبالتالي في الاستراتيجية العظمى والسيطرة العالمية . ومن المسلم به أن هذه الموازين والمستويات المختلفة للقرار يمتزج بعضها ببعض ومع ذلك فهناك مشكلات مختلفة على درجة عالية من الوضوح في الموازين الجغرافية المختلفة ، كما أنها ذات أهمية من حيث تدرجها وتسلسلها . إن استراتيجية الحملات الحربية يحكمها هيكل الاستراتيجية العظمى كما أنها تسيطر بدورها على العمليات الحربية وعلى التكتيك . ذلك لأن ما يمكن تحقيقه على المستوى العالمي يتوقف على ما يمكن إنجازه في بعض مسارح الحرب ، حيث تترتب النتائج على التنفيذ الناجح للتكتيك . فإذا ما وضعنا ذلك في الاعتبار فسوف يكون من المناسب أن نسوق حديثنا عن جغرافية الحرب مبتدئين بالأرض من المنظور المحلي والتعبوي والتكتيكي كقاعدة لمجالات اهتمام أرحب . ولا مناص من مناقشة أمور الاستخبارات واللوجستيك والحيل التكتيكية المختلفة لوضع العلاقة بين التكتيك والأرض في موضعها الصحيح . وبهذا يصبح محور الكتاب هو معالجة التكتيك والأرض في الحرب التقليدية تحت مختلف ظروف البيئة . ثم نتدرج من ذلك صعودا إلى المستوى الاستراتيجي لقرار الحرب وإدارتها فوق مسرح فسيح . وهناك داع ملح لأن نهتم بأنواع الاستراتيجية وبالمعلومات وبالاعتبارات اللوجستيكية المؤثرة على الحرب وليس على المعركة . ونحن ننظر إلى هذا المقياس الجغرافي كمثيل لاستراتيجية الحملات الحربية : وعلى هذا المقياس تظهر الحاجة الملحة إلى الاهتمام بالحرب البحرية ، والجوية والنووية .

وسوف تقودنا معالجة القوتين البحرية والجوية إلى المسائل الجيوبوليتيكية ، والاستراتيجية العظمى ، إن ظروف وقيود المناورة والإمكانات التعبوية تحد من الخيارات والأعمال المتاحة لتحقيق الأغراض الدولية ، كما أنها تربطها باللوجستيك العالمي وأنظمة الأسلحة وتهدف هذه المناقشة إلى توضيح نوعين غير تقليديين للقتال ، يتصفان بأهمية بالغة وهما حرب العصابات وحرب

المدن ، ولسوف يختص الفصل الأخير من هذا الكتاب بالتركيز على النقاط الساخنة المحتملة ومناطق الصراع مع التنويه بما يحيط بها من شكوك وتوقعات .

وقبل البدء في معالجة جغرافية فن الحرب يلزم وضع الموضوع بأكمله في خلفيته التاريخية العريضة مع الاهتمام بتطور الأسلحة والتنظيمات الحربية ، وكذلك علاقة الجغرافيا بالكيان السياسي والاقتصادي فضلا على موضع القوة .

التقنية العسكرية وجغرافية القـــوة
Military Technology and Geography of Power

رغم أن حضارتنا قامت على التعاون السلمي فقد حثت في الوقت نفسه على العنف السياسي . فقد تبع السيطرة المركزية على الفائض من المحاصيل الزراعية بواسطة المدن السومرية أن استثمرت هذه الطاقة في الحرب وفي صنع الخوذات المعدنية ورؤوس الحراب والدروع ليقاتل الناس بعضهم بعضا ويحاربوا البرابرة الغزاة . ولم يحل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلّا وقد أصبحت الحروب بين المدن كثيرة الاشتعال وتحول الرعاة الساميون إلى الملكية الشبه لادينية التي جارت على مجتمعات المعبد المسالمة المنظمة لتلك المجتمعات منذ بدء ظهورها . وقد ترتب على قبض الرجل الفرد على زمام السلطة تحسين واضح في قدرات الدفاع المحلي من إغارات البرابرة إذ أمكن إقامة الأسوار الضخمة حول المدن ، إلا أن العراك بينها زاد في الحدة حتى امتص قدرا متزايداً من طاقة المجتمع . «إن القوة عادة ما تستوعب المراكز الأضعف ، وتحث مراكز الخصم على تقوية نفسها» (ماكنيل ، ١٩٦٣م) McNeill,1963 . إن فهم الأكاديين الساميين للتقنية السومرية ، وأساليب الرعاة المناضلين ساعد على الانتشار السريع لتقنية الري بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد جنبا إلى جنب مع استخدام القوة العسكرية لتنظيم أعمال الري . وفي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أمكن حل مشكلة تزويد جيش محترف ضخم من قاعدته الزراعية مع فرض السيطرة المركزية على

جنوده . لقد كان لدى حمورابي البابلي جهاز بيروقراطي لتسجيل أسماء وأماكن وواجبات آلاف الجنود المنتشرين في أرجاء مملكته الفسيحة .

وعلى الطرف النقيض كان المولود البكر للحضارة التي قامت في بلاد مابين النهرين هي الحضارة المصرية التي عزلتها الصحراء عن الاعتداءات البربرية ووجدت في نهر النيل شرياناً يتدفق نحو الشمال بهدوء بينما الرياح السائدة تهب في اتجاه يساعد على الملاحة عكس التيار . وكان الحاكم يستطيع التحكم في فائض المحاصيل الزراعية عن طريق السيطرة على حركة الملاحة في النهر . وعوضا عن تنظيم إدارة مهيمنة فقد تكفل نهر النيل بتوحيد الدولة . وقد احتكر البيت المالك في مصر أمور التجارة التي اعتبرها إحدى الوظائف العسكرية . كما أرسل البعثات إلى سوريا للحصول على الأخشاب . وإلى سيناء لتعدين النحاس ، وإلى النوبة للحصول على الذهب ، فضلا على قيامه بتحصيل الضرائب من البلاد . وقد انعقدت منذ بدء الحضارة أواصر العلاقات المتينة بين الأمور السياسية والعسكرية والتجارية .

وعندما اندمجت ثقافات هذه الحضارات السكنية مع تقنيات وطباع جحافل المحاربين الرعاة القادمين من السهوب الغربية لأوراسيا حدثت دفعة قوية للعلاقات الاجتماعية والسياسية المتنامية . وجاء التعبير العسكري لهذا الاندماج في شكل ابتكار العجلة الحربية الخفيفة ذات الإطارين حوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد والتي سريعا ما اكتسحت أوراسيا مسجلة أروع الانتصارات . وكان سكان السهوب قد روّضوا الجياد قبل ذلك في نحو عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . أما جر العربات ذات العجلات بالأحصنة فقد ابتكره السومريون في بلاد ما بين النهرين . إلا أن العجلات الأربع لم تكن تصلح للإلتفاف أو الدوران ولهذا لم تكن تناسب العمل في مسرح الحرب . وقد أمكن تحقيق السرعة مع سهولة الالتفاف والدوران بالعربة الحربية ذات العجلتين مع تحميل جزء من وزنها على الحصانين فصارت صالحة من كل الوجوه للدخول في المعركة . وواكب هذا الابتكار المهم نوع جديد من الأقواس المركبة القوية ، كما ظهرت التحصينات المستطيلة في الأراضي المفتوحة

وترتب على استخدام قوة النيران الخفيفة الحركة وسرعة المطاردة أن اختل نظام حشود جنود المشاة ذوي التروس البرونزية . واستدعى حماية معسكر العجلات الحربية من الهجمات المباغتة بناء معسكرات من اللبن ذات أشكال مستطيلة كانت هي الأساس في تصميم المدن .

وقد اتخذ سكان السهوب من محترفي تربية الجياد هذا الأسلوب الجديد للقتال بعد أن مزجوه بعبقريتهم المشاكسة ، وبنظام قيادة قبلي متين ليصبح غير عرضة للهزيمة ، وترتب على توسعهم تغيير الهيكل الاجتماعي لأوراسيا إذ لم تعد حضارات السهول تستطيع الصمود أمام العجلات الحربية . وقد غيرت الاكتساحات المظفرة مواقع القوة تغييرا جذريا وسببت تحرك واختلاط الناس .

ثم صادف تكتيك العجلات الحربية عقبة في غابات غرب وشمال أوروبا الكثيفة حيث تبين أن رماة السهام وقادة العجلات الحربية لا يحسنون القتال إلا في الأراضي المفتوحة . وقد كانت هذه الأراضي تقع في الشرق حيث تحولت إليها الأساليب وانتشرت بطريقة غير مباشرة نحو النهر الأصفر Yellow River في عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ، ثم إلى شمال الهند بجموع الآريين فيما بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد . ثم أدى الغزو والأسلوب الرأسمالي للحرب إلى تجميع وفرة من الإنتاج ساعدت في دعم العنف الكامن المتوطن والاستغلال والقوة إلى جانب ازدهار فنون الحضارة وظهور الطبقة المترفة . لقد تسببت هذه العسكرية المتمركزة على اليابس في قطع حلقات الاتصال البحري الأقوى على امتداد شواطىء أوروبا وجنوب آسيا واستبدالها بنقل النبضات السياسية والاجتماعية خلال التنافس المستمر والعدواني بين الشعوب المتحضرة المختلفة . كما أن هذا التنافس قد أمد سلسلة التطورات الثقافية المتقطعة بالقوة الدافعة التي ساعدت على امتلاك واستغلال القوة .

ثم عاد التوازن بين السهوب والحضارة باكتشاف طريقة صهر الحديد حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد إذ أمدت المشاة بالدروع لوقايتها من بأس العجلات الحربية الارستقراطية . لقد تمكن رجال القبائل البربرية المسلحون بأدوات من

الحديد أن يتغلبوا على صفوة كل من الحيثيين بالأناضول والميثيين الإغريق Mycenean Greece . أما المصريون الذين لم يتوفر خام الحديد في ديارهم آنذاك فقد انتزعت منهم امبراطوريتهم في فلسطين وسوريا عام ١١٦٥ قبل الميلاد بواسطة شعوب البحر المسلحين بآلات الحرب المصنوعة من الحديد . كان الآشوريون يملكون الكثير من خام الحديد الأمر الذي أتاح لهم تسليح أعداد كبيرة من المواطنين المستقرين لصد غزوات القبائل المسلحة بالحديد . وقد حذت كل من فارس ومقدونية وروما حذو مشاة الأشوريين ذات التنظيم الرفيع والحشد الكثيف . وفيما عدا آشور تسبب الحديد في تفكك عرى امبراطوريات الفرسان الارستقراطية لتحل محلها دول القبائل من الفلاحين الأحرار وأصحاب الضياع الصغيرة .

ولم تكن روح العدوان وتوزيع القوة في هذا التنظيم مستقرة مما أتاح لمركزية آشور أن تسيطر عليها حتى ورثتها فارس . لقد رفع المحاربون اليونان المشاة المدججون بالسلاح والمنتظمون في تشكيل الفالانكس من جدوى المشاة إلى آفاق جديدة . وكانت العواقب الاجتماعية المترتبة على هذا التطور هائلة إذ حقنت السياسة بروح المساواة والتكتل . ثم زاد الأمر قوة وديموقراطية بدخول السفن ذات المجاديف الثلاثة إلى الخدمة العاملة . ولم يعد تزويد مجاديف الأسطول بالمجدفين يحتاج إلّا لرجال ذوي عضلات قوية جعلت من أثينا سيدة الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ثم امتدت سلطة الفلاحين المواطنين إلى سكان المدن . كما استتبع التغيير في معدات الحرب تغييرا في الهيكل الاجتماعي ، إذ انتقلت السيطرة من يد الفرسان الارستقراطيين إلى تنظيم أكثر ديموقراطية في ممارسة السلطة .

وفي حوالي عام ٩٠٠ قبل الميلاد ، أي بعد ألف سنة من ظهور العجلة الحربية أول مرة ، اختل الميزان الحربي مرة أخرى بين قبائل السهوب والشعوب المتحضرة لصالح البرابرة . وجاء السبب بفعل القتال بأسلوب جديد من فوق ظهور الجياد التي أتاحت للمقاتلين قطع المسافات الشاسعة عدواً وبسرعة تفوق أية وسيلة من وسائل الحركة ، فضلا على صعود الممرات الجبلية وعبور

الأنهار واختراق الغابات بغاية السهولة مما جعل اليد العليا للرعاة في الأراضي المكسوة بالأعشاب . ولم يحل عام ٦٠٠ قبل الميلاد حتى كان الفرس قد هزموا الامبراطورية الأشورية ، كما اندفع السكوثيون Scythians نحو الجنوب والكلت نحو الغرب ، وانتهج سادة الصين أساليب البرابرة ليسيطروا على الصين في نحو عام ٢٢١ قبل الميلاد . ثم اكتسحت موجة ثانية من فرسان المغول والألمان والهون والآفار والمجيار أرض أوراسيا من أدناها إلى أقصاها فيما بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد و ٦٠٠ بعد الميلاد فأطلقت موجة من الصدمات ظل يتردد صداها بين رجال الخيول في أوراسيا من أقصاها إلى أقصاها .

وبفضل تطور الفرسان ثقيلي الدروع أمكن إعادة استقرار موازين القوى بعد أن كانت كفة الفرسان الخفيفي الدروع هي الأرجح . وكان أول ظهور هذا الطراز من القتال في بارثيا الواقعة جنوب بحر قزوين حوالي عام ١٠٠ قبل الميلاد حيث أمكن إنتاج سلالة من الجياد الضخمة القوية تستطيع حمل ما يكفي من أدوات الحماية للحصان وراكبه من خطر السهام . لقد كان في استطاعة الفارس الثقيل أن يثبت في مكانه ليتبادل الرمية بالرمية وهو في مأمن من أذى مقاتلي السهوب الذين يظلون يهرولون حوله إلى أن يجهدوا حيواناتهم ويستنفدوا ما في جعبهم . وعند هذه اللحظة كان هجوم الفرسان الثقيلة ينجح في تبديد جموع الفرسان الخفيفة من رعاة السهوب ولم يكن هؤلاء الرعاة قادرين على اعتناق هذا المذهب للقتال لفقر مراعيهم وعجزهم عن إعاشة الجياد الضخمة . لقد كانت علائق تلك الحيوانات تشكل عبئاً ثقيلا .
وبرغم معرفة الصينيين بفن القتال بالفرسان الثقيلة فإنهم فضّلوا الاستمرار في مقاتلة قبائل الرعاة بأسلوبهم الخاص الذي يعتمد على الفرسان الخفيفة الأرخص تكلفة . أما الساسانيون الفرس في الغرب ، فقد اتخذوا هذا المنهج للدفاع قبل عام ٢٠٠ بعد الميلاد ثم راحوا يقيمون الهيكل الاجتماعي الذي يناسبه . ويمكن اعتبار وسيلة التحرك هذه بداية نظام الاقطاع . إن عبء إعاشة قوة ضخمة من الفرسان الراكبين المنتشرين في مختلف أنحاء الريف وهي جاهزة أبداً للدفاع ضد هجمات القبائل الرحل كان يستلزم توفير قرى زراعية

لهؤلاء الفرسان تزودهم باحتياجاتهم المختلفة .

لقد اتخذ البيزنطيون هذا النظام للمجتمع والدولة ، كما أطلقوا على فرسانهم اسم الكاتافراكس . ثم امتد هذا النظام ببطء نحو الغرب ليقدم التنظيم الدستوري الذي تميزت به أوروبا في العصور الوسطى . ولم يحل القرن التاسع الميلادي حتى كانت المسيحية اللاتينية قد اعتنقت مذهب الفرسان الثقيلة الذي مكنها من وقف المد البربري في القرن العاشر . وفي الغابات الغربية حل الرمح محل قوس الفارس الثقيل ، كما صار المعوّل في نجاح الهجوم على قوة الصدمة الساحقة . وسادت فكرة الفارس بين الفرنجة وأدى نظام العُمَد إلى توزيع القوة بين ارستقراطية ملاك الأرض .

وفي الوقت نفسه وفرت الزوارق ذات الألواح والدسر لغزاة الفايكنج وسيلة للقرصنة . ولدى تحول إغاراتهم إلى تجارة انتشرت طولاً وعرضاً عند ازدياد طرق التجارة إلى المراكز السكنية في غرب أوروبا ، ومع حلول القرن السادس عشر تحول محور قوة أوروبا إلى شواطىء الأطلسي بفضل السيادة البحرية التي وضعت البذرة لسيادة أوروبا على العالم .

وبعد أن انطفأت حماسة فرسان بيزنطة صاروا فريسة سهلة للفرسان الخفيفة التي انقضت عليهم من الجزيرة العربية بعد عام ٦٣٢م حاملة راية الإسلام على امتداد سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط عبر الهلال الخصيب وحتى هضبة جنوب غرب آسيا . وظل العرب يحافظون على حامياتهم في الأراضي التي فتحوها .

ولم تتوقف السهوب عن بث موجات الفرسان الخفيفة التي جعلت الأتراك المسلمين يتربعون على ذروة سنام السلطة في آسيا الصغرى وشمال الهند عام ١٢٠٠م . ولقد وجه جنكيزخان الغزوات المغولية عام ١٢٢٧م من نهر الفولغا إلى نهر الآمور ، ثم مد حلفاؤه ملكهم إلى شرق أوروبا وبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين والأناضول وكل الأراضي الصينية ، وأنجزوا كل ذلك حتى عام ١٢٧٩م ، ثم عبروا إلى البنجاب وجاوة وبورما في تسعينيات القرن

الثالث عشر وذلك قبل أن يفقدوا قوتهم الدافعة الأصلية . واستخدم المغول رماة السهام الخفيفة الراكبين جنبا إلى جنب مع قوات الصدمة من الفرسان الثقيلة . وطوروا أساليب القنص للاتصال والسيطرة من بعد بما يناسب الاستخدام العسكري بواسطة الأرتال الخفيفة الحركة الفائقة التنسيق في الوقت والمكان الصحيحين . وبفضل الاستطلاع الجانبي والأمامي وخدمة المراسلات المترجلة أمكن للقادة المغول أن يفرضوا سيطرتهم التي ليس لها مثيل . وقد استعادت الموجة التركية عزمها بعد عام ١٣٠٠م لتواصل الانتشار داخل الهند ودولة بيزنطة حتى بلغت خط السافا ــ الدانوب في عام ١٥٠٠م .

ولما اخترع المدفع فقد هؤلاء الفرسان قيمتهم في أرض المعركة وكان الصينيون قد استخدموا البارود في الأغراض الحربية حوالي عام ١٠٠٠م . ومن المحتمل أن يكون البارود قد وصل إلى أوروبا مع الغزو المغولي لها . وقد أدى دورا في حروب فرسان التيتونيين ضد الليتوانيين والروس . وكان الزعيم البوهيمي جان سيزكا **Jan Zizka** أول من استخدم المدفعية بأسلوب منهجي وذلك في حروب الهوسان **Hussite Wars** فيمابين عام ١٤١٩ ، ١٤٣٤م . وفي التنظيمات المسيحية الداخلية قرعت أسلحة البارود أجراس نعي الفرسان ، كما أنهت عهد الحكم الذاتي لكبار ملاك الأرض القابعين خلف أسوار قلاعهم الحجرية . ومهد التوزيع الأوسع للسلطة الطريق أمام الحكم المركزي للملكيات فلم يكن يستطيع امتلاك أسلحة البارود الغالية سوى الخزائن الملكية لتهدم أسوار القلاع . وقد أعادت المدافع ميول الصينيين القديمة إلى المركزية ، كما دعمت الكونفوشية الوحدة السياسية فيما بين عام ١٢٧٠ و ١٩١٢م . وفي اليابان احتالت طبقة الساموراي للإبقاء على نظام الإقطاع بحظر امتلاك المدافع . فلما تطورت المسدسات والطبنجات وصار لها تأثير قوي فقد الفرسان تفوقهم الذي كان القوس الطويل قد منحه لهم . ومع أن أسلحة البارود الخفيفة هذه احتاجت إلى مدة طويلة لتكتسب معدل النيران والدقة المتكافئة مع قوة القوس الطويل فإنها لم تكن تتطلب من رماتها عضلات قوية أو مهارة فائقة في التصويب على نحو ما كانت تلك الأقواس

الطويلة تتطلبه لتحقق النجاح . ولم يعد ثمة بد من تنظيم عمليات التعدين والصهر والقوالب والكيمياء لخدمة صناعة المدافع والذخيرة ، وكلها أمور تخرج عن قدرة أو اهتمام القبائل الرحل . وقد حول سلاف موسكو Slavs of Muscovy التيار بعد عام ١٤٨٠م بزحفهم الكثيف خلال فرسان آسيا وهم يحملون الطبنجات والمسدسات في أيديهم .

ثم جاءت السيطرة الأوروبية على العالم فيما بين عام ١٥٠٠ و ١٨٥٠م كنتيجة حتمية للولع بالقتال الذي غذته أعمال التدمير المبتكرة خلال القرون الطويلة من الحروب الإقطاعية المتواصلة . وكانت هذه السيطرة الأوروبية تعتمد على قوة نيران بحرية متفوقة للغاية . واستخدم البنادقة المدافع المثبتة على ظهور السفن لأول مرة في القرن الرابع عشر . ثم فتحت المزاغل في جوانب السفن في نهاية القرن الخامس عشر ليمكن إطلاق نيرانها الجانبية التي أصبحت بعدئذ الأسلوب الرئيسي للاشتباك في العمليات البحرية ، وقد كان البرتغاليون روّاد هذا المجال فوق مياه المحيط الهندي . ثم تضاءل عالم السهوب الأوراسية بعد تدفق الأتراك فيما بين عام ١٥٠٧ و ١٥١٥م ، وحلت محله شبكة المواصلات البحرية التي جذبت المعاملات العالمية إلى بؤرة على شواطىء أوروبا عبر المحيط الأطلسي . وظهرت في أوروبا نفسها حيث تبلور مفهوم الدولة ــ الوطن Nation-State ذات السلطة المركزية والجيوش الجرارة الرفيعة المستوى من حيث التدريب والقدرة على المناورة لإنتاج أفضل حشود النيران وأسرع انتشار في الميدان . وقد أوقع احتكار الدولة لهذا النوع من العنف المنظم حكومتها في نضال مستمر مع خصومها الأجانب . وترتب على هذه الخصومات الشعبية تقدم سريع في التقنيات بهدف إحراز المزايا في هذا التنافس الشديد والمتواصل . لقد مهد التنظيم الحربي الوسيلة لنشأة دولة بروسيا فيما بين عام ١٦٤٠ و ١٧٤٠م ، كما ظهرت طبقة النبلاء العسكريين الروس كوسيلة لتحديث الدولة عمد إليها أول القياصرة في ستينيات القرن السادس عشر ، ثم رفعها بطرس الأكبر إلى الذروة بعد عام ١٦٩٨م .

ثم جاء القرن التاسع عشر بتقدمه العظيم في النقل والمواصلات فأتاح

للجيوش سرعة نشر القوات بكثافات كبيرة وإمكانية السيطرة عليها وهي منتشرة على شريحة واسعة من الأرض . وقد تطلب كل ذلك تنظيمات أكثر تعقيدا في أجهزة القيادة . وكان مد الخطوط الحديدية في شبه القارة الهندية في عام ١٨٥٣م في بعض دواعيه لأغراض فرض الحكم الإداري والعسكري على البلاد . وبعد أن أثبت البروسيون كفاءتهم الاستراتيجية عام ١٨٨٦م قام الألمان بمد سككهم الحديدية لتلبية المطالب العسكرية بالدرجة الأولى .

وبدأ دمج النظام الاجتماعي في القاعدة الصناعية داخل آلة الحرب الوطنية مع نشأة هيئة الأركان العامة البروسية وانكبابها على مهمة التخطيط الحربي . وقد وجهت نظم التعليم والصناعة والبنية التحتية للاقتصاد نحو إنتاج المواد وتدريب القوة العاملة وتعبئتها في زمن الحرب .

ولقد حددت القاعدة الصناعية اللازمة لإعاشة الشعب زمن الحرب عندما يكون مسرحها عالميا مجال التنافس بين الدول وحصرته في عدد قليل منها . وفي عام ١٨٥٠م سيطرت بريطانيا على البحار بفضل تفوقها الصناعي . ثم راحت الزعامة الصناعية تتحول منذ عام ١٨٧٠م إلى ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، كما أصبح التقدم التقني علماً من العلوم التطبيقية . وفي عام ١٩١٧م اشتركت الولايات المتحدة في الحرب الأوروبية كما قام البلاشفة بإسقاط النظام القيصري والانسحاب من الحرب الدائرة . وكان ذلك إيذانا بتسرب السيطرة العالمية من يد أوروبا . واعتنقت ألمانيا النازية واليابان والدولة الروسية أنموذج الأركان العامة البروسية في تنظيم الحكومة . وترتب على سعى ألمانيا لاستعادة هذه السيطرة أن عقدت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وروسيا اتفاقا اتخذ الطرفان الأولان بسببه نظام التعبئة الشاملة وحشدا كل الإمكانات الاقتصادية والعسكرية في أغراض القتال لتحقيق مبدأ الحرب من أجل البقاء . وقد ترتب على ذلك زيادة سيطرة الحكومة على أنشطة المجتمع والحيلولة دون وقوعها تحت تأثير الصدمات الخارجية .

ثم ساد الهدوء أوروبا الأطلسية بعد أن نال منها الإجهاد غايته فدخلت

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في منافسة للسيطرة على مقدرات العالم . ووصل التنافس بينهما إلى حد التحفظ في العلاقات بسبب قدرة كليهما على نقل وسائل هائلة للتدمير الشامل في غضون دقائق قليلة إلى أي مكان على وجه الأرض . وبعد أن كبح ميزان التدمير المؤكد المتبادل جماح الجيوش الضخمة صارت الحرب منذ منتصف القرن العشرين محلية متقطعة وغير منتظمة . وعلى الرغم من أن الصواريخ النووية قد حولت العالم إلى مسرح تشكل شرائحه الجغرافية دوائر عظمى ، وليس لسطحه من أهمية ، لم يبق للنصر الحقيقي معنى إلا بالسيطرة على الشعوب والأراضي ، الأمر الذي يستلزم استثار وإخضاع سطحها . وهكذا استمر كل من قوام الأرض وجغرافية الحرب أمراً سياسياً بالغ الأهمية .

مراجع الفصل الأول

الاقتباسات مأخوذة من :
- **Sun Tzu : The Art of War, translated and with an introduction by S.B.Griffith (Oxford University Press, Oxford, 1963) .**

توجد دراسة شاملة لتطبيق الجغرافيا على الشؤون العسكرية في :
- **L.C.Peltier and G.E.Pearcy : Military Geography (Van Nostrand, Princetion,1966) .**

عولج موضوع توزيع القوة العسكرية في :
- **J.Soppelsa : Geographic des Armaments (Masson, Paris,1980) .**

اقتبس موضوع تاريخ جغرافية القوة العسكرية من :
- **W.H.McNeill : The Rise of the West (University of Chicago Press, Chicago,1963) .**

أحدث الدراسات المتيسرة عن صراع العنف يوجد في :
- **F.A.Beer : Peace Against War: The Ecology of International Violence (W.H.Freeman and Company, San Francisco,1981) .**

عولجت طبيعة الحرب في النصف الثاني من القرن العشرين في :
- **Sir Robert Thompson (ed.) : War in Peace : An Analysis of Warfare since 1945 (Orbis, London,1981) .**

الفصل الثاني
الاستخبـــــارات
INTELLIGENCE

«عناصر فن الحرب خمسة ، أولها قياس المسافة ، والثاني تقدير الكميات ، والثالث عمل الحسابات ، والرابع عقد المقارنات ، أما الخامس فإنه يتمثل في كيفية اقتناص النصر»

صن تزو . (الفصل ٤ الفقرة ١٦)

الخرائط Maps :

تعتبر الخرائط أقوى أدوات ورموز الاستخبارات واتخاذ القرارات وفرض السيطرة في الحروب . كما أنها وسيلة تسجيل ونقل المعلومات من مجالس الحرب إلى قمرات الطيارين ومراكز قيادة السفن الحربية وقيادات السرايا الميدانية فضلا على كونها وسيلة حساب التحركات وتوجيه الأعمال . وقد كتب اميل لودويغ Emil Ludwig عن نابليون يقول :

« وسواء أطالت وقفته أم قصرت فإن الخريطة لم تكن تفارق يده وهو قاعد في عربته أو قائم في خيمته أو مقيم في معسكره أو منكفيء إلى جانب المدفأة .. وعبر كل البلاد ، وطوال سِني حياته ظلت الخريطة تلازمه وقد امتلأت صفحتها بالدبابيس ، تضيئها الشموع في الظلام بعشرين أو ثلاثين ذبالة ، وإلى جانبها زوج من البوصلات المغناطيسية . كانت هي المحراب الذي يؤدي فيه صلواته ، والبيت الحقيقي لرجل حرمه القدر نعمة البيت الدافيء » .

إن المهارة في التمثيل المجرد لليابسة وسكانها إن لم تكن عالمية فإنها واسعة الانتشار . والملاحظ أن القدرة على رسم صورة عامة لسطح الأرض في الأذهان ثم نقلها ببعديها إلى الآخرين تبدو وكأنها أمر طبيعي تماما . ولا يجد الأطفال أدنى صعوبة في رسم الخرائط . أما تنسيق القتال في حرب منظمة فيستلزم بعض العلم بما يقع خلف مدى النظر من أراضٍ . وكثيرا ما

استخدمت العصا في رسم خطوط على الرمال أو أي علامة أخرى أكثر استمراراً لتوضيح الأشياء غير المنظورة للعين. وقد استخدمها الكشافة والجواسيس لوصف طبيعة الأرض غير المألوفة أو مواقع العدو، كما اعتمد عليها القادة للتأمل والتصور وفي تصريف الأعمال.

وفي العصور التي كانت فيها القرصنة والتجارة والسياسة أقل ترابطا بعضها ببعض نجد أن الخرائط قد خلطت بين الدوافع العسكرية والتجارية. فإذا كانت الأهداف الملاحية للقيادة البحرية البريطانية قد دفعتها إلى رسم الخرائط البحرية لتعاونها في السيطرة على البحار والمحيطات، فإن إحكام تصويب المدافع الضخمة وتحريكها من مكان لآخر قد احتاج أيضا إلى معلومات طبوغرافية كثيرة استلزمت إجراء عمليات مسحية دقيقة. ويعود الفضل إلى العالم فريزيوس **Frisus** أستاذ ميركيتور **Meractor** في تزويد رجال المدفعية والجغرافيين عام ١٥٣٣م بالتقنية الأساسية لرسم الخرائط وإحداثياتها وهي علم حساب المثلثات. ومن المعروف أن التنشين من نقطتين محددتين على الخريطة يحدد أي نقطة بعيدة ثالثة. وقد سهل اختراع ديجز **Digges** للمزواة **Theodolite** عام ١٥٥١م عملية القياس وكل الحسابات المترتبة عليها. كما أصبح تقدير المسافات في أرض المعركة علماً معترفاً به. إلا أن تحريك الرجال وأرتال المدافع بين أراضي المعارك ظل يعاني من قلة الدقة ويستند إلى تمثيل طبوغرافي غامض في خرائط القرن السادس عشر. وعندما ألغى هنري الثامن **Henry VIII** الأديرة الانجليزية نشطت أسواق الأراضي وزادت حاجة العسكريين إلى خرائط أكثر دقة، فكانت المزواة هي الوسيلة إلى تحقيق ذلك. وكانت قمرة أوروبا ـــ سهل الفلاندرز في شمال فرنسا ـــ هي المكان الذي بدأ منه رسم الخرائط للأغراض الحربية تحت إشراف الدوق دي سالي **Duc de Sully** في القرن السادس عشر. وكانت المعرفة الجغرافية في حالة يرثى لها في الجزر البريطانية كما كشف عنها الذعر الذي صاحب ثورتي اليعاقبة عام ١٧١٥م و ١٧٤٥م. ثم بدأ المهندسون الملكيون الرسم المساحي لأراضي اسكتلندة في أعقاب هاتين الثورتين إلا أن الحرب مع فرنسا

عام ١٧٥٥م تسببت في تعطيلهم . وفي عام ١٧٨٣م كلّف نفس هؤلاء المهندسين بمهمة رسم الإحداثيات لجنوب شرق انجلترا بغرض التعاون مع الفرنسيين في قياس المسافة الحقيقية بين مرصد جرينتش ومرصد باريس ، لتحديد خطى طولهما بغاية الدقة . إلا أن الثورة الفرنسية أوقفت هذا العمل وإن أسهمت بعد ذلك في زيادة مدى عملية رسم الإحداثيات ورسم الخرائط لتشمل كل البلاد . وخشية أن تتعرض انجلترا للغزو الفرنسي أنشأت فرعاً للمساحة العسكرية عام ١٧٩١م ، وألحقته بسلاح المهندسين الملكيين . ثم ظلت أعمال المساحة في يد هؤلاء المهندسين الملكيين حتى ستينيات القرن العشرين حيث كان مدلول الرسم ينم عن أغراضهم في رسم الخرائط . ولم يكن توجيه المدافع للاشتباك مع الأهداف التي تقع خارج نطاق الأفق بالدقة الواجبة ممكنا دون توفر المعلومات الدقيقة عن موقع المدفع والهدف وارتفاعهما عن مستوى سطح البحر . وقد جاءت أغلب التطورات في تقنية المساحة كرد فعل لهذا المطلب المحدد في سبيل زيادة مجال ودقة الأعمال المساحية كلما زاد مدى القذيفة ، واشتد تأثيرها التدميري . وقد واكبت عملية الانتقال من رسم الإحداثيات إلى المراقبة بالبالونات فالتصوير الجوي والراداري وحتى المستشعرات التي تحملها الأقمار الصناعية تحولا مماثلا عن استخدام البارود الأسود إلى الأنابيب الملساء ، فمواد الكوردايت المفرقعة ، وحتى القاذفات فالصواريخ الموجهة .

وإلى جانب رجال المدفعية فقد كانت حاجة كل الأفرع ماسة لتغطية الأرض بالخرائط التفصيلية فضلا على القدرة على قراءة الخرائط الطبوغرافية لتوجيه تكتيكاتهم إلى المسار الصحيح . ازدادت تأثيرات تضاريس الأرض على سير الحروب ونتائجها حتى أصبحنا نعزو سبب هزيمة نابليون في معركة ووترلو Waterloo إلى خطأ في تصوره الطبوغرافي لأرض المعركة . ويبدو أن خرائطه وأدلّاءه لم يكونوا على المستوى المطلوب تمييز طريق فرعي يقطع ما لاح أنه سهل مفتوح . فلما أرسلت الفرسان الفرنسية عبر هذا السهل لتطارد الانجليز المنسحبين ، فوجئت بالمنخفض الصناعي الذي جعلها تتساقط بعضها فوق

بعض . وقد سببت غابات الآردين كوارث متكررة نتيجة الفهم الخاطيء لجغرافيتها ، مع ضعف الذاكرة العسكرية . فقد اعتبرت هذه المنطقة التي يسهل اختراقها كتلة من الغابات الضخمة التي اعتبرت مفصلا دفاعيا ضعيفا ، فنتج عن ذلك أن تركت نقطة ضعيفة في الهيكل الدفاعي استغلها العدو مرتين في الحرب نفسها. ويبدو أن القاعدة التي تقول « .. إن الحواجز العضوية أقل صمودا أمام الهجوم من المقاومة البشرية» قاعدة صحيحة . ولقد نصح كل من فون مانشتين **Von Manstein** وغودريان **Güderian** رئيسهما فون رونشتد **Von Rundstedt** أن يقتحم عبر غابة الآردين عام ١٩٤٠م بدلا من أن يكون هجوم سنة ١٩١٤م عبر أراضي بلجيكا . وقد ظهرت حقيقة هذه الهضبة المجزأة بغاية الوضوح ، ومدى صلاحيتها لنفاذ القوات عبرها قبل أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها . واعتبرتها خطة الحلفاء بمثابة سدادة يمكن استدراج جزء كبير من الجيوش الألمانية إليها حيث يُطبق جناحا الحلفاء عليها هناك ضد جانبي الأرض المرتفعة شرقا وغربا . إلا أن الجزء الأكبر من هذه الجيوش الألمانية نجح في الإفلات بسهولة عبر غابات الآردين نظير التضحية بمجموعة صغيرة من حرس المؤخرة . ثم كرر الحلفاء هذا الخطأ الجغرافي نفسه مرة ثانية بتركهم ستارة رقيقة من القوات لتغطية هذا الجزء من الجبهة عام ١٩٤٤م ، فقام فون مانتوفل **Von Manteuffel** بتوجيه الهجوم الألماني المضاد الأخير عليه . ثم تكرر الخطأ في النظرة الجغرافية إلى الأرض في أثناء غزو الحلفاء لنورماندي إذ فشلت الاستخبارات في تقييم مدى صلاحية أرض المنطقة المليئة بأسوار الشجيرات والمتسلقات للسير عبرها، فكان التقدم المدرع هو الضحية ، إذ هبطت سرعته حتى أصبح مجرد زحف بطيء، حتى ابتكر الحلفاء وسيلة للتخلص من فك الأسوار ودفعها جانبا .

إن إنشاء الخدمات الخاصة بعمل الخرائط الجغرافية في أوروبا كان ذا صبغة عسكرية منذ نشأته ، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فرغم أن سلاح المهندسين في القوات البرية وجّه أنشطة المساحين لمعاونة القطاع المدني في الجزء الشرقي من الدولة فإن الجزء الغربي تم رسم خرائطه لغزوه والسيطرة

عليه . ولم تبدأ المساحة الجيوليوجية الأمريكية في استثمار الدوافع الاقتصادية لرسم الخرائط إلا مع نهاية القرن التاسع عشر .

وبنظرة أكثر شمولية فقد تطلب تخطيط وإدارة الحروب وليس مجرد المعارك توفر خرائط موثوق بها ، تحمل معلومات كافية وتغطي شريحة أكبر من الأرض بمقاييس رسم أصغر . وقد تجلت قدرة رسامي الخرائط الألمان بفضل التنظيم الجيد لهيئة الأركان البروسية التي تسنمت قمة التخطيط للحرب وإدارتها في حروب عام ١٨٦٦م ، ١٨٧٠م بفضل ما توفر لديها من معلومات جغرافية كثيرة سواء في الخرائط التكتيكية ذات مقياس الرسم الكبير أو الاستراتيجية ذات مقياس الرسم الصغير . ولا يخفى أن القائد البروسي الموهوب فون مولتكه **Von Moltke** كان قد درس على يدى واحد من أشهر الجغرافيين هو ريتر **Ritter** .

وبمضي الزمن تغيرت نوعية الخرائط اللازمة لخوض المعركة بتغير تقنية الحرب . فحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن القادة يحتاجون لأكثر من نقطة عالية مشرفة ليسيطروا منها على أرض المعركة كلها ، ولهذا لم تكن الخرائط الطبوغرافية التفصيلية مطلوبة للإجراءات التكتيكية على هذا المستوى . وكان يكفي المرؤوسين أن يشير قادتهم إلى الأماكن التي يتعين عليهم المناورة عندها ويحددوا لهم ظواهر وتضاريس الأرض التي يرونها معا . وقد ينجم عن الغباء أو الغطرسة أن يحدث الخطأ في نقل المعلومات على نحو ما ترتب على إشارة النقيب نولان **Captain Nolan** الساخرة إلى وادي الموت فأخذها الجنرال كارديجان **Cardigan** على محمل الجد وأفنى لواءه الخفيف في اقتحام هذا الوادي بينما نيران المدفعية والقناصة الروس تصب حممها عليه من كل حدب وصوب . وكمبدأ عام تعتبر كلمات التلميح والتفتيش البصري كافية تماما . ففي الأرض المفتوحة كان القادة أمثال نابليون **Napoleon** وولنجتون **Wellington** يستطيعون أن يراقبوا بأعينهم كل ساحة القتال في ووترلو . ولهذا لم تكن الحاجة ماسة إلى الخرائط الطبوغرافية ذات مقياس الرسم الكبير ولكن إلى خرائط ذات مقاييس رسم صغيرة للطرق وشبكات المواصلات لإجراء

تحركات الفرق والجيوش نحو الجبهة . ولم تكن الخرائط تحظى إلا بأقل الاهتمام التكتيكي ، حتى من المدفعية التي كانت تعتمد في عملية التصويب على الأهداف بأجهزة التنشين البصرية المباشرة .

وترتب على زيادة القوة التدميرية والمدى أن صارت مدافع القرن العشرين تحتاج إلى خرائط طبوغرافية دقيقة . كما أن نشر القوات بطريقة لا تجعلها أهدافا متراصة استلزم بعد الحرب العالمية الأولى أن تقاتل القوات وهي معتمدة على الخرائط وليس على رؤية أرض المعركة بالعين المجردة . كما أن المناورات على مستوى الكتيبة صارت تدار وفقا لإحداثيات الخرائط . أما استخدام نيران المدفعية الطويلة المدى وغير المباشرة فقد أصبح يحتاج إلى الخرائط الدقيقة منذ الحرب العالمية الأولى فصاعداً ، وذلك حتى يستطيع ضباط المراقبة الأماميون طلب النيران وتوجيهها على الأهداف التي لا تراها أطقم مدافعهم نظراً لبعد الشقة .

وبالمثل ، فقد ترتب على زيادة مدى وقوة تدمير الأسلحة النارية خلال القرن الحالي زيادة في انتشار القوات ، ونقص في مقاييس الخرائط المناسبة للعمل في الميدان ، فبعد أن كان قادة سرايا وكتائب الحرب العالمية الأولى يستخدمون خرائط ذات مقياس رسم ١ : ٢٥,٠٠٠ صاروا يستخدمون خرائط ذات مقياس رسم ١ : ٥٠,٠٠٠ في الحرب العالمية الثانية ، وخرائط ذات مقياس رسم ١ : ٢٥٠,٠٠٠ في فيتنام لتغطية مهام السرايا المنقولة جوا حتى يستطيعوا متابعة خط سير الحوامات التي تنقلهم ، والتي لم تعد الخرائط ذات مقياس رسم ١ : ٥٠٠٠٠ كافية لها . كما نتج عن خطر التدمير الشامل بالأسلحة الذرّية والنووية انتشار أوسع للقوات والمعدات ، كما أن ارتفاع معدل الحرب الميكانيكية الحديثة استدعى استخدام خرائط ذات مقياس رسم صغير بواسطة قادة السرايا وما فوقهم .

ويجب أن توفر الخريطة المعلومات الكافية عن الأرض التي تكفي لاتخاذ القرار العسكري فيما يختص بالوقت والمسافة . أما القادة على المستوى الأعلى

من الفرقة ، فما زالوا مثل جنرالات القرن التاسع عشر ، يهتمون بالدرجة الأولى بخطوط المواصلات وبالطرق ، فهم لا يقاتلون بالمعنى التكتيكي للكلمة ، بل يدفعون بوحداتهم إلى المعركة أو يسحبونها منها . وينفسح الوقت أمام قادة الفيالق والجيوش عدة ساعات أو بضعة أيام قبل أن يبدأ تأثير قرارهم في الظهور في مجريات القتال ، وذلك نظراً لطول الزمن الذي يستغرقه تحرك الوحدات الرئيسية ، وحتى الوحدات المحمولة منها .

أما القرارات التكتيكية على مستوى الفرقة فأقل فإنها تحتاج إلى تفصيلات ومعلومات أكثر وأحدث . فمن الواجب تحديد مخروط النيران لكل خط بصر ، فضلا على تأمين الإخفاء والتمويه ضد نيران العدو ومراقبته البصرية ، ومدى سهولة حركة عربات الجنزير خارج الطرق ، وتوفر علامات الارشاد لسير الحوامات وكذلك أراضي الهبوط التي تصلح لها . وعلى هذا المستوى التكتيكي نفسه يكون وقع القرارات فوريا تظهر آثاره خلال دقائق قليلة . وقد لا تتجاوز في حالة السرايا مجرد بضع ثوانٍ . وقد تتغير العوامل العسكرية لظواهر الأرض بسرعة تعادل تغيير القوات الصديقة والمعادية لأماكنها . إن صلية مدفعية واحدة قد تحيل تقاطع طرق تخدم قرية ما إلى فخ دبابات مكون من الركام . وقد تجعل من غابة يسهل اجتيازها عائقاً منيعاً . وكذلك قد يترتب على مرور سرية دبابات فوق حقل أن تحرث أرضه وتقلب تربته حتى يستحيل على الدبابات التي تليها أن تعبره .

إن الأهمية المتزايدة لتضاريس الأرض ، وبالتالي للخرائط في العمليات الحربية الآلية ، قد جعلت الأخطاء والمعلومات البشرية مثل الطرق ومساحات المناطق السكنية تتغير كثيراً خلال الزمن الذي يمضي بين إجراء الأعمال المساحية للخريطة وبين إتمام طبعها . كما تختفي الجسور في أرض المعركة وتهدم القناطر والسدود وتتحول المنازل إلى أكوام من الركام ، ويتم كل ذلك بأسرع مما يستطيع المساحون أن يتابعوه على الخريطة . لذا جنحت القوات الأمريكية في فيتنام إلى استخدام الصور الجوية الحديثة وفضلتها على الخرائط في أعمال تحليل ودراسة طبيعة الأرض لكونها أكثر مواكبة لما يدخل على ظواهر الأرض من

تغييرات في مسرح العمليات .

إن استخدام خرائط غير دقيقة يمكن أن يؤدي إلى نتائج مدمرة ، ومن المعروف أن حوالي ٤٠٪ من روسيا الأوروبية مكسو بالغابات ونظراً لعدم توفر خرائط موثوق بها للجيوش الألمانية لتلك المنطقة إبان الحرب العالمية الثانية فقد وضحت تلك المناطق على أنها مغطاة كليا بالغابات . وقد وقعت الأركان العامة الألمانية في هذا الخطأ بسبب اعتمادها على الخرائط الخاطئة التي كانت لديها بينما كانت الحقيقة ماثلة لأعين كل من أتيحت له فرصة الطيران فوق أراضي تلك المنطقة من الاتحاد السوفيتي . وفي الأيام الأولى من حرب فيتنام اعتمد جيش فيتنام الجنوبي على الخرائط الفرنسية بينما استخدم الأمريكيون الخرائط الأمريكية . وكانت النتيجة أن هوجمت قرى صديقة وقصفت بنيران القاذفات الأمريكية حتى بادر المسؤولون إلى صرف خرائط أمريكية للفيتناميين الجنوبيين لمنع الوقوع في هذا الخطأ .

تحليل الأرض : Terrain Analysis

يتضمن ما يجب معرفته عن شريحة من الأرض لأغراض ممارسة القتال فوقها كل شيء عن السطح والتضاريس التي يمكن أن تؤثر على العملية الحربية وتلزم معرفة درجة صلاحية هذه الأرض للسير عبرها بصفة عامة وأين يكون العبور متعذراً أو مستحيلاً . ويلزم معرفة الأماكن التي تصلح لإبرار المعدات والرجال عن طريق البحر ، وتلك التي تصلح للاسقاط الجوي . وكذلك المناطق المناسبة لإقامة المعسكرات والتحصينات والمدقات . وبعد تحديد نقط الأساس وخطوط التحرك يصبح الاشتباك الفعلي مع الخصم متوقفاً على خط البصر الذي يضمن دقة الإصابة ، فضلا على الوقاية والاستتار الذي توفره هذه الأرض ومدى التصادم المترتب على الشكل العام للأرض . وبصفة خاصة يلزم تحليل الأماكن التي يتم الدفاع عنها وتلك التي سوف توجه ضدها الضربات ، وكذلك توزيع الرجال والمدافع في أنحاء هذه الأرض بكل دقة . وتشمل هذه المسائل المكونات الطبيعية لمظهر الأرض ، وتلك التي صنعها الإنسان . ولن

يهتم قائد الدبابة أن تكون ضفة المجرى المائي الشديدة الانحدار طبيعية أم نتيجة أعمال الحفر بأيدي البشر ، ذلك لأنها سوف تشكل له مانعا في كلتا الحالتين وبصرف النظر عمن تسبب في وجودها . أما الميول الخلفية للتلال ، وأكوام نفايات المحاجر ، وبيوت الفلاحين الحجرية فهي توفر جميعا وقاية كافية من خطر النيران المباشرة للدبابات ، وتعتبر كلها ظواهر عادية لنفس المنطقة العسكرية .

وإذا أدركنا أن التغييرات التي طرأت على مظهر الأرض بفعل الإنسان ظلت هامشية حتى وقت قريب فلن ندهش من تركيز الكثير من بحوث الأرض في الأغراض العسكرية ذات العلاقة بالجغرافيا الطبيعية . إن مقياس الرسم وأهمية التفصيلات وكذلك القياسات اللازمة للرد على التساؤلات العسكرية تعتبر ذات مستوى مشابه في الدقة لما يتوخاه علماء الجيومورفولوجيا المهتمون بالعمليات وأنسجة الأرض اللتين تؤثران في نشأة الأشكال التضاريسية لسطح الأرض . ويحمل طراز تضاريس الأرض والبيئة المحيطة بها في مفهوم الجغرافيا الطبيعية شبها قويا لمسرح القتال في الماضي والحاضر المحتمل . ويبدو أن خطوط الاستفسار الحالية قد برزت نظراً لأهميتها في الحرب . وتؤكد هذه الحقيقة شدة الاهتمام بمظهر الأرض الصحراوية . وفي حالات أخرى ظهر أن الأهمية العسكرية للأرض كانت مثمرة أكاديميا بينما كانت تعتبر غير ذات قيمة من وجهة النظر الحربية المحضة . إن البحوث المستفيضة التي أجريت عن نشأة المنحدرات كانت ممولة من قبل الجيش الأمريكي نظراً لأهميتها المتوقعة لعمليات الدبابات ولكن نتائج تلك الدراسات لم تكن ذات قيمة تذكر من هذه الناحية . ولا نستبعد أن يكون الاهتمام العسكري ببعض ظواهر الأرض هو الدافع إلى الاهتمام الأكاديمي بها . ويقيناً فقد تمت بحوث مستفيضة في الجغرافيا الطبيعية لصالح إدارة الحرب بأساليب أكثر كفاءة .

وهناك حالة فريدة لهذا التفاعل المتبادل بين الجغرافيا الطبيعية والمعارك الحربية تظهر من واقع أعمال مجموعة الصحراء بعيدة المدى التي استخدمتها القيادة البريطانية في الصحراء الغربية إبان الحرب العالمية الثانية . فمنذ

الثلاثينيات والمهندس ريتشارد باجنولد **R.A.Bagnold** الجغرافي الذي تخرج في كيمبردج لا يدخر جهدا لمسح الصحراء الليبية في صحبة بعض الزملاء . وقد استكشف باجنولد مختلف أنواع الأرض التي شكلتها الرمال المندفعة بالريح لتكوّن الكثبان والمسطحات الرملية الناعمة . ولتبسيط عملية الحركة في هذه الصحراء الجرداء ابتكروا البوصلة الشمسية . فلما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية وبدأ القتال في مسرح شمال أفريقيا قام باجنولد بتنظيم مجموعة الصحراء بعيدة المدى لاستغلال خبرته العريضة على أفضل الطرق لقطع خطوط روميل **Rommel** الداخلية وتدمير طائراته وهي على مدارجها في مطارات المحور .

وكان الجيش الفرنسي قد أعد عدة خرائط عام ١٩١٨م تبين الأراضي التي تصلح لعبور الدبابات ثم حذا المهندسون الملكيون البريطانيون حذوه في شمال أفريقيا فرسموا شرائح الأرض التي تصلح لسير العربات ذات العجلات أو الجنازير على أرض المعركة وقد ظهر سطح الأرض في خرائط السير هذه بألوان مختلفة طبقا لدرجة سهولة السير فوقها . وقد أنتجت خرائط أخرى من هذا النوع في غزو رأس جسر أنزيو **Anzio** بإيطاليا . ومنذ عام ١٩٤٥م ومهندسو الجيوش البريطانية والأمريكية يتابعون تحليل مظهر سطح الصحراء مستغلين بعض الإمارات الواقعة على مضيق هرمز وساحل الخليج العربي وكذلك الأراضي الواقعة قرب صحراء يوما في الولايات المتحدة الأمريكية كحقل للدراسة الميدانية . ولقد اشترك الجيومورفولوجيون الأكاديميون في هذه العمليات بنشاط . ثم زاد من الاهتمام تعاقب الجولات العربية الصهيونية ووقوع مصادر النفط في تلك الأماكن الأمر الذي يجعلها بؤرة الاهتمام العالمي فيما سوف تأتي به سنوات قوس الأزمات .

ولقد كان الشغل الشاغل لمجموعة كبيرة من المخططين العسكريين إبان الحرب العالمية الثانية البحث في مدى صلاحية أجزاء من الساحل للإبرار البحري في مواجهة مقاومة الخصم . فقد كانت هذه المسألة حيوية بالنسبة لعملية تخطيط الغزو البحري في نورماندي كما كانت موطىء القدم لعملية قفز

الجيوش الأمريكية من جزيرة إلى أخرى في مسرح المحيط الهادي . وكان العامل الحاسم في سهولة وسرعة إبرار الأفراد والعربات إلى الساحل هو درجة انحداره فوق وتحت خط المياه ومدى تحمل التربة للأثقال التي تسير فوق سطحها . وقد جمعت مجموعة شارع بيكر التابعة لمكتب العمليات الخاصة الكثير من الصور الفوتوغرافية التي التقطها المواطنون أثناء تمضية أجازاتهم في شمال غرب فرنسا ، كما أنزلوا رجالاً على ساحل نورماندي ليعودوا بعينات من رماله وحصاه بهدف تحليلها واستنباط ما يلزمهم من معلومات عن هذا الساحل . وقد اهتدت مجموعة من الجغرافيين والمساحين تحت قيادة الأستاذ ويليامز W.W.Williams من جامعة كمبردج إلى الوسيلة لتحديد أسلوب انحدار الساحل تحت خط المياه عن طريق قياس الفواصل بين قمم الأمواج من واقع الصور الجوية . وكان سلاح المهندسين الأمريكي ومكتب الخدمات الاستراتيجية يملكان أقساما للاستخبارات الطبوغرافية تنتج نماذج لمناطق الإبرار البحري ذات مقياس رسم دقيق ، وكذلك الأهداف المهمة الأخرى من وجهة نظر الهجوم ، وذلك باستخدام المعلومات المأخوذة من الصور الجوية .

وقد بذلت الجهود منذ الحرب العالمية الثانية ليس بغرض وصف حالة المواقع التي يتم مسحها فقط ، ولكن لتعميم أحوال السطح أيضا حتى يمكن التنبؤ بنوعيته من واقع الصور الجوية المأخوذة عن بعد بواسطة المستشعرات أو الاشارات المرسلة من الأقمار الصناعية . وكان الهدف هو إجراء وصف للأرض من واقع المعلومات التي يتضمنها ملف تصنيف مراتبها المختلفة حسبما يمكن التعرف عليه من الصور الجوية . ويمكن تحديد مجموعات مستقلة من هذه المراتب تحت الظروف الجوية المختلفة . وقد يكون من المرغوب فيه إذا ما توفرت صورة جوية لجزء معين من العالم سوف تدفع إليه القوات أن يكون في الإمكان التنبؤ بأحوال سطح هذه الأرض بمقارنة خواص الأجزاء الظاهرة بالصور الفوتوغرافية مع مراتب الملف . وسوف تكون النتيجة عبارة عن خريطة من الطراز الذي يوضح مظهر سطح الأرض . وقد قام مهندسو الجيش

البريطاني وخبراء التربة والجغرافيون باختيار هذه الفكرة في مناطق السافانا المعتدلة الجافة والمناطق الاستوائية بالاعتماد على معلومات مساحية تم جمعها في بريطانيا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط وشرق أفريقيا . والملايو ، مع التركيز على أرض وطنهم حول بلدة اكسفورد حيث الأمور الإدارية أكثر يسرا ، وليبيا والإمارات العربية كأمثلة لمسارح الحرب الصحراوية ذات المغزى الاستراتيجي الأهم . وكانت الخلاصة من هذه التجربة أن الحصول على نظام عسكري مفيد للتنبؤ بأحوال الأرض بدرجة عالية من الدقة أمر مستطاع وأنه وإن لم يكن قد سبق انتهاجه فإن مثل هذا الأسلوب للحصول على المعلومات يمكن استخدامه بغاية السهولة والسرعة .

وقد ركز الجيشان الأمريكي والكندي على المقاييس الكمية لاكتشاف حقيقة وضع الأرض والاعتماد على خطوط البصر ودرجة صلاحية الأرض للسير بدلا من إنتاج نطاق دقيق الحبيبات من الصور الجوية لأي قطعة من الأرض في صورة وصفية لطبيعتها الوظيفية والجيولوجية . وقام باحثو سلاح الإمداد والتموين الأمريكي بأخذ قياسات للمسافات التي تفصل بين التلال والوديان ، والفروق بين أعلى وأوطأ النقط ، ومتوسط الميول وتوالي التغيرات بين الانحدارات الصاعدة والهابطة فوق منطقة اعتبروها وحدة للقياس . واتضح أن مجموعة كبيرة من العينات لأراضي الولايات المتحدة تقع ضمن ٢٥ مرتبة أساسية تتركز فيها الأنواع الرئيسية لمظهر الأرض بنمط شحيح .

وقد ركز سلاح المهندسين انتباهه على الأرض الصحراوية مستغلا مواقع الفحص في ولاية أريزونا . وقد بحثوا عن أفضل مجموعة من الخواص الأرضية للقياس ورسم الخرائط للأغراض العسكرية ، ولتحديد درجة صلاحيتها للسير على وجه الخصوص ، ومدى سهولة تحرك العربات خارج الطرق . إن تحليل مظهر الأرض تم عن طريق أخذ عدد من القياسات لسطحها هندسيا وجيولوجيا وكذلك نوع التربة والغطاء النباتي . أما تعميم أنماط مظهر الأرض فقد أمكن تكوينه من واقع قياسات الميول والبروزات والأنساق والمقطع العرضي للأرض . ولتقويم صلاحية الأرض للأغراض العسكرية يمكن وضع

الخواص الوثيقة الصلة بها جنبا إلى جنب في خريطة مركبة . ويمكن عندئذ أن تظهر درجة صلاحية الأرض للسير ، على سبيل المثال ، عن طرق وضع الخرائط ذات قدرة الاحتمال المحلية للتربة والانحدارات المتوسطة بعضها فوق بعض . وقد انهمك الجيش الكندي في مثل هذه الجهود لرسم خواص السطح من معلومات الصور الجوية في العروض الوسطى بغرض التنبؤ بمدى السرعة التي تستطيع العربات أن تسير بها عبر البلاد .

وكما يبدو فإن ظهور الصواريخ الموجهة قد حرر تبادل النيران من قيود سطح الأرض إلى الاحتكاك الذي يسببه كل من سطح الأرض والبحر . وقد أصبح خير الطرق لقذف وسائل التدمير بالصواريخ العابرة للمحيطات والقارات هو إطلاقها في دوائر واسعة جدا بحيث تصبح الأرض شبه كرة موحدة الخصائص . وحتى بعض أنظمة الصواريخ هذه تحتاج إلى تقدير الأرض . وقد كانت وزارة الدفاع الأمريكية الجهة الرئيسية لجمع المهارات المتخصصة في رسم الخرائط على امتداد السنوات القليلة الماضية بهدف ابتكار نظام توجيه صواريخ كروز التي تطير فوق سطح الأرض متأثرة بتضاريسها صعودا وهبوطاً .

وإلى جانب الإحساس بأهمية خصائص الأرض ، فقد ترتب على تأثير الأنواع المختلفة لمظهر الأرض على البشر والأسلحة والعربات والتكتيكات أن زاد إمعان النظر فيها . ولا يزال المهندسون يرجعون إلى معدلات تكلفة الأعمال التي وضعها الجيش البريطاني في أثناء فترة حكمه الهند ليقدروا تكاليف شق وإنشاء الطرق في المناطق المدارية . وبالنسبة للأحوال غير العادية لسكان الأراضي الواطئة فقد كانت هدفا مستمرا للدراسة . لقد فحصت الجبال والأدغال في كل من الدراسات التاريخية والتحليلية قبل الاقدام على أي عمل مقبل . ومن الطبيعي أن يحظى تصميم العربات والمعدات والأسلحة وكل التدابير التعبوية بأقصى درجات الاهتمام فيما يتعلق بالجهود والقيود والفرص التي توفرها البيئة . ولقد اشترك الجغرافيون اشتراكا مباشرا في بحوث سلاح الإمداد والتموين الخاصة بالتغلب على الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف

والغبار والوحل والرياح وكثافة المزروعات . وإلى جانب المسائل الأخرى فإن لون المعدات يجب أن يتكيف مع ما حوله حتى يتحقق الإخفاء بأفضل صوره . إن اللون الزيتي (الأخضر الغامق) قد لا يناسب الأرض الرملية الصحراوية التي توجد فيها عدة مسارح محتملة للعمليات .

ولسوف نعود إلى مناقشة تفصيلات بعض هذه الأمور المتعلقة بالتكيف مع البيئة الطبيعية عندما نتعرض إلى التكتيك .

وإذا ما كان للعلم بالمناخ وتأثيره دور في التحضير للأعمال الحربية فإن أمور الطقس المحلي تصبح ذات تأثير كبير على توقيت العمليات . وليس من المناسب اعتبار الأرصاد الجوية مجرد فرع من علم الجغرافيا ، ومع ذلك فإن التنبؤ بأحوال الطقس لأغراض القتال يدخل في دائرة اختصاص الجغرافيا . إن مثل هذا التنبؤ يشمل أماكن محددة وكذلك التوقيتات المحتمل أن تسود خلالها أحوال خاصة . لقد كان الدافع الذي حدا بالجنرال ايزنهاور آخر الأمر إلى إقرار يوم ٦ يونيو ١٩٤٤م لبدء عملية فتح الجبهة الثانية في أوروبا ، التي اشتهرت في التاريخ باسم غزو نورماندي هو ترجيح علماء الأرصاد الجوية له أن الطقس سوف يظل هادئا فوق بحر المانش لمدة تكفي إقامة رأس الجسر المطلوب . كما أن توقيت عبور نهر الراين بجيوش الحلفاء توقف على ضرورة حلول الضباب وانتشاره ليحجب العملية عن أنظار المدافعين الألمان . وكان الفيلد مارشال وليم سليم **Slim** في غاية الحذق والدهاء عندما شن هجومه المضاد في مسرح بورما خلال موسم الأعاصير والأمطار الموسمية الذي لم يكن اليابانيون يتوقعون على الإطلاق أن تحدث أنشطة قتالية خلاله ، ولهذا عمدوا إلى الراحة والدعة .

أما هؤلاء الذين يقاتلون في البحر أو الجو فإنهم لم يدخروا وسعا للحد من الظروف الصعبة عن طريق تحسين أداء سفنهم وطائراتهم ضد عصف الرياح وتلاطم الأمواج ، فضلا على تطوير وسائل استشعار وجود العدو رغم انتشار الضباب والسحب . ومن نافلة القول أن الاستشعار عن بعد يخدم الأهداف الأشمل للرؤية فيما وراء خط الأفق .

إن غالبية الملاحظات والقياسات التي أثارت اهتمام العلماء وأمدتهم بالخبرة العريضة عن الظروف المتطرفة للبيئة قد تمت لأغراض عسكرية بالدرجة الأولى . وفي بعض لحظات الحرج كشفت العمليات الحربية عن الظواهر الكامنة التي زادت من إدراكنا لكُنه العالم الذي نعيش فيه . فقد اكتشف الطيارون في أثناء غاراتهم على الجزر اليابانية في عام ١٩٤٤م تيارا ضيقا من الهواء على ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق مستوى سطح البحر ، يهب بسرعة تتجاوز ٢٠٠ ميل في الساعة حول دائرة عرض ٤٠° شمالا وقد استغل هؤلاء الطيارون هذه الرياح في رحلة العودة ، كما أن الجهود المضنية لاحتلال جزيرة ايوجيما **Iwo Jima** كانت تتأثر بضرورة تأمين قاعدة أمامية توفر الأمن للقاذفات الأمريكية التي استنفدت وقودها في مصارعة تلك الرياح أثناء طيرانها نحو الغرب . إن هذه الخبرة المستمدة من معرفة تلك الرياح التي أطلق عليها اسم التيار النفاث **Jet Stream** قد أسهمت في معرفة دورة الجو . ولا نقصد من وراء ذلك أن نزعم بأن الحرب هي أفضل وسيلة إلى تحصيل المعرفة أو أنها الوسيلة الوحيدة إلى ذلك : ولكنها تدعو البشر إلى بذل أقصى الطاقة لتوسيع دائرة تجاربهم ورؤيتهم للأمور .

التعليم العسكري Military Education

إن أكثر الأمور إسهاما مباشرا في الاستعداد للحرب من قبل الجغرافيين هو تعليم الجنود . وقد كان لهم دور تقليدي في تدريس مظهر الأرض وقراءة الخرائط . وتعتبر حاسة الإدراك بالمكان بالنسبة للجندي مهارة أساسية تأتي بصورة طبيعية وتنمو بالتجربة مثلما هو الحال مع لاعب كرة القدم . ويساعد التدريب الميداني على تطوير ملكات الإحساس بالأرض وبعد النظر مثلما تساعد مباراة الكرة على ذلك . وفيما يتجاوز مجال الفرد ويعلو فوقه نجد أن واجب القادة بدءاً بقائد الجماعة وانتهاءً بالقائد العام يتطلب منهم القدرة على الإحساس بالفراغ المجرد في الخرائط ، وتحليل الأماكن والحركات على هذه النماذج المبسطة للأرض . وليس ثمة شك في أن اتقان ذلك يتطلب الإحساس بالمكان الذي يعرفه الفيلسوف العسكري كارل فون كلاوزيتز **Von**

Clausewitz بقوله :

«إنه القدرة على إدراك الفكرة الهندسية الصحيحة والسريعة عن أي جزء من الدولة ، وتحديد المكان الذي يوجد فيه المرء بدقة في أي وقت ، وهو ما يتطلب قدرة عالية على التصور ، وليس ثمة شك في أن هذا التصور يتكون من واقع الرؤية بالبصر وبالبصيرة الذهنية التي تستكمل الصورة بالأفكار المستمدة من المعرفة والخبرة . ومن الشظايا والأجزاء التي تشاهدها الأعين يمكن أن نتصور الشكل الكامل الذي يتجلى للذاكرة بغاية الوضوع حتى يصبح صورة في العقل الباطن لخريطة مرسومة» .

ومن الطبيعي أن يزداد مجال التمرين على هذه الموهبة مع تدرج الجندي في سلم الرتب . وإذا تعين على الفارس أو حامل البندقية الذي يقود دورية ما أن يعلم كل الطرق الرئيسية والفرعية فيجب على قائد الجيش ألّا يترك مَعْلَماً جغرافيا على سطح الأرض دون أن يلم بتفصيلاته الدقيقة بالنسبة لكل الإقليم أو البلد الذي يقاتل فيه ، وأن تظل اتجاهات الطرق والأنهار والتلال واضحة تماما نصب عينيه ، دون أن يهمل في الوقت نفسه الإحساس المحدود بالمكان .

وقد أسهم الجغرافيون في كلية وست بوينت العسكرية في إثراء القدرة على استغلال الأرض بين الجنود وتطوير هذه الوظيفة بواسطة مدرسي الجغرافيا في تلك الأكاديمية الأمريكية . ولقد وقع على أحد المدرسين الاثنين اللذين كانا أول من يعين في هيئة أساتذة الكلية عام ١٨٠٣م عبء تدريس الرسوم التخطيطية للظاهرات الجغرافية **Field sketching** وبعد ذلك ازداد حجم قسم الجغرافيا نتيجة لتقدم طرق الرسم الخاصة بعلم الخرائط والمساحة والجيولوجيا وأساسيات علم الهندسة . وأدى الاهتمام الكبير بالخرائط والهندسة إلى إعادة تسمية هذا القسم عام ١٩٤٢م تحت اسم قسم الطبوغرافيا العسكرية والرسومات **Military Topography and Graphics** وقد أمكن تغطية الحاجة المتزايدة إلى تصور العالم بإدخال دورات جديدة على المنهج تتناول الجغرافيا الحضارية والسياسية . ثم دفع الحافز الشديد إلى مواكبة السوفيت بعد نجاحه في إطلاق القمر الصناعي سبوتنيك إلى اعتبار الفضاء

بمثابة خط البداية للسباق على ارتياده . وفي عام ١٩٦٢م تمَّ تغيير ذاك العنوان فأصبح علوم رسم الأرض والفضاء Earth, Space and Graphic Sciences . وقد أدت مسؤولية القسم في تعليم الطلبة كيف يستخدمون المسطرة الحاسبة وحل المشكلات الهندسية وإنجاز الرسومات الهندسية إلى إدخال استخدام الحاسبات الألكترونية في المنهج . وحدث النمو الأكبر في المنهج في مجالات علوم الجغرافيا والحاسبات الألكترونية حتى تطلب الأمر تسمية القسم عام ١٩٨١م بقسم «علوم الجغرافيا والحاسبات الألكترونية» Department of Geography and Computer Science . ويقوم هذا القسم بتدريس كيفية تحليل الأرض لكل طلبة السنة الدراسية الثانية في الأكاديمية ، كما يزودهم بالعلوم الجغرافية كمادة للدراسات الميدانية . ويلاحظ أن مكونات الجغرافيا والحاسبات الألكترونية يختلط بعضها ببعض لعمل رسومات الحاسبات الألكترونية عند معالجة مشكلات قسم أنظمة المعلومات ، ورسم الخرائط آليا . ويعتبر هذا الهيكل التعليمْي بمثابة اعتراف صريح بأن الاستخبارات الجغرافية سوف توزع بالماكينات الحاسبة في المستقبل على كل مستويات القيادة .

وقد صاحب التأكيد المتزايد على أهمية الاستخبارات الآلية زيادة الاقتناع بقيمة استغلال المزايا التي يمكن أن توفرها الأرض للمقاتلين.ولقد رفع التحسين الهائل في دقة تصويب الأسلحة من احتمالات الإصابة بالطلقة الأولى مما زاد من أهمية الاختفاء خلف الستائر . لقد كان تحقيق الإصابة بمدفع الدبابة عام ١٩٤٥م يتطلب إطلاق ١٣ قذيفة لتدمير هدف ثابت يبعد عن تلك الدبابة بمسافة ميل واحد . وأما في عام ١٩٧٥م فإن الإصابة المحققة صارت مضمونة بنسبة حوالي ٥٠٪ ولقد تبين صدق هذه المقولة في حرب أكتوبر ١٩٧٣م . وفي المجال الاستراتيجي وجد حلف الناتو نفسه في مواجهة احتمال خوض معركة تقليدية ضد أعداد متفوقة ذات أسلحة متطورة من حلف وارسو . وكان أحد السبل إلى معالجة هذا الوضع السيء هو حسن استغلال الناتو للأرض .

ويركز المذهب الراهن للجيش الأمريكي الوارد في مرجع العمليات الميدانية قسما كبيرا منه في الحديث عن كيفية استخدام مزايا تضاريس الأرض . وتضم عدة مراجع أخرى تعليمات تقويم الأرض لأغراض الاستخبارات وذلك لمعاونة ضباط المخابرات على الحصول على المعلومات الجغرافية المطلوبة (مرجع العمليات الميدانية ٣٠ ــ ٣٥ ، ٣٠ ــ ١٠) ولقائد الكتيبة (٧١ ــ ٢) ، ولقائد السرية (٧١ ــ ١) ولأفراد الفصيل (٧ ــ ٧) وذلك داخل وحدات المشاة الآلية . وتتلخص المكونات الرئيسية لمظهر الأرض التي ينصح الجنود بالبحث عنها فيما يلي :

ــ نقط المراقبة .
ــ أقواس النيران .
ــ الستائر والاختفاء .
ــ الموانع والعراقيل .
ــ الأرض المسيطرة .
ــ محاور التقدم .

إن أهداف هذا التحليل قد تم تعريفها بوضوح على هذا النحو . وقد أعلن الخبراء عن إجراءات نظامية تضمن أفضل استغلال ممكن للمزايا التكتيكية التي توفرها الأرض من حيث شن الهجوم أو تنظيم الدفاعات . ولكن ما لم يستنبطوه هو الأسلوب الذي يضمن قيام مختلف نوعيات الجند باستغلال أفضل مزايا الأرض معتمدين على نفس الخرائط في مواجهة نفس الأعداء . إن حجر العثرة هنا يكمن في مظهر الأرض وقراءة الخرائط . وعلاوة على المهارات الأولية في تحديد الأماكن على الأرض ومضاهاتها بالأماكن على الخريطة فهناك حاجة إلى تمرين الجنود على تكوين صورة ذهنية متسقة عن مظهر الأرض من واقع انطباعاتهم البصرية عن الخريطة .

الإعلام الخاطىء والدعاية Misinformation and Propaganda

لقد استخدمت الخرائط إلى جانب المساعدة في إنجاز مهام القتال ، في

أغراض خداع العدو أو في الحصول على تأييد الجماهير لقضية مغرضة . وكانت المدرسة الألمانية للجيوبولتيكيا هي المتميزة في تجسيد الخطر على الرايخ الألماني بالرسومات المغرضة في الخرائط عمن اعتزم أن يقهره من الدول . فالأسهم العميقة دليل الخطر الذي يبيته هؤلاء الخصوم وعزمهم على محاصرة الرايخ ، والحدود الدولية مشحونة بأنواع العدوان . وقد ركزت خرائط عام ١٩٣٤م على إظهار وقوع الرايخ الثالث داخل مدى قاذفات القنابل التي تعمل من مطارات على الحدود التشيكوسلوفاكية مع المبالغة في الأخطار المحدقة بقلعة بوهيميا عن طريق التمثيل المضلل بتضاريس الإقليم لإظهار كل من بوهيميا ومورافيا ككتلة واحدة ذات ارتفاع يماثل جبال الألب . وقد كان القصد من هذه الخرائط المنشورة في المجلة الجيوبوليتيكية هو الاستهلاك المحلي بالنسبة للصحفيين والمدرسين وموجهي الرأي الأجنبي . وكان سعر هذه المجلة رخيصا للغاية لضمان توزيعها على نطاق واسع من أكشاك الصحف ومن التوزيع الشخصي على جمهرة القراء . وعندما تولى الحزب النازي السلطة قام بتعيين كورت ووينكل **kurt Vowinckel** الذي كان يشغل منصب الناشر للمجلة الجيوبولتيكية رئيسا لاتحاد الناشرين الألمان الذي يسيطر على كل مطبوعات الرايخ . وقد عبر صاحب النظرية الجيوبوليتيكية روبرت فون شوماخر **Ropert Von Schumacher** عن ذلك بقوله : «إن كل خريطة سياسية تمثل سلاحا فتاكاً» .

وقد نفذ تأثير الجيوبوليتيكا داخل مدارس الجغرافيا قبل عام ١٩٣٣م بزمن طويل . ولما صعد هتلر إلى السلطة صارت الجغرافيا الوطنية وجغرافية الدفاع موضوع الساعة . واشتملت الأطالس على الخرائط الألمانية التي تتغلغل داخل إقليم روسيا بعمق كبير وتحمل في طياتها ضربات سياسية ذات رؤوس حراب مشرعة . ولا نبرىء مجلة تايم الأمريكية من مثل هذه الميول المتحاملة لتأكيد وجهة النظر الأمريكية السياسية .

وإليك إحدى الحيل المثيرة للإعجاب التي أعدها قسم رسم خرائط صلاحية الأرض للسير لإظهار تأثير سطح التربة على خفة حركة الجيوش وذلك

بواسطة المهندسين الملكيين البريطانيين بالقاهرة خلال الحرب العالمية الثانية . لقد رسم هؤلاء المهندسون نموذجا خداعيا لمنطقة العلمين ليستدرجوا تشكيلا ألمانيا كبيرا إلى منطقة من أرض وعرة في مسرح العلمين . كما عمد المسؤولون إلى التضليل المتعمد عند الإعلان عن مواقع سقوط الصواريخ الألمانية على الجزر البريطانية بنقلها إلى الشرق حتى يضطر الألمان إلى زحزحة نقطة معظم السقوط نحو الميلين كل أسبوع بما يجعلها تسقط بعيدا عن منطقة لندن المركزية في مقاطعة ايسكس الريفية . وقد اثبتت هذه الحيلة أن المعلومات الجغرافية المضللة يمكن أن تشكل أداة دفاعية ذات قيمة عالية .

مراجع الفصل الثاني

الاقتباسات الواردة عن نابليون والخرائط مأخوذة عن :
- **E.Ludwig : Napoleon (Boni and Liveright, New York, 1926) P.336.**

وكذلك عن فون كلاوزفيتز مأخوذة من :
- **J.I.Greene : The Living Thoughts of Clausewitz (Longman, Green and Com.New York,1943). P.25**

نوقش موضوع رسم الخرائط والتقنية العسكرية في :
- **G.R.Crone : Maps and Their Makers (Hatchin son's University Library, London,1953)**

التحليل العسكري للأرض وارد في الفصل العاشر من :
- **C.Mitchell : Terrain Evaluation (Longman, London,1973)**

مراجع خدمة الميدان للجيش الأمريكي (الناشر مكتب مطبعة الحكومة الأمريكية ، واشنطن العاصمة) مع الإشارة إلى :
- **FM 7.7, The Mechanized Infantry Platoon/squad (1977)**
- **FM 30-5, Combat Intelligence (1973)**
-FM 30-10, Military Geographic Intelligence (Terrain) (1972)
- **FM 71-1, The Tank and Mechanized Infantry Company Team (1977)**
- **FM 71-2. The Tank and Mechanized Infantry Battalion Task Force (1977)**
- **FM 100-5, Operations (1976)**

مصدر الأمثلة على الخداع الجغرافي وخداع رسم الخرائط مأخوذ من :
- **W.Stevenson : A Man Called Intrepid: The Secret War 1939-45 (Macmillan, london,1976)**
- **D Whitt Lessey : German Strategy of World Conquest (Farrar and Rinehart, New York,1942)**

ومن مراسلات شخصية مع **R.F.Peel** الذي أمدنا أيضا بالكثير من المواد عن دارسي شكل الأرض والعسكريين ، علاوة على تشجيعه لنا

التحول من ممارسة الجغرافيا إلى العسكرية ممثل في :
- **R.A.Bagnold : (Early Days of the Long Range Desert Group) Geographical Journal,01,105,No1, (1945), PP.30-46**

وهناك مصدر آخر لهذا الفصل هو دراسة الماجستير في الجغرافيا المقدمة لجامعة ولاية فلوريدا :
J.B.Green : Military Geopraphy: Tactical Terrain Analysis (1979)

الفصل الثالث
اللوجستيك
LOGISTICS

« أعْطِ جندك كفايتهم من الطعام ، ولا ترهقهم من أمرهم عسرا»

صن تزو (الفصل ١١ ، الفقرة ٣٢)

الرياضيات والقرار العسكري : Mathematics and Military Decisions

حالما يعلم القائد المكان الذي يقصده وأين توجد المقاومات التي تعترض طريقه تصبح المشكلة الباقية أمامه هي إطعام جنده وتزويدهم بالميرة والذخيرة التي تكفيهم لمصارعة العدو وقهره . إن الجيوش تمشي على بطونها ، كما أن دبابات الغاز تفرغ ما في خزاناتها بسرعة رهيبة في ساعات التحام الجيوش المتصارعة . ولقد كان في استطاعة القائد في الأيام الخوالي أن يخطط عمليته الحربية بنفسه وأن يكلف ضابطا إدارياً وحاكما عسكرياً بتزويد جيشه بما يلزمه من أغذية . فلما برزت الدول الصناعية ، وامتلأت صفوف الجيوش بالمجندين الالزاميين المسلحين بالأسلحة المعقدة ، والمزودين بالمواصلات وخدمات النقل اتسع ميدان القتال حتى تجاوز القارات ، وصار تنسيق الانتاج ضروريا ليواكب حاجة المشكلة العسكرية المتفجرة في التخطيط لمسافات وتعقيدات تتجاوز كثيرا مدى إدراك الفرد الواحد . لهذا أنشأ الجيش البروسي في ستينيات القرن التاسع عشر هيئة الأركان العامة المتخصصة لتعاون القائد في إنجاز التخطيط التفصيلي ، واتخاذ القرارات . وسرعان ما حذت القوى الكبرى الأخرى حذوه .

ثم استدعت أهوال الحرب العالمية الأولى وما طحنته من رجال ومعدات

تقسيم مهام هيئة الأركان العامة فيما يختص بأعمال التخطيط بين عدة إدارات . وقد انبثق عن ذلك الحاجة إلى تسهيلات للتغلب على تشابك المجموعات العديدة من الخطط ومطالب تنسيقها مع الاقتصاد المدني في عصر التعبئة الشاملة . أما حجم ودرجة تعقيد الحرب العالمية الثانية فقد أديا إلى زيادة هائلة في وظيفة التخطيط في كلا مجاليها العسكري والمدني . وبصعود القوات الجوية إلى موقع الصدارة بما تملكه من أسلحة مطورة للغاية واحتياجات التموين تهيأت الظروف لتطبيق البرامج الرياضية في إدارة دفة الحرب . وفي عام ١٩٤٣م أنشأت هيئة أركان القوات الجوية الأمريكية جهازا لمراقبة وحساب برامج أنجع طرق نشر الوحدات في مسارح الحرب ، وتزويدها بحاجتها من التدريب للطيارين والفنيين والإداريين ومطالب الصيانة بما يكفي خدمة الخطة المرسومة للحصول على أهداف حربية معينة .

وقد التقت أعمال لرجال الاقتصاد الممثلين لتفاعلات الاقتصاد كنظام للمعادلات الفورية مع التطورات الرياضية في حل مثل هذه الأنظمة وإنتاج الآلات القادرة على إجراء الحسابات اللازمة بسرعة تتكافأ مع المساعدات المؤثرة على الاختيار والقرار .

مشكلة النقل : **The Transportation Problem**

في مقدمة هذا المشروع أمكن حل مشكلة جغرافية ولوجستيكية فريدة قبل المجموعة العامة من مشكلات مثل هذه البرامج ونعني بها مشكلة النقل . إنها مشكلة الشاحن الذي يتعامل مع أسطول كبير من العربات تنقل المواد من عدة مكدسات تموين إلى نقط عديدة للاحتياجات . وتظل المشكلة على ماهي عليه في المستوى العالمي حيث تصبح العربات حاملات نفط.ونقط التموين معامل تكريره ونقط الاحتياجات مسارح الحرب . فهذه هي المشكلة الأساسية للنقل التي يلزم حلها باستمرار على مقاييس مختلفة من العمليات . ويكون الهدف توزيع العربات على الواجبات بأكفأ الطرق لإجراء عمليات النقل بأقل تكلفة ممكنة . وينطبق نفس الواجب على مدراء النقل المدني إذ

يتعين عليهم حلها يوميا وكل عام تبعا لتغير جغرافية العرض والطلب بفعل الظروف الكثيرة غير المتوقعة .

وعلى سبيل التعميم فإن المشكلة تتضمن مواجهة الاحتياجات لمجموعة من واقع الطلب بكميات محددة وتوصيلها إلى منافذ التموين . حيث تكون وحدة تكلفة الشحن من كل نافذة تموين إلى كل نافذة طلب معروفة تماماً ولا تتعرض للتغيير بفعل حجم البضاعة المشحونة . ويصبح الحل هو نمط التدفق بين منافذ التموين والطلب التي تحفظ تكلفة النقل أقل ما يمكن . وتحسب تكلفة النقل تبعا لحاصل ضرب الحجم الذي تم شحنه في وحدة التكلفة ثم جمعها كلها كإجمالي لكافة عمليات الشحن . ويمكن النظر إلى هذا التمرين اليومي العملي كمشكلة حسابية . وبعد التعبير إجمالاً عن هذه المشكلة يمكن وصفها قانونا وإثبات توفر أفضل الحلول لأي مشكلة من هذا النوع . كما يمكن وضع أسلوب عام يضمن الوصول إلى أفضل حل لأي ظرف محدد من المشكلة عن طريق مجموعة من الحسابات المكررة . ويمكن تمثيل الهدف والقيود التي تطوق الحلول المحتملة للمشكلة بمجموعة من المعادلات الخطية والمعاملات غير المتساوية وتستخدم بعدئذ القاعدة الحسابية ونظام العدد العشري (اللوغاريتمي) لإيجاد قيمة المتغيرات غير المعروفة ، والناتج الذي يحل هذه المجموعة من التعبيرات في وقت و احد .

ونستطيع أن ننظر إلى هذا النظام طبقا للتعبيرات الهندسية على اعتبار أنه قبة ذات أوجه متعددة ، لجسم السطوح المحدّبة حيث يوجد الحل المحتمل في الوصلات التي تتقاطع عندها الخطوط التي تحدد هذه الأوجه . وينتقل نظام العد العشري من وصلة إلى الأخرى باحثاً عن أفضل الحلول . وقد وصل أسلوب حل مشكلات النقل ذات الأبعاد الضخمة بمثل هذه الوسائل إلى مرحلة الإبداع عام ١٩٥٠م وذلك بفضل الحاسبات الآلية . ثم اتسع مجال عمل هذا الأسلوب في العام التالي ليشمل أنواعاً متعددة من المشكلات غير الفضائية للبرمجة ، ثم صار تطبيقه بسرعة لحل مسائل الصناعات الهندسية ، ومشكلات التصحيح في معامل تكرير النفط وصناعات الكيماويات والحديد

والصلب وتوليد الطاقة فضلاً على التطبيق الواضح لنظام العد العشري في النقل المدني وقطاع الاتصالات .

وهكذا استغلت مواهب نفاذ البصيرة المكتسبة من العلم بالعمل في الشؤون الإدارية والفنية لتلخيص قوائم الحساب ، ثم أدى اختراع الألكترونات إلى ابتكار أسلوب لإيجاد أفضل الأجوبة على عدة مشكلات تخطيطية وإدارية في المجالين العسكري والمدني . ومن الملاحظ أن التطورات المستقلة المبكرة في الرياضيات تم نشرها في روسيا بالارتباط مع التخطيط المركزي لعمليات الشحن . إلّا أنها لم تتابع بعد ذلك ولهذا فلم يكن لها أية نتيجة على أساليب العمليات . ومع ذلك فمن الواضح أنها كانت مشكلة قد حان وقت حلها . فالشكل العام لهذه المشكلة إلى جانب استخدامها المدني لم يقتصر تطبيقه على مشكلات الفضاء والمشكلات العسكرية كالانتشار والحشد فحسب ، بل وعلى عدة مشكلات غير فضائية ، مثل مزايدات العقود والمهام الشخصية .

إن المشكلة العملية للنقل تنحصر بالدرجة الأولى في حركة الوقود والذخيرة التي تستنفد ما ينوف على ٩٠٪ من وزن الإمدادات التي يحتاجها أي جيش آلي حديث . ولا تمثل مطالبه من الطعام والإمدادات الطبية وقطع الغيار وما أشبه إلّا جزءاً صغيرا من الحجم الإجمالي المطلوب نقله . وتنحصر أسباب القلق الإداري في كيفية دفع زيت الديزل والبنزين ومقذوفات المدفعية للأمام . ويختلف الميزان بين الوقود والذخيرة . ففي الدفاع الثابت تستهلك الذخيرة أكثر من الوقود بينما تستهلك العمليات الخفيفة الحركة من طراز الجنرال باتون في فرنسا وقوداً بكميات هائلة وذخائر بنسبة أقل .

ويزداد الميل إلى دفع الوقود والذخيرة للأمام في أحجام كبيرة ، وعلى سبيل المثال كان السائقون في مسرح فيتنام يشحنون اللواري بكامل حمولتها من طلقات الهاوتزر عيار ١٠٥ من السفن بميناء سايجون . ثم كانت القيادة الإدارية الأولى تأمرهم بتوصيلها مباشرة إلى مربض نيران سرية ما في فيتنام دون المرور على نقط إعادة التحميل أو النقط المتوسطة في سلسلة الإمداد

بالذخيرة . وتبرز ميزة هذه الطريقة في الاقتصاد الكبير في الأيدي التي تتداول نقل وتحميل وتفريغ الإمدادات ودفعها للأمام إذ تلغي عملية التحميل والتفريغ في النقط المتوسطة . وهكذا أمكن للجيوش أن تزيد نسبة الجزء المقاتل مقابل الجزء الإداري . ولم يكن ذلك مستطاعا إلّا بفضل القدرة على استخدام الحاسبات التي يتنامى اعتماد الشؤون الإدارية عليها في تحديد المواقع وانتخاب الأنظمة والمواصلات الموثوق بها . ويتم الحصول على المرونة المطلوبة بزيادة الاهتمام بالحسابات والحصول على المعلومات . ويتجه الجيش الأمريكي اليوم إلى استخدام الحاسبات الألكترونية على مستوى الفيلق ومستويات قيادة الشؤون الإدارية والفنية في مسارح العمليات .

تحليل الأنظمة : Systems Analysis

لم يعد الكثير من المشكلات العملية في الإمداد اليومي بالوقود وعربات الذخيرة والأطعمة والرجال إلى الأماكن الصحيحة ضرباً من التخمين العشوائي فقد توارت القواعد المرعية والخبرات العريضة لتحل محلها الحلول الدقيقة . وقد وجهت أساليب التفكير نفسها والطرق المتنوعة للتطبيق في حل المشكلات العملية المرتبطة بخطط الحرب والتي تبرز من إلهامات الأركان العامة . وعندما حل عصر القنبلة النووية والقاذفات البعيدة المدى والصواريخ العابرة للقارات ظهرت الحاجة إلى تقويم لاستراتيجية العالمية وتصميم أنظمة الأسلحة العابرة للقارات . لقد كانت التقنية متوفرة ، أما المشكلات فقد انحصرت في المجال الجغرافي مرة أخرى إذ تعين معرفة مكان عناصر النظام بوجه عام وبصفة تفصيلية حتى يمكن إنجاز مهمة جغرافية محددة . وكمثال لكيفية اتخاذ قرار عسكري نأخذ قضية اختيار وتشغيل القواعد الجوية الاستراتيجية في حقبة الخمسينيات بواسطة قيادة القوات الجوية الأمريكية . لقد كانت المشكلة هي تحديد المكان المناسب لتمركز القاذفات البعيدة المدى لإنجاز مهام القصف الموجه ضد الاتحاد السوفيتي وكيفية تشغيل هذه القوة الجوية من القواعد المنتخبة .

لقد برزت الظروف التقنية التي طرحت هذه المشكلة بسبب التقدم العلمي من جهة وكاستجابة للمفاهيم الجيوبوليتيكية المستنبطة من جهة أخرى .

كما أن منشأ أبحاث القوات الجوية الأمريكية عن وسائل قصف القنابل عبر المحيطات كان بسبب سقوط فرنسا في يونيو ١٩٤٠م لقد جاءت القاذفة طراز ب ـــ ٣٦ لتأمين سقوط انجلترا على نحو ما حدث لفرنسا ، وكان مداها ١٠٠٠٠ ميل حتى تستطيع قصف قنابلها شديدة الانفجار ذات زنة ١٠٠٠٠ رطل على الأهداف المعادية البعيدة . وقد واجه التصميم جملة أسئلة عويصة تتعلق بمكان القاعدة ، والأهداف المحتملة ، والسرعة الاقتصادية ، والسرعةالقصوى ، والارتفاع الأقصى في مواجهة دفاعات العدو . وتم حل كل هذه الأسئلة دون توقع اختراع القنبلة الذرية التي أسقطت على هيروشيما في السادس من أغسطس ١٩٤٥م وخلال عملية إنتاج النموذج المبدئي تحولت الصورة الاستراتيجية بشكل مدهش . ففي منتصف عام ١٩٤٣م أصبح واضحا قدرة بريطانيا على مواصلة الصمود ، بينما كان هناك احتمال لاستخدام القاذفات العابرة للقارات لعدم وضوح الصورة بالنسبة لعملية استعادة جزر المحيط الهادي ومدى النجاح المنتظر لها . ومع تقهقر اليابانيين للوراء وقرب انتهاء القتال في مسرح أوروبا لم تعد هناك حاجة ماسة إلى امتلاك القاذفة ب ـــ ٣٦ . إلّا أن القوات الجوية الأمريكية كانت قد بدأت التفكير في مواجهة حرب عالمية ثالثة ضد الاتحاد السوفيتي كعدو لها . ولشدة الهواجس بعدم إمكان تأمين قواعد جوية عبر البحار مع طول المسافات المطلوب قطعها عادت القاذفة ب ـــ ٣٦ إلى الأضواء . ولا يغرب عن البال أن القصف الاستراتيجي كان في ذلك الوقت مجرد أسلوب هامشي في ترسانة الحرب . وما إن ظهرت القوة التدميرية للقنبلة الذرية حتى صعدت أهمية القاذفة التي تستطيع تدمير روسيا عبر المحيط إلى ذروة سنام المتطلبات الاستراتيجية بعد أن كانت قد توارت بين طيات هامش الترسانة الحربية .

وبحلول عام ١٩٤٧م كان القصف الاستراتيجي لا يزال يحمل أسلوب الحرب العالمية الثانية إذ كانت مهمة القوة المشكلة من قاذفات أن تخترق

دفاعات العدو كخطوة أولى قبل أن تصل إلى هدفها وتعثر عليه ثم تدمره وتعود إلى قواعدها . وتوقفت نسبة الخسائر في الوصول إلى الهدف ثم العودة إلى القاعدة على براعة عملية التدمير . فلما دخلت التحسينات على طائرات الاعتراض النفاثة والصواريخ المضادة للطائرات صار الوصول إلى الهدف والعودة إلى القاعدة الجوية أكثر صعوبة مما سبق . وفي الوقت نفسه زادت القنابل النووية من القدرة التدميرية بصورة هائلة وأصبح بناء القدرة لتدمير مراكز الصناعة والإدارة الروسية وسيلة لتجنب الاستنزاف الذي تسببه الحرب التقليدية . وأصبح البديل للقاذفات البطيئة من طراز ب ـ ٣٦ البعيدة المدى هو المزيج بين القاذفات ب ـ ٢٩ الأسرع وطائرات التموين بالوقود في الجو حتى يمكن زيادة مدى اختراق المقاتلات النفاثة للدفاعات المعادية .

وما أن حلت سنة ١٩٥٠م حتى كانت قيادة القوات الاستراتيجية تمتلك قوة من القاذفات ب ـ ٢٩ ، ب ـ ٣٦ ، ب ـ ٥٠ المكلفة بردع السوفيت عن مهاجمة أوروبا الغربية بفضل احتكار الولايات المتحدة للسلاح الذري . فإذا ما طلب تدخل الولايات المتحدة كان على القيادة الجوية الاستراتيجية أن تقوم بتدمير القاعدة الصناعية السوفيتية حتى تحرمها من القدرة على شن الحرب . وكان المتوقع عندئذ أنه بامتلاك روسيا للأسلحة النووية فلن تستطيع إنتاج الكمية الكافية منها ، كما أنها سوف تصادف عقبات كثيرة في توصيلها إلى أهدافها حيث كانت قدرتها على الطيران البعيد المدى محدودة للغاية .

وفي عام ١٩٥١م تعاقدت قيادة القوات الجوية مع مؤسسة راند RAND لدراسة القواعد الجوية عبر البحار التي يلزم انتخابها لتلبية مطالب القوة الجوية الاستراتيجية . وقد أشار المحللون إلى أن اختيار هذه القواعد يعتبر في غاية الأهمية في تحديد هيكل وقوة تدمير وتكلفة القوة الجوية الاستراتيجية بأكملها . ولم تكن تكلفة بناء وصيانة وتشغيل هذه القواعد تكفي بمفردها كمعيار لاختيار القواعد . وكانت جغرافية كل قاعدة تؤثر في تكلفة زيادة مدى

الطائرات التي لم تكن تستطيع الوصول إلى أهدافها دون إعادة التزود بالوقود في الجو . كما أنها كانت تؤثر أيضا على الممرات الجوية التي تلتزم بها القاذفات فوق أراضي العدو وبالتالي احتمالات خسارة بعضها وهي في الطريق . وكانت احتمالات التعرض للهجوم ومصادر صيانة القاعدة الصالحة للعمل وتكلفة الخدمات المزعزعة تتغير بتغير الموقف . ولم يعد السؤال فيما إذا كان من المناسب تمركز القواعد هنا أو هناك بل في نظام هذه القواعد والعمليات التي تحقق أفضل مهام الحرب للقيادة الجوية الاستراتيجية .

ولقد حاول المحللون ترتيب القواعد التي يمكن فيها تنفيذ عمليات التدمير لعدد محدد من الأهداف بأقل تكلفة ممكنة واضعين في الاعتبار ما كان يتوفر لدى القوات الجوية الأمريكية من طائرات ، أو تدمير أكبر عدد من الأهداف بتكاليف زهيدة . وكانت احتمالات المستقبل المتغيرة في القدرات الفنية والأهداف هي التي يتوقف عليها أقل النظم تكلفة وأكثرها تأثيرا . ونظراً لما كان يحيط بالمشكلة من شكوك فقد حث المحللون على اتباع النظام الذي يضمن حسن الأداء تحت مختلف الاحتمالات المتعلقة بقدرات العدو الهجومية والدفاعية ، فضلا على التطورات السياسية الدولية .

ويشتمل النظام الحالي على قواعد أمريكية في زمن السلم تكفي كل الطائرات التي سوف تُدفع زمن الحرب إلى قواعد عبر البحار ، فيما عدا بعض القاذفات الثقيلة التي سوف يقتصر استخدامها لهذه القواعد عبر البحار على أغراض الانتشار فقط . وكانت الخيارات المطروحة ذات أربع نوعيات عامة ، الأولى : قواعد زمن الحرب القريبة من العدو ، والثانية : قواعد زمن الحرب البعيدة شيئا ما عن الأراضي الروسية ، والثالثة : القواعد الموجودة في الأراضي الأمريكية مع إعادة التموين بالوقود في الجو ، والرابعة : القواعد الأمريكية مع إعادة التموين في نقاط الانتشار عبر البحار . وقد تمت المقارنة بين هذه الخيارات الأربعة .

لقد كانت المسافة هي المتغير الأكثر أهمية بين هذه الخيارات . وكان وجه الاختلاف بين هذه النظم هو المسافة بين القواعد وهذه النقط الأربع

الحساسة . وقد اختلفت تكلفة الموقع لهذه النظم تبعاً للمسافة بين القواعد والأهداف وحتى أفضل نقطة للدخول في دفاعات العدو ، وكذلك نقط إعادة التزود بالوقود ، والنقط التي يستطيع العدو أن يشن منها هجماته على تلك القواعد . وكانت القيود التي تفرضها هذه المسافات هي الفيصل في تحديد مدى عمل القاذفات وتكلفتها الإدارية . ولما كانت ذات تأثير على الانتشار المحتمل للعدو ، فقد كانت مؤثرة أيضا على عدد القاذفات التي قد تُفقد في أثناء الطيران . وبالمثل فإنها كانت تؤثر على درجة تعرض القواعد وقاذفات القنابل للتدمير وهي جاثمة على الأرض .

ولما كانت هذه التكاليف المكانية الناجمة عن التوزيع الواسع للنظام تختلف جغرافيا باختلاف المناخ والأرض وتكاليف الإنشاء فقد صار اختيار الدفاعات الجوية المتوفرة وقتها توطئة لضمها إلى التحليل .

ومنذ استهلال عملية اختبار تكلفة زيادة مدة الطيران ، وتكلفة اختراق الدفاعات ، وتكلفة إقامة القواعد خارج إقليم الولايات المتحدة الأمريكية (مشتملة على التكاليف المحلية) وتكلفة تعرّض القاعدة ، فإن خيار إعادة التموين بالوقود في الجو كان يفرض سيطرته على ما عداه . فقد ظهرت سيطرته هذه على التكاليف الإدارية ، وعلى الوقاية التي يوفرها من أخطار الهجوم . وقد جرت المقارنة بضمير متحامل على أداء هذا النظام حاول أن يفنّد هذه السيطرة ليتأكد من حقيقتها . وتحت عدة احتمالات لظروف العمليات في المستقبل بما في ذلك امتلاك السوفيت للسلاح الذري فإن هذا الحل يعتبر الأكثر صلاحية للتطبيق ، وكذلك الأشد قوة .

وتجدر ملاحظة أن ما بدأ كموضوع إداري قد تحول إلى مشروع في الاستراتيجية العظمى . وكان التقرير المقدم عام ١٩٥٣م قد أشار إلى نقاط الضعف في قيادة القوات الاستراتيجية إزاء الهجمات المباغتة مما أثر على سياسة القوات الجوية وجعلها تقتصر على مهام ووظائف القواعد المنتشرة عبر البحار وتقويتها لتتحمل الهجوم ، وتوفير نظام للإنذار وتطوير طائرات تتحمل العمل لمدد طويلة . والواقع أن الدرس المستفاد من ذلك هو تأكيد المقولة التي

تزعم أن حربا قد ضاعت نتيجة فقد مسمار في حدوة أحد الجياد . ولن يكون أمام المرء فرصة للنجاح ما لم يبن استراتيجيته العظمى على أسس إدارية سليمة وفهم شامل للعلاقات المتبادلة بينها .

لقد استمعنا أخيراً إلى مناقشات حامية بشأن طريقة نشر الصواريخ الأمريكية إم . اكس . وقد تضاربت فيها الآراء بين العسكريين والإداريين وبين الدوافع السياسية المحلية جنباً إلى جنب مع الأفكار الجيوبوليتيكية . وقد اعتمد الرئيس كارتر في يونيه ١٩٧٩م عملية تطوير أكبر صاروخ ميرف (MIRV) ذي رؤوس حربية متعددة يسمح به اتفاق سولت ٢ . وتعتبر أهم خواص هذا الصاروخ هي قوته ودقته في تدمير صوامع الصواريخ الروسية المحصّنة . وتم ذلك نزولا على رغبة العناصر المتشددة التي تعلقت بمذهب جيمس شليزنجر James Schlesinger عن إمكانات القوة المضادة . وقد نادى هذا المذهب بالحصول على الأسلحة التي تضمن التعادل أو التفوق على كل ما لدى السوفيت من أسلحة الردع . وكان شليزنجر هو الذي نادى عام ١٩٧٤م بعقد الدراسات لإنتاج صاروخ متحرك بالستيكي عابر للقارات مما جعل الرئيس كارتر يأمل في حمل مجلس الشيوخ على المصادقة على معاهدة سولت ٢ .

وإذا ما نظرنا بنظرة عسكرية صرفة فإن القدرة على تدميرالصوامع المحصّنة تجعل هذا السلاح صالحاً لتوجيه الضربة الأولى . ولن يكون استخدامه منطقيا ما لم يوجه لإبادة الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات وهي مازالت على الأرض في قواعدها في الأراضي السوفيتية . وكان قد أشير إليها رسميا بأنها قادرة على توجيه الضربة الثانية لتدمير الصوامع السوفيتية التي تحوي الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات لأنها تضاد السياسة الأمريكية المعلنة عن شن ضربة الإجهاض الأولى . إلّا أنه خلال مباحثات سولت ٢ عام ١٩٧٧م تمت دراسة الصاروخ إم . اكس كوسيلة للمساومة . وقد وصفه برزينسكي Brzezinski مستشار الرئيس كارتر للأمن بأنه الخطر الأول على الصواريخ السوفيتية . ولما صار الصاروخ إم . اكس ضمانة دفاعية في معترك السياسة

الداخلية تمت تسميته سلاح الضربة الثانية . ووصفه برزينسكي « الذي يستطيع الرد النوعي » . وتجدر ملاحظة أنه في ابريل ١٩٨٢م شعر أربعة سياسيين من الشيوخ الأمريكيين هم : ماك جورج بوندي ، وجورج كينان ، وروبرت ماكنمارا ، وجيرارد سميث McGeorge Bundy, George Kennan, Robert McNamara and Gerard Smith بضرورة حث الإدارة الأمريكية على التصريح بعزمها على أن تكون البادئة في استخدام الأسلحة النووية . وما زالت الولايات المتحدة تلوّح بعزمها على أن تكون أول من يستخدم الأسلحة النووية الميدانية كرد فعل ضد أي عدوان سوفيتي بالأسلحة التقليدية .

وبصرف النظر عما استخدم من عبارات فإن إمكانية اختراق كتل الخرسانة المسلحة وتدمير الصواريخ داخل صوامعها تكون مؤثرة فقط إذا ما استخدمت أولاً . أما إذا استخدمت كرد ثأري ضد ضربة السوفيت الأولى فسوف تجد صوامع السوفيت خالية من صواريخها . وبمجرد شن الضربة الأولى ونجاح بعض الأهداف في البقاء سليمة لاستخدامها في الثأر فإن المنطق الأهوج يدفع إلى إطلاق كل ما يتوفر من صواريخ ضد أية أهداف يقع عليها النظر . وتتوفر نحو ١٥ دقيقة كفترة إنذار من أية موجة من صواريخ ثأرية يمكن خلالها تنفيذ تلك المهمة . أما امتلاك القدرة على سحق الصوامع كرد فعل ثأري فليس برادع حقيقي لأي معتد محتمل . وليس هناك حافز للسوفيت على توجيه الضربة الأولى ما دام يثق بقدرته على تدمير كل الصواريخ الأمريكية . فإذا أمكنه إصابتها جميعا فلن يهم بعد ذلك أن كانت هذه الصواريخ تستطيع تدمير الصواريخ أم لا . وإذا ما نجحت بعض الأسلحة الأمريكية في البقاء سليمة فسوف يسعد السوفيت أن توجه ضد صوامعه الفارغة . أما التدمير المؤكد للمدن السوفيتية ، بركيزتي ثلاثي التدمير الشامل الأمريكي ، وهي الغواصات والقاذفات التي تحمل الصواريخ اللتين يستطيعان إيقاع الدمار التام فإنه يجعل لجوء السوفيت إلى الضربة الأولى نوعا من الانتحار . وفي ضوء ذلك فإذا ما اعتبر الاتحاد السوفيتي أن نشر الولايات المتحدة ما يبلغ قيمته مائة ألف مليون دولار من محطات الصوامع لأغراض الردع العام سوف يكفل لها التفوق

فما هو الغرض البديل لمثل هذا العمل سوى التجهيز لشن الضربة المضادة ضد الصواريخ السوفيتية البالستيكية العابرة للقارات ؟ . لما كان هذا يشكل ثلاثة أرباع القوة السوفيتية مقابل ربع الترسانة النووية الأمريكية فقد يدفع هذا الوضع الاتحاد السوفيتي إلى المبادرة بتجهيز قوة الصواريخ التي يملكها استعداداً لشن ضربة إجهاض . ولسوف يميل الاتحاد السوفيتي دون أدنى شك إلى البحث عن وسيلة للحد من درجة تعرضه عن طريق نشر عدد أكبر من محطات الصوامع ضمن خطة خفيفة الحركة ومتعددة المواقع مما سوف يزيد من حدة سباق التسليح ، وما قد يتبع ذلك من أخطار اختلال الموازين .

وكان لا بد من نشر أنظمة الصواريخ إم . اكس بطريقة تبقى لها بعض القوة الضاربة بعد أن تتعرض للهجوم السوفيتي بالصواريخ س س ــ ١٨ ، ١٩ ذات الرؤوس المتعددة ، وذلك لتحقيق حاجة شليزنجر إلى امتلاك القوة المضادة . لقد تحددت خطة النشر بالدرجة الأولى بما يوفر طاقة القتل والتدمير وأقصى عدد للرؤوس الحربية السوفيتية الأولى . كان المتوقع أن تبرز الحاجة إلى نحو ١٠٠٠ رأس حربية لتدمير أية صواريخ سوفيتية تظل صالحة على منصات إطلاقها . وبهذا تحدد حجم النظام بنحو ٢٠٠ صاروخ ذات ٢٠٠٠ رأس حربية حتى يبقى منها نحو ١٠٠٠ رأس حربية صالحة للعمل بعد إطلاق الروس الضربة الأولى بصواريخهم التي يملكونها طبقا لمعاهدة سولت ٢ . (وبالمناسبة فإن ٢٠٠٠ رأس حربية تكفي لإيقاع الضرر البليغ بالصواريخ السوفيتية العابرة للقارات البالغ عددها ١٤٠٠ في الضربة الأولى). وحتى يظل نصف هذه الصواريخ صالحا للعمل فلا غنى لهذه القاعدة البرية الضخمة عن التزود بوسائل الوقاية الكافية . وقد اقترحت عدة مناطق جغرافية لنقل ٢٠٠ صاروخ بصفة لا تزال مستمرة بين ٤٦٠٠ صومعة إطلاق . ووقع اختيار القوات الجوية أول الأمر على السهول الغربية من الولايات المتحدة كأفضل موقع لذلك ، إلا أن المصالح الزراعية لولايتي كانساس ونبراسكا وقفت حائلا أمام ذلك بكل شدة . وفي عام ١٩٧٩م كانت إدارة الرئيس كارتر قد اتفقت على مواقع في شرقي كل من ولايتي نيفادا ويوتا تكفي لنشر أنظمة

الصواريخ ومساعداتها اللوجستيكية في ٦ آلاف ميل مربع من الأرض مع تدبير كميات هائلة من المياه والأسمنت وتحريك التربة وعمال الإنشاءات ، إلّا أن هز التوازن الاجتماعي والبيئي للإقليم تولدت عنه معارضة قوية لهذا المشروع . ومن المعروف أن السيناتور لاكسولت Senator Laxalt هو من ولاية نيفادا وأحد المساعدين المقربين للرئيس ريغان . وكان البديل التالي هو وضع بعض هذه الأنظمة في غرب ولاية تكساس ونيومكسيكو إلا أنه قوبل أيضا بمعارضة نائب الرئيس الأمريكي المستر بوش Bush ورئيس لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ السيناتور جون تاورز John Towers ممثل ولاية تكساس . ولم تكن مفاجأة كبيرةعندما أعلن الرئيس ريغان في أكتوبر ١٩٨١م عن عزمه على وضع الصواريخ إم . اكس في صوامع صواريخ مينوتمان بعد تعديلها وتحصينها جيداً وذلك في كل من ولايات داكوتا الشمالية والجنوبية ، ومونتانا ، وديومنج ، ونبراسكا ، وكولورادو . وقد رفض الكونجرس ذلك ، كما امتنعت لجنة القوات المسلحة به أن تعتمد تكاليف هذه العملية حتى يتم اتخاذ قرار مستديم لنشر الصواريخ إم . اكس . وتعتبر الخيارات المطروحة للبحث نوعاً أشد كثافة من الاقتراح السابق للوشم المحفور بعمق ٣٠٠٠ قدم في سفوح الجبال (الأنفاق الصلبة) ، والقواذف المحمولة جواً (بيج بيرد) . والقواعد المدارية التي تتضمن وضع الرؤوس الحربية للصواريخ إم . اكس في مدارات فضائية بمجرد قيام السوفيت بالقصف . ومهما كان الحل الذي يتخذ في نهاية الأمر فإن هذا النظام يبدو زائدا عن الحاجة .

وتبرز مثل هذه الخطط الحربية نتيجة المواءمة بين التصورات الجيوبوليتيكية والحقائق اللوجستيكية . فإذا ما كان الانتشار المطلوب للحصول على غرض سياسي غير ممكن من وجهة النظر الإدارية والفنية ، أصبح مجرد محاولة العمل ضربا من السخف . ويبدو أن العملية الزرقاء The US Operation Blue لفك أسر الرهائن الأمريكيين المحتجزين في طهران في عام ١٩٨٠م كانت من هذا النوع . ومن ناحية أخرى إن تحقيق أفضل الحسابات والكفاءة والمرونة في نظام العمليات لن يجدي فتيلا إذا ما قام هذا النظام على وزن خاطىء

للسياسات الدولية أو بسبب القدرة على الإطلاق غير المقصود للقنابل النووية . وإذا كان تصوير الاتحاد السوفيتي كإمبراطورية عدوانية توسعية تنظر إلى أوروبا الغربية كهدف أساسي لا يستند إلى الحقيقة فإن كل الحسابات الدقيقة والفن المبهر للردع النووي يصبحان مجرد سلاح للانتحار لا يترتب عليه سوى الثروة والجاه القصير العمر لمجتمعات خاصة ، ومصالحها كتأثيرات جانبية .

الشؤون اللوجستيكية والاستراتيجية Logistics and Strategy :

يتم حاليا تشكيل جهاز استراتيجي كبير يوضح بجدارة تفاعل الأفكار الجغرافية للحاجة إلى القوة ، والتفصيلات المكلفة للتغلب على الحيّز والمسافة اللازمة لتوجيهها . وتتبلور هذه الأفكار في قوة الانتشار السريع RDF (Rapid Deployment Force) التي يجري تجميعها للعمل في جنوب غرب آسيا .

إن بداية هذه القوة تعود إلى فكرة قوس الأزمات المتمركز حول الخليج العربي ومناطقه الضعيفة حيث يستطيع العدوان السوفيتي أن يستولي على حقول النفط التي تمد اليابان وأوروبا الغربية بأغلب حاجاتها من الطاقة فضلا على ١٥٪ من حاجة الولايات المتحدة . وبصورة أشد فورية فقد كانت قوة الانتشار السريع هي رد فعل حكومة الرئيس كارتر على الثورة الإسلامية في إيران والغزو السوفيتي لأفغانستان ، كما أسهمت الحرب العراقية الإيرانية في زيادة المخاوف من انعدام الاستقرار وفقد السيطرة في الخليج . وبهذا كانت قوة الانتشار السريع بمثابة العصا التي تفرض مذهب كارتر للخليج ، الذي كان قد أُعلن في عام ١٩٨٠م على العالم أجمع عن عزم الولايات المتحدة على الدفاع عن مصالحها الحيوية في الخليج العربي ضد أي محاولات خارجية لكسب السيطرة عليه ورد مثل هذا العدوان بكل الطرق والوسائل الضرورية بما في ذلك القوة العسكرية . أما ريغان فقد كان أقل كياسة ودبلوماسية من ذلك إذ أنذر روسيا من مغبة التحرك نحو الخليج مؤكدا أن مثل هذا العمل سوف يعني المخاطرة بإشعال مواجهة مع الولايات المتحدة ، وحتى يمكن تطبيق

الفعل على القول في ظل الظروف السائدة في باكستان وإيران والعراق والمملكة العربية السعودية أو في مضيق هرمز فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تكون قادرة على صب نيرانها من مسافة ٧٠٠٠ ميل بينما السوفيت يعمل من مسافة بضع مئات من الأميال فقط داخل حدوده .

ولم يغب عن نظرة البنتاجون التحليلية أن خدعة الهجوم النووي الاستراتيجي أو التكتيكي لحماية مصدر النفط لطرف ثالث ــ فيما عدا آيات الله في إيران ــ قد تصبح ضرورية . فالعهد لا يزال قريبا بخدعة التصعيد الأفقي عن طريق التهديد بغزو كوبا أو اليمن الجنوبية بمجرد أن تكتسح روسيا حقول النفط لا تبدو مقنعة للكرملين . أما التصرف الوحيد الذي قد يدعم هذا التصريح بجدية فهو مواجهة المقاتلين بالمقاتلين . ويعني ذلك ضمنا ابتكار وسيلة سريعة للإطباق بالقوات الكافية في المناطق التي تتضمن وقف الاختراق السوفيتي أو أية حركة عصيان يشجعها السوفيت . ولمواجهة كل هذه الاحتمالات جرى تشكيل قوة الانتشار السريع التي وصفها النقاد منذ الوهلة الأولى كمثال آخر لأسلوب كارتر في مواجهة المشكلات بتشكيل رئاسة مختصة لها . لقد زوّد الجنرال بول كيلي Paul X. Kelley بجهاز أركان مكون من ٢٦٠ شخصا لمعاونته في مركز قيادته بولاية فلوريدا مع وعده بالمزيد من المعاونين الذين يستطيع أخذهم من الفرقة ٨٢ المحمولة جوا والفرقة ١٠١ اقتحام جوي بمجرد أن تطرأ الحاجة لذلك . وخلال الأشهر الأولى ظلت قوة الانتشار السريع بمثابة نمر من ورق لا يملك سرعة ولا قدرة على الانتشار ، ولا حتى القوة التي يقصدها جيمس شليزنجر من كلامه .

إن الحوار بين مؤيدي ومعارضي فكرة قوة الانتشار السريع يدور حول مسألة لوجستيكية . فهناك من يرى هذه القوة كبادرة سياسية محضة وازدواجية للمهمة التقليدية لمشاة الأسطول في تمهيد سلم النزول من سطح السفن إلى ساحل الغزو . ويقترح مؤيدو مشاة الأسطول أن تستمر هذه القوات في أداء واجباتها البرمائية لتأمين رأس جسر للقوات التي تنقل جوا من الولايات المتحدة . ويبدو أن هذه الاستراتيجية تمهد الأرض التي تقف عليها

لقوة متقدمة أثقل ، ووحدات من الجيش يتم تمركزها على مشارف المناطق الساخنة المحتملة . ولم يعلن التحليل المترتب على ذلك على الملأ ، كما أن التنافس بين الأسلحة يلعب دوره في الحوار ولكن التصرفات الحكومية تفصح عن دعمها لحل القاعدة الأمامية .

وإذا اعتبرنا أن تصرفات الرئيس كارتر جاءت كمجرد ردود فعل على أحداث إيران ، فإنه يبدو أن حكومة الرئيس ريغان قد قبلت منطق تشكيل قوة خاصة لهذا المسرح . لقد رصد كارتر ١٠ مليارات من الدولارات لبناء هذه القوة التي جمعها على وجه الاستعجال من بعض المكونات المتيسرة . ثم زودها بمجموعتي حاملات طائرات في المحيط الهندي وسبع شاحنات تحمل المساعدات لنحو ١٢ ألف جندي من مشاة الأسطول ، و ١٢ سرب مقاتلات ، علاوة على المياه والوقود الكافي و ٥٠ دبابة و ٩٥ زورق إنزال و ٦٠٠ شاحنة كبيرة . كما وضع ١٨٠٠ جندي من مشاة الأسطول على ظهور سفن المحيط الهندي ، وأحضر أسطولا من الأطواق لنقل فرقة آلية إلى الخليج في ظرف أسبوعين أو ثلاثة . وقد أمن لكل ذلك مايلزمه من القواعد وممرات الإقلاع والهبوط وموانيء الاستقبال في مختلف أرجاء المنطقة . وأعارته المملكة المتحدة قاعدة دياغو غارسيا Diego Garcia ومجموعة الجزر المرجانية بممرات إقلاعها وهبوطها وأرصفتها البحرية كما قامت بإطالة ممرات الإقلاع والهبوط لتستقبل القاذفات ب ـ ٥٢ ، وكذا الأرصفة لتستقبل السفن الأكبر لنقل الجند . وحصلت الولايات المتحدة على الإذن باستخدام مينائي ممباسا وبيرث بكامل الحرية . وهناك أيضا عدة مطارات في نيروبي والقاهرة وغوام وشمال غرب استراليا .

وبالنسبة للتسهيلات الأكثر قربا من الولايات المتحدة فهناك موانى ومطارات رأس بناس في مصر وبربره ومقديشيو في الصومال وصيب ومسقط في عمان . وإلى جانب ذلك فهناك ممرات إقلاع وهبوط في تاماريت وصلاله ، ومصيرة ، وقوص في سلطنة عمان وبالقرب من مضيق هرمز . وقد أطلق قمر صناعي لمراقبة التحركات بدقة في المحيط الهندي ، كما وضعت الخطط لنشر

١٢ سفينة في أماكن مسبقة الاختيار بغرض مساندة فرقة من مشاة الأسطول (١٣ ألف رجل) قد تتمركز في عام ١٩٨٧م قرب الخليج بصفة مستديمة مع الأسطول . وكان هدف التخطيط هو توفير نحو ٣٠ ألف مقاتل في مسرح الأحداث المحتملة ، وبغاية ما يمكن من السرعة . وأعقب ذلك وضع خطط التوسع والتحسين في طاقة النقل الجوي الأمريكي وذلك قبل أن تولد فكرة قوة الانتشار السريع . وقد صدر الأمر بإنتاج ٢٠٠ حاملة جنود ضخمة تستطيع الهبوط في ممرات قصيرة ، كما أعيد تجهيز المعدات المتيسرة ووضع الخطط لاستخدام الطائرات المدنية .

وقد أكد وزير الدفاع الأمريكي كاسبر وينبرجر Weinberger أهمية قوة الانتشار السريع ، ومال نحو استراتيجية القواعد عبر البحار . وقد خصصت في ابريل ١٩٨١م أعلى عناصر القوات الأمريكية مرونة لهذه القوة ، وتضمنت فرقتين منقولتين جواً ، وفرقة مظليين ، وفرقة اقتحام جوي رأسي بالحوامات .

ومازال التخطيط يعمل على دعمها . وفيما يتعلق بالشق التنظيمي للقوة فهي تجهز للعمل كقيادة مستقلة تختص بالخليج والمحيط الهندي . وقد كانت تتبع سابقا قيادة إعداد الجيش مع تقسيم أهدافها الجغرافية بين القيادة الأوروبية وأسطول المحيط الهادي وكان المأمول أن تهيأ لها قيادة بالقرب من مسرح العمليات المحتمل .

وفي منتصف عام ١٩٨١م كان في إمكان الولايات المتحدة أن تدفع ٨٠٠ مظلي من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً إلى أي منطقة ساخنة فيما لا يتجاوز اليومين على أن يعقبهم ٣٠٠٠ آخرين في بحر يومين أيضا . كما يمكن إرسال ١٢ ألف جندي من مشاة البحرية من مسرح البحر المتوسط وقاعدة دياغو غارسيا في خلال أسبوعين . ويمكن أن تنضم إلى هذه القوة فرقة آلية من ١٥ ألف مقاتل في بحر شهر ، وفرقة مدرعة في بحر شهرين . وبعد أن يتم الأسطول المعبأ تمركزه في عام ١٩٨٧م فسوف يسهل دفع ١٣ ألف مقاتل جوا خلال أسبوع واحد لتشغيل ٣٠٠ دبابة ومعدة أخرى من هذه السفن . أما

الوحدات الآلية فيمكن إنزالها إلى البر خلال أسبوعين ، والمدرعة خلال شهر .

وفي الفترة السابقة على تمام استعداد قوة الانتشار السريع يظل البنتاجون معتمداً على استراتيجية سلك الاعثار trip wire strategy . ومن المأمول أن اسقاط قوة أمريكية ولو محدودة مع توفير الإسناد الجوي الضخم لهايكفي لصمودها على جانبي الممرات الوعرة التي تعبر تلال وهضاب جنوب آسيا بما يجعل السوفيت يتردد قبل التفكير مليا في عبورها مدة تكفي لإدخال العملية السياسية في المعمعة . ومن نافلة القول أن عناصر الفرقة ٨٢ المحمولة جوا كانت قد استخدمت كقوة حفظ السلام في مسرح سيناء في مارس ١٩٨٢م وقامت بإنشاء قيادة واقعية في هذا الإقليم وميدان تدريب صحراوي .

والواقع أن الجدل الذي يدور حول تمركز القوات والإمدادات قرب الخليج لا يعدو أن يكون مسألة عرض للراية (للعلم) وفرض الوجود الأمريكي للتعبير عن العزم على العمل الجاد وهو موجه بالدرجة الأولى ضد الروسيا لصدها عن القيام بأية مغامرات في إيران . وقد تمَّ نشر مجال العمل الجغرافي لقوة الانتشار السريع مما استدعى زيادة مرونتها . ولم تعد أهدافها قاصرة على الاختراق الروسي عبر هضبة إيران فقط ، بل ووادبي دجلة والفرات ، وإقليم بلوخستان ، وربما دفع عمليات اقتحام جوي رأسي فوق مضيق هرمز ، أو الدفاع عن آبار النفط .

وتدور المعارضة ضد قوة الانتشار السريع حول الهدف منها أولا ، وحول مصداقية الانتشار المقترح ثانيا . فهناك من يدعو إلى استخدام مشاة الأسطول الأخف في الحركة والأفضل في المرونة لإنجاز مهمتهم التقليدية في الحروب الصغيرة والأعمال الفدائية . كما أن الشكوك تحوط برغبة الروس في الانتشار الضحل حتى ولو خاطروا بالتعرض لمواجهة مباشرة من أوروبا الغربية وأمريكا حول منطقة المصادر هذه التي لن يتنازلوا فيها عن الأرض بسهولة . وإذا ما أزمع السوفيت أن يبيتوا عملاً ما فيلزم أن تكتشف عملية حشد قواهم في مرحلة مبكرة حتى يتوفر الوقت الكافي لإعداد رد الفعل . ومن المتوقع أن

تخوض الجيوش الوطنية في المنطقة الحرب ضد أي غزو . فإذا ما صدق هذا التوقع أصبحت قوة الانتشار السريع ــ كما خطط لها ــ أكبر من اللازم وأشد عدوانية واستفزازاً .

ولو سلمنا جدلاً بفاعلية استراتيجية الهدف فسوف يبقى السؤال عن المصداقية . إن القوى العاملة الأمريكية المحدودة سوف يقل تأثيرها باقتطاع مفرزة كبيرة منها ووضعها في الخليج بينما يستطيع النقل الجوي والبحري السريع أن ينقلها من أمريكا إلى أوروبا فالخليج ، أو إلى أي مكانٍ آخر يحتاج إليها . ثم إن هناك درجة كبيرة من الجمود وقلة المرونة في تورط قوة الانتشار السريع في الخليج .

على كل حال فإن رأيا مضاداً يعبر عن جغرافية الموقف الراهن الذي يبرز عدم كفاية وقت الإنذار لرد الفعل الأمريكي في مواجهة حشد الفرق المدرعة السوفيتية في أرمينيا وتركمانستان . وقد اعتاد الناتو أن يتعادل مع حلف وارسو في مناورات شهر مايو من كل عام باستعراض قوته في أوروبا عن طريق تعبئة الاحتياطيات ونقل القوات جواً من الولايات المتحدة الأمريكية . ويتم كل ما سبق بقصد ردع السوفيت عن الجري وراء إغراءات التجهيز لهجوم فعلي تحت ستار التدريب السنوي . فإذا أعلن الاتحاد السوفيتي على الملأ أنه سوف يعقد تدريبه السنوي مبيتا النية للحشد والاندفاع نحو الجنوب ، فسوف يجد الناتو نفسه في وضع محرج . ذلك لأن نقل الجنود جواً إلى أراضٍ محايدة بغرض الرد على مناورات الاتحاد السوفيتي التي يجريها على أرضه سوف يبدو عملا استفزازيا قد يوفر للسوفيت الذريعة لغزو الشرق الأوسط . وقد تساعد القدرة على الاندفاع السريع التي تمتلكها قوة الانتشار السريع على تجنيب الولايات المتحدة أن تستدرج إلى موقف شديد الاستفزاز في هذه الحلبة . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما تبدو الأمور فإن طاقة النقل الجوي والبحري اللازم للرد على نحو ما يحدث في مسرح أوروبا بالطائرات المدنية الأمريكية والسفن التي تملكها الولايات المتحدة وترفع أعلاماً أخرى تناسب مصالحها لن يمكن تعبئتها لهذا الغرض لعدة أسباب سياسية .

ويعني امتداد المسرح نفسه ، والشكوك التي تحيط باتجاه الضربات المعارضة ، أن المسافة من أية قاعدة محتملة إلى مكان القتال قد تكون شاسعة . ويؤكد أحد الآراء أنه يكون من الأفضل تجنب حشد الإمدادات في قاعدة ما ، والاستعاضة عن ذلك بنشرها فوق سفن جاهزة للتوزيع المباشر على المواقع . كما أن اختلاف الظاهرات الطبيعية والبشرية التي نصادفها يتضارب مع فكرة أن القاعدة المحلية سوف تؤمن بتجهيز القوات للظروف المحلية . إن الصحراء الرملية في الخليج تختلف كثيرا عن الهضاب الشمالية المرتفعة وذات الطبيعة الوعرة أو الضفاف الكثيفة السكان للنهرين .

وحتى الآن لم يصرف النظر عن قاعدة القوة . وهناك احتمال قائم بتغير نظرة الحكومات إلى قوة الانتشار السريع وإلغاء الاتفاق ، مما يؤدي إلى طرد تلك القوات بكل ما يترتب عليه من خزي . ناهيك عن التكاليف الباهظة للبديل ، وهو ما يعمل ضد مصالح هذا الحل . وهكذا يستمر الجدل تاركا تحديد الأهداف السياسية للأفكار العالمية مقابل حقائق احتكاكات سطح الأرض للمناورات العسكرية .

وبينما نحرر هذا الفصل تصادف الحملة البريطانية في جنوب جورجيا وجزر فوكلاند في أعقاب غزو الأرجنتين في ابريل ١٩٨٢م مصاعب طول خطوط الإمداد لمسافة تربو على ٧٠٠٠ ميل وكيف يمكن التغلب عليها بثمن إذا ما توفرت الإرادة السياسية الكافية . ومع ذلك ، فإنه في المنظور الجيوبوليتيكي البعيد سوف تسعى وزارة الخارجية البريطانية إلى إيجاد وسيلة مع الأرجنتين مثل اتفاقية الإعارة الخاصة بهونغ كونغ . ومن الواضح أن المسؤوليات العسكرية سوف تكون على هذا البعد الشاسع شديدة التكلفة . ولهذا يصبح من الضروري استنباط وسيلة ترضى غرور الأرجنتين في نفس الوقت الذي تؤمن فيه رغبات أهالي فوكلاند القليلي العدد ، حتى تتجنب مثل هذه التكاليف الباهظة اللوجستيكية للعمليات المماثلة في المستقبل .

مراجع الفصل الثالث

الأهداف العسكرية وعلاقاتها المتبادلة مع الرياضيات والاقتصاد والألكترونات في أساسات بحوث العمليات مذكورة في كتاب :

- G.B. Dantzing : Linear Programming and Extensions (Princeton University Press,Princeton,1963),ch.2.

عولجت أمثلة اللوجستيك النووي بالتفصيل في كتاب :

E.S. Quade (ed) Analysis for Military Decisions (North-Hólland,Amsterdam,1970),ch.3

II. Scovillc MX: Prescriprion for Disaster (MIT Press, Cambridge,Mass.,1981)

Discussion of the RDF is from news sources, especially:

The Economist, 6th June 1981, «Defending the Gulf: A Survey»

الفصل الرابع
الخدع التكتيكيـــــة
TACTICAL PLOYS

«وبإتقان عملية اختيار أماكن تمركز القوات يستطيع القائد المنتصر أن يحث مواطنيه على القتال مثل هدير المياه الحبيسة عندما تتدفق من مكان شاهق»

صن تزو (الفصل ٤ ، الفقرة ٢٠)

التكتيكات والاستراتيجية : Tactics and strategy

يمكن التفرقة ببساطة بين التكتيكات والاستراتيجية ، حيث تهتم الاستراتيجية بخوض القتال في المكان والزمان المناسبين ، بينما يحرص التكتيك على استغلال القوة المتيسرة على أفضل وجه ممكن في أي مسرح جغرافي لإنجاز مهمة سبق تحديدها بالأهداف الاستراتيجية . ويهتم التكتيك بتنظيم المقاتلين والأسلحة بأسلوب متفوق في أرض المعركة . أما الاستراتيجية فإنها تهتم بتسلسل اختيار أراضي المعارك . ولا غنى عن أداء الواجبين بمهارة حتى نضمن النصر . فالنشر الخاطىء للقوات في الأرض التي تختار بمهارة للقتال ، وكذا التكتيك الجيد في أرض معركة لم يحسن اختيارها قد يتسبب في خسارة الحرب . ومن الواضح أن هناك علاقة متداخلة بين هذين المستويين للقرار . فأرض المعارك يلزم اختيارها طبقا لإمكانات الأسلحة والمقاتلين ، كما أن التكتيك يمكن تعديله للحصول على غاية استراتيجية . وعلى سبيل المثال فقد يعمد القائد إلى الانسحاب برغم إمكان إحراز النصر التكتيكي نزولا على دواعي الخطة الأكبر للصراع المسلح .

ولقد تسببت الاختلافات السريعة في مدى وسرعة الحرب على امتداد القرنين الماضيين في زيادة الغموض والخلط بين التكتيك والاستراتيجية . كما زادت الأسلحة المحلزنة rifled weapons مدى التراشق بنيران الأسلحة الصغيرة

من مجرد مائة ياردة إلى ثلاثمائة ، ورفعت من قيمة الاستخدام الماهر للساتر والتمويه . أما مدى أسلحة المدفعية فقد قفز بدوره من مجرد ياردات إلى أميال حتى أصبحت الصواريخ البالستيكية تستطيع اليوم أن تعبر بين القارات . وبعد أن كان معدل سير المشاة ثلاثة أميال في الساعة زادت سرعة المناورة إلى ثلاثين ميلا في الساعة أو أكثر ، وذلك بفضل الاسناد الجوي والحوامات .

لقد أدرك نابليون ما دخل على المجال الجغرافي من تغيير فرفع من سرعة تشكيلاته الميدانية فاستخدم تعبير جويبر Guiber «التكتيكات العظمى» «Grand Tactics» في وصف خططه . ولقد تجاوزت القرارات التكتيكية مدى الاتصال البصري بالعدو نتيجة اتساع مجال أرض المعركة الحديثة . وهكذا تزايدت أهمية استخدام الحيل الخداعية التي تعتبر السلاح الرئيسي للاستراتيجية . كما أنه لم يعد في الإمكان التمييز بين التكتيك والاستراتيجية بمعايير الرؤية المباشرة . وزاد تأثير الكم في القرارات بين ما يمكن تحقيقه في أرض القتال وبين التحركات الأوسع مدى وكذلك التحركات المضادة خلال ممارسة الحرب . ومع ذلك فقد بقي الفارق الزمني بين إدارة المعركة وخوض الحرب واضحا ، وهو ما يفصل بين التكتيك والاستراتيجية إذ يختص التكتيك بإدارة المعركة بينما تهتم الاستراتيجية بتنظيم وتنسيق المعارك ضمن الحرب أو أية حملة عسكرية . ويركز هذا الفصل على نشر الجنود والنيران في أرض المعركة مع استغلال الأرض على أفضل ما في الإمكان ، وترك المسائل الأعم لمعالجتها فيمابعد تحت عنوان استراتيجية الحملات الحربية .

الهجوم والدفاع : Offence and Defence

هناك مظهران تكتيكيان أساسيان أحدهما عدواني (هجومي) والآخر محايد (دفاعي) ، ويعتبر اختيار أحدهما من الأمور الاستراتيجية . ويتوقف اتخاذ قرار الهجوم أو الدفاع على عامل الزمن والمسافة والقوة المتيسرة للقائد والمواجهة له . وقد نجح عظماء القادة أمثال جان زيزكا Jan Zizka بعرباتهم المحصنة في شن الهجوم الاستراتيجي مع الدفاع التكتيكي . كما استخدموا خفة الحركة

لاستدراج العدو إلى موقع يضطر فيه إلى الاختيار بين الهجوم والارتداد . وكان هذا يوفر لهم ميزة استغلال تضاريس الأرض التي عادة ما تساند من يتخذ منها موقف الدفاع . ويواجه المهاجم عقبة ضرورة استعمال القوة في اتجاه معين . وقد يخرج هذه الضربة عن السيطرة و تنمّي قوة دافعة ذاتية . وقد كان من المناسب دائما بعد شن الحرب الاستراتيجية ضد العدو التحول إلى الدفاع التكتيكي وتركه يتخذ الخطوة الأولى في المعركة . وتكمن الحنكة التكتيكية الرفيعة في التحول من الدفاع إلى الهجوم بمجرد أن يصبح الوقت مناسبا . وذلك لأن المزايا التي يحصدها المدافع من مسرح الحرب تعطي ثمارها عندما يتم الإطباق على المعتدي بمجرد أن تظهر ملامح ضعفه . إن الميزان غير المستقر بين ميزة المفاجأة التي يحققها المهاجم ، والخطر المحتمل من التورط فيما يزيد عن طاقته ، هو جوهر معظم النزاعات . وسواء أكنت المهاجم أم المدافع في مبارة لكرة القدم أو المبارزة أو الجودو فإن ذلك يرتبط منطقيا بالمقارنة بين قوتك وقوة خصمك . فإذا كنت مطمئنا إلى تفوق عضلاتك بمايضمن لك التغلب على غريمك ، بالإضافة إلى سرعة إعادة التأهب إذا ما أخطأته فليس مايمنع أن تبدأه القتال . أما إذا كنت قادرا على توجيه طعنة خاطفة إليه بعد نجاحك في طعنته السابقة فدعه يبدأ هو .

لقد كان الاختيار من الناحية التاريخية يتوقف على المزاج والتقليد ، فالتكتيك هو تكرار ما أثبت نجاحه في الماضي . أما الحكمة التقليدية التي تقول بأن الهجوم هو أفضل أشكال الدفاع ، وتؤيد روح الحماسة وتقاليد السلاح الأبيض ، فقد أرسلت أجيالاً من الجنود إلى حتفهم في مواجهة أسلحة جديدة بينما كان اتخاذ الموقف السلبي في حالات أخرى واللجوء إلى الدفاع المحصن يحقق نتائج مماثلة من نقطة انطلاق مختلفة . لقد تجاهل انحياز كلاوزفيتز للصلب البارد والحشد الكبير في القوى دروس القسوة الدفاعية للمشاة المتخندقين إبان الحرب الأهلية الأمريكية حتى جاءت الصحوة الأليمة في ميادين الفلاندرز . كما كانت عقلية خط ماجينو The Maginot Line التي عششت في أذهان العسكريين الفرنسيين هي سبب هزيمتهم في عصر الدبابة والطائرة .

وعادة ما يتحقق النجاح التكتيكي بفضل الخروج الجماعي عن القواعد المرعية بهدف تحقيق الانسجام مع أسلحة العصر . ويبرز نتيجة لذلك تقليد يكفل تكرار ماثبت نجاحه في الماضي . ويزدهر المزاج غالبا نتيجة تهيئة نظام يكفل التقاليد في التكتيك . فقد كان الصيد بالكلاب وسيلة في بريطانيا لتقوية روح الفروسية فضلا على المهارات الأساسية ويمكن أن نعزى المزاج السائد في أي مؤسسة عسكرية إلى الظروف الجغرافية والثقافية . فالفارق بين الأسطول الملكي البريطاني الذي يميل إلى حسم المشكلات ، والجيش البريطاني الذي ينحو إلى الالتفاف حولها يمكن أن نرجعه إلى عزلة الجزيرة البريطانية . لقد خرج الأسطول ليبحث عن خصمه ويدمره حسب تقاليد نلسون Nelson وعلى النقيض من هذه الروح التعرضية كان الجيش الذي يعزله البحر عن قاعدته ميالاً إلى الحذر واتخاذ جانب الدفاع . وقد وضع له ولنجتون Wellington هذا الأسلوب باختيار الأرض والتمسك بها مع ترك العدو ينهك قواه بالهجوم .

ولا غنى للخيار العقلاني بين الهجوم والدفاع من أن يضع في اعتباره مجريات الأحداث ، والجغرافيا ، والقوى المتيسرة للقائد وتلك التي تواجهه . ويعني تحبيذ هذا الخيار أو ذاك الكشف عن نواياك التي لن تحقق لك النصر إلّا إذا كنت تملك اليد العليا ، ومالم يكن عدوك أحمق . فالأوضاع المعروفة تفسح الفرصة أمامه لاستغلال ما فيها من نقاط ضعف .

وبعد أن تقرر القيام بالهجوم أو اتخاذ وضع الدفاع يصبح التكتيك مجرد تحرك لاحتلال الأرض التي تضاعف من كفاءة قواتك . ومن الواضح أن الدفاع يمكن أن يكون ثابتا أو متحركا حيث يهدف النوع الثابت إلى إقامة محيط خارجي لا يمكن للعدو اختراقه في نفس الوقت الذي يسمح فيه بحماية خط الانسحاب منه وخطوط إمداده . ويعمد الجانب القائم بالدفاع إلى الحفر واحتلال الأرض المسيطرة على ما حولها ليهيء سداً يُوقع في المهاجم أفدح الخسائر الممكنة ويحرمه من ممارسة مناورات الاختراق أو التطويق . أما الدفاع المتحرك فيعمل على إنهاك قدرات المهاجم وإطالة خطوط مواصلاته وتجزئة

حشوده القائمة بالاقتحام ويؤدي كل ذلك إلى زيادة مواجهة جبهته ونشر قواته بأقل كثافة ممكنة مما يتيح الفرصة للانقضاض على مجنباته لسحقها .

وينطوي الهجوم ضمنا على خفة الحركة ، كما أنه يهدف إلى تحقيق اختراق دفاعات الخصم وطيّ حافتها الخارجية وقطع خطوطها الداخلية . وباستغلال المناورة يمكن إرباك الدفاع وفتح نقط الاتصال الضعيفة في هيكله الدفاعي . وليس ثمة شك في أن الهدف الرئيسي للهجوم هو حشد قوة متفوقة كافية أمام نقطة ما أو عدة نقاط من المواقع الدفاعية لاجتياحها جزءاً وراء الآخر . ولقد ظهرت عدة متغيرات لهذا الأسلوب الأساسي إذ تضمن الكثير من الاشتباكات خوض كل جانب من معارك الهجوم والدفاع على التوالي . ويعتبر التكتيك فن وضع القوات في أماكنها الصحيحة وتحريكها في أرض المعركة بما يحقق هدفا استراتيجيا محدداً بالأسلحة المتيسرة وفوق الأرض المختارة .

التشكيلات : Formations

إن التهيئة الجغرافية للقوات في أرض المعركة تندرج تحت ثلاثة تشكيلات أساسية هي تشكيل الخط ، والرتل ، والمربع . ويهتم التكتيك في غالبية مجالاته بانتخاب أي من هذه التشكيلات التي تلائم الأوضاع ، ومتى وكيف يتم تغييرها أو متى وكيف يلزم التغيير من تشكيل ما إلى تشكيل آخر . ومع زيادة مدى الأسلحة وقوتها وتطور وسائل الاتصال وتوفر المساندة الجوية وزيادة سرعة المناورة تضاءلت كثافة هذه التشكيلات أما مداها الجغرافي فقد تزايد ، كما صارت حدودها الخارجية أقل وضوحا ممّا كانت عليه أيام الأوتاد والبنادق القديمة . ومع ذلك فما زالت هذه التشكيلات توفر مجموعة مفيدة من الترتيب العام الذي يتم به نشر العناصر التكتيكية الأساسية .

ويحقق التشكيل الخطي أطول حافة قاطعة لمواجهة العدو ، كما أنه أكثر أنواع الانتشار صعوبة بالنسبة لحركات الالتفاف . وفي الدفاع يقوم التشكيل الخطي بكبح العدو واحتوائه ، كما أنه يمكن تقويته بالتحصينات والموانع . ويصب الخط الهجومي أكبر قدر من نيران الجيش في أثناء التقدم . ويمكن

تجنب تطويق مجنبة الخط بارتكازه على مانع جيد للحركة . وقد استُغلّت التلال والأنهار والشواطىء والمدن كظاهرات جغرافية مساعدة للخط . وكثيرا ما استخدمت الحواف الصخرية التي تعلو سطح السهل الرسوبي وكذلك شاطىء النهر كوقفات نهائية للخط الممتد عبر مدن السير في الوادي . ومن عيوب الخط ضحالة عمقه وبالتالي ضعف قوة صموده . كما أنه محروم من خفة الحركة تقريبا . ويصعب استمرار سد الثغرات التي يحدثها فيه العدو خاصة إذا كانت العربات والأفراد منتشرة بعيدا عبر البلاد . ويعتبر السير خارج الطرق من الأمور الصعبة في مختلف أنواع الأراضي . وإذا ماارتكزت مجنبة الخط الدفاعي على ظاهرة جغرافية أصبح أقل قدرة على خفة الحركة بسبب حاجته إلى الاحتفاظ بالاتصال مع نهاية هذه المجنبة . وما أن دخلت البندقية والمدفع المحلزن الخدمة حتى احتلت التشكيلات المنضمة مكانها لخطوط المناوشة القليلة العمق . وتحول الخط إلى ستارة تعتمد على مزايا الاخفاء والتمويه . وبدأ خط الهجوم يتخذ شكل السيل المتدفق الذي يتسرب خلال الدفاعات حيث نقطها الضعيفة ليباغتها من المؤخرة .

ويضحي الرتل بالوقاية في سبيل خفة الحركة ، كما أنه الأشد تعرضا للهجوم من الأجناب . والرتل هو تشكيل الجيش المتقدم ، وهو في الواقع خط مزدوج تم تشكيله بالتفاف عناصره في اتجاه الطريق . وتظهر هذه الازدواجية في شكل جبهة ضيقة وأجناب طويلة معرّضة . وباستغلال ابتكارات كارنو **Carnot** أحرز نابليون انتصاراته الأولى بدمج الجحافل الثائرة في أرتال مرنة تتقدمها مفارز المناوشة . وكانت هذه المفارز تتدفق بسرعة للأمام بحثا عن النقط الضعيفة عند العدو للاحتشاد أمامها ، وإرباكها بسرعتها . وقد لاحظ نابليون أن قوة الجيش تكون مثل قوة الجسم المتحرك الذي تعادل قوته كتلة جسمه مضروبة في سرعته . وخير ما يحقق هذه السرعة هو تشكيل الرتل . وقد أثبت الجنرال شيرمان **Cherman** بالبيان العملي قيمة خفة حركة الرتل في الحرب الأهلية الأمريكية ، وقد وضع هذا الدرس المستفاد موضع التطبيق في تكتيكات الحرب الخاطفة في أربعينيات القرن العشرين عندما راحت رؤوس

حراب أرتال الدبابات تنطلق أمام عمود المشاة .

ويتكون المربع من وصل مجنبات الخط لتواجه كل الاتجاهات والمربع أقل التشكيلات خفة في الحركة إذ يقف عند حد الالتحام في الطيف الذي يمتد بين الانتشار السريع والتلاحم عبر التاريخ . ويصلح هذا الوضع الدفاعي الخالص للوقاية من الهجمات التي توجه نحو الأجناب وتصبح قدرته على الحركة منعدمة عندما يتخذ تشكيل المربع وضع الدفاع داخل الحصون المبنية . وقد أثبت أنه الحل المضاد أمام عدو يملك التفوق العددي أو خفة الحركة الأفضل إذ أنه يقلل من الدمار والذعر الذي يترتب على شن الهجوم من الجنب أو المؤخرة . ولقد كان الملجأ الدائري للعربات هو أسلوب الدفاع التقليدي لقبائل الرحل ، وإذا ما تمكنت من تنسيق تحركها للحفاظ على اكتمال أسباب دفاعها فإنها سوف تصبح سلاحا قويا للحرب . وفي الواقع فإن اللقاء بين المربع والرتل يتضمن خفة الحركة دون التعرض . وقد حقق ريتشارد قلب الأسد **Richard the Lion-heart** هذه الميزة خلال تقدمه من عكا صوب يافا عام ١١٩١م مستنداً إلى البحر لوقاية مجنبته ، وإلى حاجز واقٍ من المشاة وحملة الأقواس والسهام من ناحية البر ليحطم هجمات صلاح الدين . كما أن الحصون المشكلة من العربات أتاحت للزعيم زيزكا **Zizka** عام ١٤٢٠م أن يستغل مربعاته الخفيفة الحركة ليضرب فرسان التوتون بشدة . وفي شتاء عام ١٩٥٠م تمكنت فرقة مشاة الأسطول الأمريكية من كسر حلقة الحصار التي ضربت حولها في شوزين **Chosin** وراحت تقاتل على امتداد ثلاثة عشر يوما في معركة مائعة ضد ظروف قاسية معتمدة على المربع المتحرك الذي مكنها من قطع مسافة ميل واحد كل أربع ساعات . كما أن الشكل الثابت للمربع ناجح في الأوقات والأمكنة التي تناسبه . فقد أمكن لبطرس الأكبر **Peter the Great** بفضل متاريسه أن يسحق الأرتال السويدية في معركة بولتافا عام ١٧٠٩م وأن يوقع الملك شارل الثاني عشر **Charles XII** في كارثة . وقد أمكن لمربعات ولنجتون من المشاة البريطانيين أن تدمر فرسان المارشال الفرنسي ناي **Ney** في معركة ووترلو . وكانت المربعات القنفذية التي اتخذتها التشكيلات الألمانية في

سهول روسيا خلال شتاء ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢م هي التي أنقذتها من الهلاك .

ولقد ترتب على زيادة مدى الأسلحة التقليدية وقوة تدميرها في حقبة الثمانينيات وكذلك أخطار الأسلحة النووية أن اتخذت تكتيكات الدفاع الحديث عدة تركيبات من المربعات الصغيرة . إن الوحدة التي تبلغ حجم السرية أو الكتيبة تستطيع أن تحتل مواقع قتال أو مواقع مانعة متباعدة لدرجة أن أكثر من موقع دفاعي واحد يمكن تدميره بواسطة الأسلحة النووية . وتجهز تلك المواقع الدفاعية المتباعدة بعضها عن بعض للدفاع من جميع الاتجاهات (وهو غرض المربع) ، وعليها أن تغطي الثغرات الواسعة بين المواقع بنيران مدافع الماكينة ومدافع الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات . وتعمد القوات التي تفتقر إلى خفة الحركة المعادلة لما يمتلكه العدو (مثل المشاة الخفيفة) إلى احتلال الأرض غير الصالحة لسير الدبابات مثل القرى أو الغابات حيث تستطيع أن تمارس منها القتال بالاشتباك مع المهاجمين الميكانيكيين العابرين بواسطة النيران المضادة للدبابات البعيدة المدى . ويتكون الخط الدفاعي المتحرك من لوحة مرقطة من هذه المواقع يتم احتلالها بالتتابع بواسطة وحدات السد التي تحاول حصر الهجوم داخل أرض قتل تم اختيارها مسبقا حيث توجه إليه داخلها الضربة النووية المسبقة أو الهجمة المضادة .

التكتيكات التعرضية : Aggressive Tactics

يستطيع الجانب الذي ينتزع المبادأة التكتيكية أن يستخدم ثلاث حركات أولية هي الاقتحام بالمواجهة ، والهجوم حول مجنبة العدو ، والاسفين الذي يُدق لتمزيق العدو . فإذا ما تم المزج والترابط بين هذه الحركات الأولية ، والخدع ، واستغلال تضاريس الأرض ومواقع العدو وتغييره لمواقعه توفر العديد من التكتيكات المختلفة .

ويعتبر الاقتحام بالمواجهة الشكل الأكثر بدائية . فليس هناك كثير من الابتكار أو البراعة العسكرية في الالتحام مع العدو يداً بيد مثلما يحدث بين المصارعين . وإذا كنت تتمتع بالتفوق في الأعداد أو الأسلحة أو التقنيات أو

الانضباط أو الهيمنة فإنه يكون من المفيد أن تستخدم هذه الميزة بأكثر الأساليب مباشرة لحسم الأمر حسما تاما . لقد كانت هذه هي الروح التي جعلت التشكيلات الرومانية تنظر بشزر واحتقار إلى الحيل مفضلة استخدام مرونتها وانضباطها على أفضل الوجوه . وعندما جاء دور العرب والمسلمين تدفقت جموعهم مثل الأمواج الهادرة . وفي ستينيات القرن السابع عشر استخدم مارتن ترومب **Martin Tromp** المهارات البحرية وقوة النيران المتفوقة للأسطول الهولندي فيما يعادل الاقتحام بالمواجهة من وجهة النظر البحرية مما جعله يأتي بسفنه في خط موازٍ مع سفن العدو كيما يطلق عليها نيران مدافعه . وسك نابليون أسطورة الجيش الفرنسي الذي لا يقهر في معركة لودي بفضل الاقتحام الأمامي المدبر الدامي الذي شنته وحدات رماة القنابل على مرابض المدافع النمساوية . ومع أن فون كلاوزفيتز لم يصف الاقتحام بالمواجهة بالتفصيل فإن كتاباته كانت متشربة بفكرة العمل المباشر والبحث عن نتيجة حاسمة في المعركة . وقد وصف ذلك بقوله «إن المعركة هي الحل الدموي للأزمة ، والجهد الصادق لتدمير قوات العدو ، كما أنها الابن البكر للحرب» . ولقد نحا في كتاباته منحى فلسفيا وليس تكتيكيا ، وقد نتجت عن الانبهار الروحي بالصلب البارد والدماء الكامنة في العسكرية البروسية ومن سار على نهجها زيادة الميل إلى خوض الصراع بالمواجهة . ومع التعادل التقريبي في القوات والأسلحة يمكن أن يتحول الالتزام الساذج بالاشتباك المباشر والشامل إلى صيغة من صيغ التدمير المتبادل الذي يذهب سدى . وبتعبير تكتيكي فإن النشر الحالي للأسلحة النووية الأمريكية والسوفيتية يظهر كلا منهما بمظهر الاستعداد لمواجهة ساخنة بينهما تكون الكرة الأرضية هي مسرحها ومدنها الخط الأمامي .

ويسعى الهجوم من الجنب إلى ضرب العدو في جانبه أو ظهره . وتظهر أكثر صوره البدائية في الكمائن التي تستغل طبيعة الأرض وبخاصة توفر الأحراش لتوجيه ضربة مفاجئة للعدو . لقد حطم هانيبال **Hannibal** جحافل القائد الروماني فلامينوس **Flaminius** في عام ٢١٨ قبل الميلاد بخروجه فجأة

من مخبئة في الغابات لينقض في مواجهة أسلحة الغزاة المتفوقة أو الجيوش النظامية ، إذ يتيح لهم مهاجمة المجنبات المكشوفة وكذا مؤخرات القوات في أثناء تحركها . وقد استغل نابليون تفوق فرقه في السرعة ليجتاح مؤخرة عدوه ويقطع خط الرجعة عليه وكذلك خط إمداده . وفي التكتيكات البحرية تعتبر مناورة الالتفاف لمحاذاة سفن الأعداء وضربها من جانب السفينة بكل مدافعها لصب أكبر كثافة من النيران عليها ضربا من الهجوم الصرف على الجنب . وقد كان هذا هو أساس هزيمة الأسطول الروسي على يد الأدميرال توغو Togo في تسوشيما عام ١٩٠٥م . أما تكتيكات الحرب الخاطفة والحرب الخفيفة الحركة الأكثر حداثة منها فإنها تسعى دائما إلى تطويق الأجناب والوصول إلى مؤخرة العدو . وبدخول البعد الثالث بالطائرات أصبح الاقتحام الجوي الرأسي ضربا من حركات تطوي المجنبات .

وغالبا ما يصاحب الهجوم من الجنب هجوم آخر بالمواجهة . فإذا لم تنجح مفاجأة العدو وهو متحرك وكان وقتها في تنظيم المعركة أو غير مسبوق كثيرا وجب عندئذ أن يكون الاقتراب نحو جانبه مصحوبا باشتباك آخر بالمواجهة لجذب انتباهه . ويعمل الهجوم بالمواجهة كسندان تقع عليه ضربة الهجوم من الجنب في الاتجاه الذي يكون فيه مكشوفاً . لقد تطورت الحركة الجانبية تطورا طبيعيا من الاقتحام بالمواجهة حيث يتيح العدد الأكبر لأحد الطرفين أن يلتف حول خط الطرف الآخر ونهايتيه ليطوي ذلك الخط من جانبه أو جانبيه . وكان أول سجلّ للهجوم من الجنب في معركة ليوكترا عام ٣٧١ قبل الميلاد التي انتصر فيها جيش طيبه على جيش اسبرطه بفضل استخدام القائد ايبامينادوس Epaminandas ما عرف بعدئذ بتكتيك الجناح المرفوض ليركز على الميل الواضح للجنب الأيمن للتقدم بمعدل أسرع نتيجة سعي كل جندي مشاة إلى التقدم تحت وقاية درع الجندي الذي يتقدم على يمينه . ولقد دفع ايبامينادوس جيش طيبه في خط مائل عمداً كانت مجنبته اليسرى في طليعته . ولم تقبل هذه المجنبة أن تشتبك فعلا مع مجنبة الاسبرطيين اليسرى بل ركزت الهجوم على المجنبة اليمنى المتقدمة فطوقتها ثم طوتها تماما .

ويعتبر التطويق تكتيك التشابك مع مجنبتي العدو في شكل حركة كمّاشة . وتكون هذه الحركة أكثر سهولة إذا ما أمكن استدراج العدو لقطع أو ثني تماسك تشكيله والخطو داخل فكي الكماشة . ويمكن تحقيق ذلك بعدة طرق . وقد وفر الخط النصر للقائد ميلتيادس Miltiades بهذه الطريقة في معركة ماراثون عندما تراجع قلب جيشه وجذب جيش الفُرس بين قرون جناحيه المتقدمين . كما واجه هانيبال الرومان في معركة كاناي بقلب منبعج للأمام سريعا ما سحبه للخلف في ارتداد منظم . فلما تابعته الفرق الرومانية وقعت داخل الشرك الذي كان ينتظرها عنده جناحا القرطاجنيين المستعدين لتطويقها . وقد قام سيبيو Scipio بتطبيق نفس تكتيك الجناح المرفوض ضد هانيبال في معركة اليبا حيث تحركت مجنبة الرومان للأمام بسرعة أكبر من القلب للإطباق على خط القرطاجنيين الثابت . وكانت حركة التطويق هذه مثالية بالنسبة لآلة الحرب البروسية التي أعدها فون مولتكه للاندفاع صوب قلب العدو واكتساح مجنباته توطئة لتدمير مؤخرته . وتتمثل مناورة الهجوم التثبيتي بالمواجهة المشتركة مع التطويق المزدوج بصورة جغرافية في تنظيم فرق الزولو المشكلة من قبائلهم في قوات صدر وقوات الأذرع . ويقع على قوات الأذرع القيام بالمناورة حول وخلف العدو لضغطه صوب الصدر أو القلب حيث يتم سحقه .

ومع زيادة مدى وسرعة الاشتباك وقلة كثافة التشكيلات خلال القرن المنصرم فإنها أصبحت أكثر مرونة وانتشاراً وأشد عرضة للاختراق . كما توارت النماذج الهندسية للقتال لتفسح المكان لحركات الحصار والتسرب التي تعتمد على اغتنام الفرصة والالتفاف كالدوامة مثلما كان روميل Rommel يفعل بتكتيكات المرجل في الصحراء الغربية . ومع ذلك فقد ظل الهدف على حاله إذا انحصر في تجاوز العدو وإقلاق وإزعاج مؤخرته .

وتعتبر ثالث خدعة تكتيكية تعرضية هي الاختراق بدق الإسفين في الخط المضاد ويمكن اعتبار ذلك حالة خاصة أخرى للهجوم من الجنب ويتم فيها شق تشكيل الخصم لتهيئة مجنبتين جديدتين فيه توطئة لطي خطة من الجنب

والخلف . ولعل المثل التقليدي لهذه المناورة هو معركة أربيللا التي نجح فرسان الاسكندر فيها في اختراق الخط الفارسي وإشاعة الذعر فيه وتحطيم أعداده المتفوقه . كما أن نصر الأدميرال نلسون Nelson البريطاني في معركة الطرف الأغر باستدراج رتلين من الأسطول الفرنسي إلى خط فيلينيف Villeneuve حيث قام بتجزئتهما إلى ثلاث مجموعات منعزلة تولت المدفعية البريطانية المتفوقة أمرها . وقد استخدم نابليون تكتيك الإسفين في معركة يورودينو بصورة غاشمة وحشية . وكان قد تحول في هذه المرحلة عن التركيز على السرعة في معادلته التكتيكية إلى التركيز على الكتلة . ولهذا وضع الجيش الفرنسي برمّته في رتل واحد ضخم ليندفع داخل قلب الخط البروسي ويمزقه . وعلى امتداد الحقب العديدة المنصرمة تمخضت الأرتال الميكانيكية في كثير من الأسافين المخترقة إلى جانب حركات الكماشة وتطويق الأجناب للبحث عن أي نقطة ضعيفة في الجبهات الطويلة المعرضة للإختراق في الحرب الخفيفة الحركة . لقد جعل حجم وانتشار الجيوش الحديثة من الاختراق التكتيك الهجومي القياسي . كما أن حجم ومدى أسلحة الجيوش المتحاربة نادراً ما كانت تترك أي مجنبات مفتوحة خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية . كما أن أي صراع بين حلفي الناتو ووارسو ، أو بين الصين والاتحاد السوفيتي سوف يشغل في الغالب مناطق الحرب ذات الجبهات المتصلة .

التكتيكات الدفاعية : Defensive Tactics

لقد عالجنا مبادىء التكتيكات الرئيسية في الحرب الدفاعية في معرض حديثنا عن التشكيلات الخطية وتشكيلات المربع . ومن الطبيعي أن يكون هناك فارق واضح بين الدفاع الثابت والدفاع الخفيف الحركة . ومن الواضح أن أيّاً منهما يعتمد على الفرصة الأفضل أمام الدفاع لانتخاب الأرض التي يقاتل فوقها ومن ثم استغلال تضاريسها بما يوافق مصلحته . ويمكن تحويل الأرض لتناسب الدفاع وتوفير مزايا الساتر والمقاومة لإهدار إيجابية خفة حركة المعتدي . وعلى سبيل المثال فقد حرص ولنجتون Wellington دائما على اختيار المكان الذي يسمح للعدو بالوصول إليه ووضع قواته خلف سفح تل يحميها

من نيران المدفعية حتى تحين لحظة الاشتباك . وتصلح المنحدرات والأنهار والمستنقعات لإبطاء تقدم العدو وزيادة تعرضه للصواريخ . كما أن المدافع المحلزنة والدبابات والطائرات جعلت للمهارة التكتيكية في استخدام تضاريس الأرض للاستتار والإخفاء وإقامة الموانع أهمية كبيرة في الحروب .

ويستطيع الدفاع الثابت أن يضاعف من مزايا تضاريس الأرض أو التغلب على افتقارها إلى الستائر والموانع بإقامة التحصينات ضد الصواريخ وكذلك الموانع الصناعية لعرقلة وإيقاف التحركات . وتكون مثل هذه الأعمال ذات شكل خطي أو مربع بصورة عامة لتوقف تدفق العدو على مواجهة واسعة أو تعرقل حركته بالسيطرة على الأماكن المهمة في الأرض . وقد حول فوبان Vauban هندسة التحصينات في القرن السابع عشر إلى فن رفيع في مضمار التنافس على الهيمنة على مدن الأنهار والقنوات في الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) . وقد صارت السكك الحديدية خلال عام ١٨٥٠ بمثابة أعصاب الشؤون اللوجستيكية للشعوب وهدف السيطرة الدفاعية والتدمير الهجومي . وعلى سبيل المثال فقد أنشىء التجهيز القنفذي حول محطات السكك الحديدية الروسية . كما كانت السكك الحديدية إيذانا ببدء عصر الجيوش الجرارة ذات الأسلحة القوية البعيدة المدى . ويمكن ملاحظة المضامين التكتيكية لهذه التغيرات في الحرب الأهلية الأمريكية حيث قاد الجنرال جرانت Grant أول جيش يبلغ عدده مليون مقاتل . وصارت الميزة للدفاع بفضل البنادق والمدافع ، كما ظهرت كل مكونات الإعداد الخندقي في الخطوط التي جهزت خارج سانت بطرسبورج بوادي أبوماتكس في عام ١٨٦٤م . إلّا أن الدروس التي كان ينبغي الاستفادة منها لم يهتم بها الأوربيون ، الأمر الذي جعلهم يدفعون ثمنا غاليا لهذا الإهمال في حرب عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨م . وقد أمكن كسر الجمود الذي ران على جبهة القتال الأوروبية في شهر ابريل ١٩١٧م عند بلدة كامبرای حيث قامت الدبابات بترجيح كفة الميزان لصالح الهجوم بدلاً من الدفاع الثابت . وقد ظهر أن تكتيكات الهجوم الثلاثي الأبعاد لعمليات الحرب الخاطفة التي تنطلق بسرعة ٣٠ ميلاً في الساعة بالدبابات

والعربات المُساندة بالمجهود الجوي وبالقوات المحمولة جواً تستطيع جميعها أن تغلب العدو بسهولة ، وتخترق خطوطه الصلبة ذات العمق الضحل على نحو ما حدث لخط ماجينو . أما الخط الأكثر رقة وإن كان الأكثر عمقا ونعني به خط سيجفريد بدشمه الخرسانية العديدة التي تشبه درب التبانة ، وشراك الدبابات فلم يكن مصمما ليعمل كخندق أخير ولكن كنطاق مقاومة مستهلك يكفيه أن يبطىء تقدم مدرعات العدو ويدميه . واليوم وقد توفرت في الترسانة الحربية الطائرات والحوامات والصواريخ الموجهة فإنه يبدو أن التحصينات المعقدة لم تعد ذات موضوع إذ يمكن تجنبها أو تخطيها أو الالتفاف حولها . وقد يكون آخر معاقل التحصينات الدفاعية هو الصومعة المقواة للصواريخ ، ويبدو أنها أيضا ليست بمنجاة من خطر الاختراق والتعطيل بالنبضات الكهرومغناطيسية للانفجار النووي .

وقد ترتب على الاختراق العميق في العمليات الهجومية أن صار الدفاع محتاجاً إلى خفة الحركة والمرونة . ولم تكن السوابق التاريخية التي تشير إلى ذلك قليلة . فقد سبق لفابيوس **Fabius** أن قام بتكتيكات تعطيلية كلاسيكية . كما أن نجاح البيزنطيين على امتداد خمسة قرون في استدراج قوات خصومهم للأمام قبل تمزيقها إرباً إرباً بالمناورات الخداعية البارعة وإن كان أقل انتشاراً إلا أنه جسّد الغازي الأسطوري بليزاريوس **Belisarius** ، الذي يمكن دراسة سيرته في كتاب موريس **Maurice** عن الاستراتيجية وكتاب كل من ليو الحكيم **Leo the Wise** عن التكتيك . وقد استخدمت أساليب الثوار والفدائيين المرة تلو المرة بكفاءة . وعندما وقع الهجوم الألماني الكبير على روسيا الذي عرف بالاسم الرمزي باربروسا كانت حرب عام ١٨١٢م ما زالت ماثلة في الأذهان ولهذا بادروا إلى اتخاذ الدفاع المرن بعمق كبير . كما تركت جزر مقاومة خلف القوات الألمانية المتقدمة تمتص قوتها وتستنزفها . وقام الروس بحرث الأرض بين هذه الجيوب حتى لا يجد فيها العدو شيئا يعينه على الحياة . وقد ارتد القوزاق أمام الزحف الألماني بمعدل ١٨ ميلاً في اليوم الواحد . إلا أنهم داوموا على مهاجمة الجبهة الألمانية بنيرانهم الخفيفة الحركة . لقد قايض الروس الوقت بالأرض ،

واستدرجوا القوات الألمانية حتى تم قطعها إلى أجزاء متناثرة توطئة لطردها من أراضيهم .

التكتيكات الراهنة : Tactics Today

إن السيولة النافذة للحرب الميكانيكية والاتصالات اللاسلكية وقوة النيران المحمولة جوا قد مدت مجال الاشتباك المستمر عبر الزمن والمسافة .

وحل الصراع الممتد والقتال المتفرق بالنيران محل المعارك النمطية . كما صارت المناورة بالتشكيلات الميدانية في حركات اكتساح عريضة للتغلب على العدو ضرباً من الاستراتيجية وليس التكتيك . وتجاوز مجال المعركة بقدر كبير مدى إدراك أي رجل بمفرده لما يحدث فوق شريحة ما من الأرض . وانتهى كذلك عصر التنظيمات الهندسية الغابرة لإدارة التشكيلات في الميدان وفق حركات نظامية بسيطة تتم بأوامر إشارية مباشرة لتحقيق السيطرة وحشد الجهود . إن التكتيك بوصفه فن تنظيم المقاتلين في أرض المعركة وفق الإدراك الفكري لقائد بمفرده قد تحول إلى الانتشار التفصيلي للجنود والأسلحة لأداء مهمة محددة يترتب عليها كسب ميزة الفرص المواتية التي يوفرها مسرح الحرب وأعمال العدو داخل مجالك المحلي . وبهذا أصبحت قيادة الجيوش من الشؤون الاستراتيجية ولم يعد باقيا للتكتيك في أغلب اختصاصاته سوى تطعيم الجنود بالإدراك العام لأساليب القتال واستخدام أسلحتهم وعرباتهم على أفضل الوجوه مع تجنب جذب انتباه العدو جذباً مميتاً .

وعندما يكلف الجنود بوقف تقدم العدو عبر شريحة من الإقليم أو انتزاعها منه فيمكن عندئذ تشبيه مناورات الحرب بتدفق المياه فوق سطح من الفرص العسكرية ، حيث تندفع الوحدات على امتداد القنوات المفتوحة وتتدفق حول مواقع المقاومة وتصب في برك مستورة مناسبة باحثة عن خط أقل المقاومات في أثناء تدفقها ، أو غمر الأرض بالماء لتوريط العدو المتقدم في أوحاله . ويتطلب كل من التقدم والدفاع تقديراً دقيقاً للأرض إذا ما أريد تنفيذه بكفاءة . وكخطوة أولى يكون من الضروري معرفة الظاهرات الجغرافية والأماكن التي

يلزم تجنبها . وتكون الأماكن المطلوبة هي التي ترغب أنت في الاحتفاظ بها أو منع العدو من احتلالها . وقد تكون هذه الأماكن ظاهرات جغرافية طبيعية أو بشرية توفر للمسيطر عليها مزايا عسكرية . أما الأماكن المعرضة لمراقبة العدو أو نيرانه فمن الواضح أنه يحسن تجنبها ما أمكن . وتكون الأماكن المستورة مرغوبا فيها غالبا إذ أنها تصلح لقيادة المسرح منها . وتوفر الأرض الجيدة وسائل مراقبة تحركات العدو وإيقاع الخسائر به بواسطة ما يتوفر بيدك من الأسلحة ، كما أنها توفر عكس ذلك إذ تعطيك الساتر من نيران العدو وتسترك من مراقبته البصرية . وبعد تحديد مكان الذهاب أو إلى أين يرغب العدو في الوصول تكون الخطوة التالية هي البحث عن كيفية الوصول إلى هناك بأقل جهد ممكن وبأقل خسارة في الأرواح ، أو كيف يمكن للمقاومة أن تقترب من مواقع الهدف . ويتضمن ذلك تقدير مدى سهولة عبور سطح الأرض ومسح الطرق المتيسرة والموانع الطبيعية أو الصناعية التي تمنع أوتكبح حركة الرجال والماكينات . ولا يقتصر ذلك على نوعية الطرق فقط ولكن على الحركة خارجها ومدى تغير هذه الظروف بتغير الطقس . ثم تحدد خطوط الحركة من وإلى الأهداف ، وكذا السرعة التي يمكن السير بها . أما تحليل تضاريس الأرض بقدر مناسبتها أو عدم مناسبتها من وجهة النظر العسكرية وتقسيمها إلى أماكن يحسن امتلاكها وأخرى يفضل تجنبها ، ومدى توفر الطرق التي تخدمها وشكل الأرض فتعتبر كلها معلومات أساسية للمناورة بالرجال والأسلحة . ولا يبقى بعد ذلك إلا النظر في تفصيلات المدقات والمواقع المنتخبة التي تعتبر مجرد مواكبة إمكانيات الأسلحة والعربات مع الأرض وإعادة تقدير مقاومتها مرة أخرى .

ولعل المثال الأكثر مناسبة عن الإجراءات التفصيلية هو الموجود في مراجع خدمة الميدان لجيش الولايات المتحدة الأمريكية . أما السياسي الذي يؤكد ما تدعو إليه هذه الوثائق فإنه يدعو إلى أن الاستنفار الأكثر احتمالا للعمل سوف يكون لخوض حرب دفاعية ضد الاتحاد السوفيتي في أوروبا . وتنص الفرضية الاستراتيجية على أن حلف الناتو سوف يواجه تفوقا في الرجال والدروع ،

وسوف يقاتل في عملية انسحاب منظمة بقصد كسب الوقت للوصول إلى حل مقبول عن طريق التفاوض . وسوف تكون التكتيكات حينئذ هي تكتيكات الدفاع النشط والانسحاب المنظم ، وتعطيل قوات حلف وارسو وإيقاع أكبر قدر من الخسائر بها . ويمكن اختصار الشق الجغرافي للتحليل التكتيكي للجيش الأمريكي بالرمز أوكوكا OCOKA الذي يتكوّن من أول حروف الكلمات الخمس مراقبة Observation ، وساتر Cover ، وموانع Obstacles ، ونقاط هيمنة Key Terrain ، وطرق الاقتراب Avenues approach . وتعني المراقبة قيام الجندي بتحديد المنطقة التي يعمل فيها من وجهة نظر الفرص التي تتيحها لكشف العدو واستغلال مرامي النيران . ويعتبر مرمى النيران كل الأرض التي يستطيع السلاح أن يغمرها بنيرانه من مربض محدد . وتعني هذه الازدواجية البحث عن الساتر للوقاية من نيران العدو والاختفاء من مراقبته . ويجب استكشاف الموانع لتجنبها أو لاستغلالها ضد عدو يقترب . وتعني نقاط الهيمنة الأراضي المسيطرة على ما حولها من تضاريس ، كما تعني طرق الاقتراب المحاور التي تؤدي إلى الأرض الحيوية أو إلى الأهداف التعبوية .

وتوجد قواعد ونصائح الاهتمام بخواص الأرض هذه في المذهب الأكثر تحديداً لدى القيادة التكتيكية ذات المستويات الثلاثة لقتال الدبابات والمشاة الآلية : فالمستوى الأولى هو مستوى الفصيلة أو الجماعة حيث يكون التركيز على أعمال الجندي بمفرده . والمستوى الثاني هو مستوى السرية حيث يقاتل قائدها معركته على أساس ما يمكنه مشاهدته . أما المستوى التكتيكي الأساسي فهو قيادة الكتيبة حيث تتم السيطرة على المعركة ووضع مكونات الوحدة في الأماكن الصحيحة من الأرض حسبما ينطبق مع جوهر التدريبات لاكتساب المهارة في قراءة الخرائط .

إن الهدف الرئيسي لتطعيم مستوى الفصيلة هو تعويد الجنود على اتخاذ الساتر ولهذا فهم ينصحون بالبحث عن الستائر الأمامية مع تجنب العلامات الأرضية الشهيرة أو السير على خط الأفق أو إثارة الأتربة . كما أنهم يشجعون

على السير بسرعة في الأراضي المفتوحة مع انتخاب الستائر التي يمكنهم الجري إليها بمجرد أن يهاجموا ، شريطة ألا تحجب نيران التغطية التي يطلقونها . وينبغي بذل عناية خاصة للقيود التي تفرضها الأرض على استعمال الأسلحة . ومن الأمثلة البارزة على ذلك قاذف التاو (المقذوف من الأسطوانة) والموجه بصريا ، والمسيطر عليه بالسلك ، وهو صاروخ ثقيل مضاد للدبابات يستغرق خمس ثوان في قطع ألف ياردة ، كما يحتاج ا من الوقت ، ليتم العامل تحريك السقاطة على الهدف ثم إطلاق الصاروخ . وللاشتباك مع هدف يبعد مسافة ميل يجب على الدبابة أن تبقى معرضة خلال المائة ياردة الأخيرة أو نحو ذلك . فإذا ما أمكنها الاختفاء خلف تل أو مبنى أو مجموعة أشجار فتكون قد اكتسبت الأمان آنذاك . والواقع أن هذا السلاح يبدع في العمل عندما تسمح الأرض بالمراقبة البصرية المستمرة ، أما الغابات والتلال والمدن والغبار فيمكن أن تفقده جدواه . ويستخدم الصاروخ تاو على أفضل وجه في النيران الجانبية من مواقع مخفية وعلى مسافة ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ ياردة ويعتبر مربض النيران على هذه المسافة هوالأنسب للاشتباك مع الدبابات مع بقائه خارج مرمى مدافعها . ومثل هذه التفصيلات توفر خطوط إرشاد تكتيكية واضحة .

ويركز قائد السرية اهتمامه الرئيسي في طرق اقتراب العدو ومكان وجود قواته المساندة. كما يبحث عن الساتر وأماكن السيطرة عندما يحدد مواقع القتال لرجاله وأسلحته ذات النيران المضادة للطائرات البعيدة المدى والعمودية والجانبيةالقصيرة المدى حتى تعطل الموانع حركة العدو عبر ميادين النيران . ومن السهل تحديد ما يؤثر على سير الدبابات ويضطرها للإبطاء . فالدبابات تصادف المتاعب في المنحدرات التي تزيد على ٣٠ درجة والارتفاعات الحادة التي تتجاوز خمسة أقدام والخيران والخنادق التي يزيد عرضها على ١٥ قدماً ، والأنهار والقنوات التي يزيد عرضها على ١٥٠ ياردة وعمق خمسةأقدام ، والسدود الأعمق من ٣ أقدام ، والغابات التي تزيد أقطار أشجارها على ٨ بوصات ، والأشجار الأسمك من ٤ بوصات على منحدر يبلغ ميله ١٠ درجات وجذوع الأشجار الأزيد من ١٨ بوصة في

الارتفاع ، والجليد الذي يزيد عمقه على ٣ أقدام ، والمباني .

وينبغي على قائد مجموعة قتال الكتيبة أن يوجه الأمور خارج مدى الرؤية بالاعتماد على الخرائط بالدرجة الأولى . وبرغم الميل إلى تسجيل كل شيء فإن الجيش الأمريكي لم يوص بانتهاج أسلوب نمطي قياسي لتحليل الأرض على هذا المستوى ، وذلك برغم ورود بعض النصائح في التعميمات التي تشمل أساليب بديلة للتعرف على مواقع المدرعات والمحاور التي يستطيع العدو أن يتحرك عليها ليتجنب الموانع وصولاً إلى أهدافه المحتملة . وتصنف المحاور التبادلية طبقا لمدى احتمال استخدامها ، كما تنشر بينها القوات تبعا لمدى الخطر المحتمل . ويمكن تقييم كل محور ، ونقطة هيمنة ، ونقاط ملاحظة ، وميدان نيران ، وساتر ، ومكان يصلح للإخفاء بغرض نشر قوة النيران المخصصة على أفضل الوجوه .

وبعد هذه المعالجة السطحية لتاريخ التكتيك والمذاهب التكتيكية الراهنة وتطبيقاتها نكون في وضع أفضل لفهم العلاقة بين التكتيك والأرض التي سنتعرض لها في الفصل التالي . فضلا على تهيئة الأساس لفحص الأمور الاستراتيجية فيما بعد .

مراجـــع الفصل الرابع :

يعود القسم التاريخي من هذا الفصل إلى :

LynnMontross War Through the Ages (Harper & Row, New York,1960)
The US Army Field Manuals invoked here are listed in the readings for chapter 2.

يوجد التحليل المنهجي للأرض التكتيكية في :

Lon E.Maggart«An Analytic Approach to Terrain Analysis and Allocation of Combat Power» Military Review, vol. 58,no.4, 1978,PP.34-45
Joseph C.Gross III and Harry B.Beam «Terrain Analysis» Armor,vol.88,no.1,1979,PP. 17-20.
Maggart's efforts found their way into official circulation for offensive tactics as: US Army, Lesson p.312-22, Section II,Analyzing and Developing Avenues of Approach for the Offense (Fort Leavenworth, US Army Command and General Staff College, 1978)

وللتكتيكات الدفاعية يمكن الرجوع إلى :

US Army RB100-9. A Systematic Process for Analyzing Avenues of Approach and Allocating Combat Power for the Active Defense (Fort Leavenworth,US Army Command and General Staff College, 1978)
The Egyptian-Israeli wars are analysed in esays by H.P. Willmott in War in peace (Sir Robert Thompson ed,)referred to at the end of ch. 1

الفصل الخامس

التكتيك وأرض المعركـــــة

TACTICS AND TERRAIN

«التكيّف مع الأرض أشد العوامل تمكينا للنصر»

(صن تزو ـــ الفصل العاشر ، الفقرة ١٧)

كثيرا ما تستخدم مراجع التكتيك وكتب التاريخ العسكري عدة مصطلحات لوصف الأرض التي دارت عليها المعارك أوقام القادة بالتخطيط لها . ومن أبرز هذه المصطلحات التي نادرا ما جرى تعريفها مصطلح الممر **Corridor** ، والشرائح المقاطعة **Cross-compartments** ، والأرض المغلقة **Close terrain** ، والأرض المفتوحة **Open terrain** ، وبيئة القتال العادية مقابل البيئة المفرطة في القسوة . ومن المصطلحات الأخرى التي يكثر استخدامها وإن كانت أكثر وضوحا ، مصطلح الأرض الحيوية **Key terrain** .

وسوف نعالج في هذا الفصل معنى هذه المصطلحات كما أوضحتها الأمثال التاريخية ، كما أننا سوف نشير إلى أهمية مقياس العمليات وطبيعة المتحاربين في معرض تطبيق هذه المعاني . وفي النهاية سوف ننتقل إلى معالجة كيف يمكن أن تتغير طبيعة الجغرافيا العسكرية التكتيكية تغيراً جذريا مع ما يدخل على طبيعة الحرب من تغيرات الممرات والشرائح المقاطعة :

يعني المصطلح «ممر» شريحة من الأرض تصلح لتحرك القوات العسكرية ، بينما يحدها من الجانبين أرض غير مناسبة لمثل هذه التحركات . أما المصطلح «شرائح مقاطعة» فتعني تلك الظواهر الأرضية الخطية التي تعترض اتجاه الحركة المنشود ولا تصلح للتحركات العسكرية . ويلاحظ أن كلا من الممر والشريحة المقاطعة قد تناسب التحرك عبرها وقد تقف عقبة وذلك تبعا للاتجاه العام للعملية المنتظرة .

فقد شكلت التلال الخطية الممتدة من الشمال إلى الجنوب وكذلك جبال الأبالاش الالتوائية أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ممرات مناسبة للتحرك في عمليات الأودية **Valley Campaigns** بفرجينيا الغربية ، بينما شكلت شرائح مقاطعة في عمليات ولايتي تنيسي وجورجيا . لقد صادفت جيوش ستونوول جاكسون **Stgone wall Jackson** عندما شنت هجومها في المراحل المبكرة من هذه الحرب ، وكذلك جيوش فيليب شريدان **Philip Sheridan** في مراحلها المتقدمة في الأودية الجيرية العريضة التي وجدتها مناسبة تماما لنشر قواتها بالحجم والكيفية المستخدمة وقتئذ . وقد عاون اتجاه (شمال ــ جنوب) لهذه الأودية كلا من هجوم جاكسون من الشمال ثم هجوم شريدان من الجنوب ، ولم تجد القوات القائمة بالدفاع حواجز دفاعية قوية يمكن الاستناد إليها عبر هذه الأودية مما جعلها تتورط بسهولة في مناورات قتالية على أرضية الأودية العريضة . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يسهل الالتفاف حول أجناب أي جيش قوي يتخذ وضع الدفاع في أحد الأودية بمجرد انتقال الجيش المهاجم إلى وادٍ آخر لا تعترضه دفاعات قوية . وقد تسبب هذا في بعثرة القوات المدافعة في محاولتها قفل كل الأودية والممرات في وجه القوات المهاجمة .

أما الأرض المشابهة في جنوب الأبالاش فقد شكّلت شرائح مقاطعة في وجه تقدم قوات الاتحاد تحت قيادة روزكرينز **Rosecranes** وشيرمان **Sherman** لمهاجمة القوات الكونفدرالية التي كان يقودها كل من براج **Bragg** ثم جونسون **J.E.Johnson** على التوالي . وكانت الجيوش الفيدرالية تتقدم من الغرب نحو الشرق على زوايا قائمة من الاتجاه العام للجبال والأودية التي تمتد من الشمال إلى الجنوب . وقد احتلت جيوش الجنوب ممر السكة الحديد لتجبر جيش الشمال على شن هجوم أمامي ضد قمة التل المدافع عنها جيداً بالقوات الكونفدرالية أو ترك خط السكة الحديدية الذي يشكل شريان مواصلاته اللوجستيكية والقيام بحركة التفاف طويلة في اتجاه الشمال أو الجنوب لعبور ممر يخلو من الدفاعات . ولو أن القوات الكونفدرالية اكتشفت تحركات الجيوش الفيدرالية في الوقت المناسب فإنه كان بمقدورها أن تغيّر من خططها وتحركاتها

لكي تدافع عن الممر الذي اتجهت إليه قوات الشماليين . أما وقد غفلت عن اكتشاف حركة القوات الفيدرالية في الوقت المناسب فقد أصبح بإمكان القوات المتمردة أن تتحول ببساطة إلى ممر السكة الحديدية التالي ، أو النفق الذي يخترق السلسلة الجبلية . ولما كانت جيوش الاتحاد غير حريصة على تجنب العمل لفترات طويلة بعيداً عن خط السكة الحديدية الذي يشكل شريان إمداداتها الحيوية فلم يعد أمامها إلّا أن تقتحم دفاعات الجنوبيين ، أو أن تلتف حول جناحها الجنوبي في مسيرة عريضة .

وعلى نقيض معارك المناورات السريعة في عمليات الأودية ، فقد كانت الحرب في الأبالاش الجنوبية عبارة عن سلسلة من الهجمات الدامية على مواقع قوية ، أو مناورات التطويق غير الحاسمة . وعلى حين كانت الجيوش وطبيعة الأرض متشابهتين فإن هذه الجيوش كانت تقطع فرجينيا الغربية في اتجاه الشمال والجنوب على امتداد ممرات الأودية العريضة ، بينما كانت تسير من الغرب إلى الشرق عبر الشرائح المقاطعة لتلال وأودية ولايتي تنيسي وجورجيا .

وقد شكلت الأنهار والجداول التي تنساب نحو الشرق في فرجينيا الشمالية مجموعة أخرى من الظواهر الطبوغرافية التي شكلت ممرات وشرائح مقاطعة في الأرض المكسوة بالحشائش الكثيفة التي دارت عليها الحرب الأهلية . فتحركات جيش البوتوماك نحو الجنوب على امتداد الطريق الذي يربط بين واشنطن وريتشموند كان يعترضها جيش فرجينيا الشمالية مما أدى إلى اشتعال المعارك كلما حاولت قوات الاتحاد عبور أي نهر أو جدول ماء . ولعل أبلغ الأمثلة على تلك المعارك معركة بل رن **Bull Run** حيث تمكن الكونفدراليون من منع قوات الاتحاديين من اجتياز جدول الماء المعروف باسم بل رن ، وكذلك معركة فريدركسبورغ **Fredericksburg** الداميةحيث تمركز الجنرال لي **Lee** في مكان حيوي على ضفة نهر راباهانوك **Rappahannoch** أمام نقطة عبور برنسايد **Burnside** على ذلك النهر . إن هذه الظواهر المتعلقة بنظام التصريف النهري شكلت ممراً سهلا لمكيلان **McClellan** عندما حاول الوصول إلى ريتشموند بإبرار جيش البوتوماك عند بلدة يورك تاون ثم الزحف غرباً بين نهري رابانوك وجيمس اللذين وفرا

الحماية لأجناب مكليلان وهو يتقدم حثيثاً صوب ريتشموند . وقد انتهت معركة ريتشموند هذه التي دارت رحاها سنة ١٨٦٢م على مسافة ١٠ أميال من بلدة ريتشموند بالقتال اليائس حول فير اوكس Fair Oaks وميكانيكسفيل Mechanicsville .

ومع أن الممرات والشرائح المقاطعة عادة ما تعتبر أشكالاً أرضية أو ظواهر تصريف المياه فإن حقول المزروعات قد تشكل نفس الظاهرة . ولقد صادف الهجوم الألماني عبر سهل شمال أوروبا صوب موسكو في عملية «باربروسا» في أثناء الحرب العالمية الثانية الكثير من الشرائح المقاطعة في صورة غابات كثيفة . وتميل مناطق الغابات في هذا الجزء من الاتحاد السوفيتي إلى الانتظام في أشرطة تمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الأنهار والمناطق سيئة التصريف المائي . أما السهوب الأكثر ارتفاعا والأفضل بالنسبة لتصريف المياه ، تلك التي تقع بين أحزمة الغابات سالفة الذكر فقد كانت في الأغلب أراضي زراعية مفتوحة . وكثيرا ما أخذت عملية تقدم الجيش الألماني نحو الشرق صورة الاندفاع السريع عبر الأحزمة المفتوحة ، تتبعها القوات الآلية والراكبة العربات في وجه مقاومة أعنف وبمعدل تقدم أبطأ خلال الطرق الضيقة التي تشق أحزمة الغابات سالفة الذكر . وقد شكلت مستنقعات بريبيت الواقعة بين جناحي التقدم النازي الشمالي والجنوبي شكل الممر المحفوف بالغابات لوحدات الفرسان السوفيتية . وبعد أن أزاحتها القوات الآلية الألمانية بعيداً عن السهول المفتوحة وجد فرسان سلاح السهوب القديم دوراً جديدا لهم كقوة ضاربة خفيفة الحركة داخل الغابات التي تفتقر إلى الطرق . وكان أن تمكنت فرق الفرسان السوفيتية داخل غابات البريبيت من الشرق إلى الغرب وهي على صهوة جيادها أن تكيل الضربات لأجنحة الجيوش الألمانية ومؤخرتها .

الأراضي المغلقة والأراضي المفتوحة :

عادة ما يشير القتال في الأراضي المغلقة إلى الاشتباكات التي تحدث في المناطق المبنية وفي الغابات وذلك على النقيض من الحقول والسهول المعشبة

التي تعتبر أرضاً مفتوحة . وتعتبر الأرض المفتوحة من وجهة نظر الجيوش الحديثة الحالة العادية ، بينما يعتبر القتال داخل المدن والغابات حالة خاصة . وتصنف الأرض إلى مغلقة ومفتوحة طبقا لمدى الاشتباك المحتمل للقوات المتضادة . فالمقاتلون يميلون إلى محاربة بعضهم من مسافة قريبة داخل الأرض المقفولة وليس المفتوحة . وتختلف معدلات الخسائر ومعدلات التقدم ودرجة السيطرة على الوحدات المرؤوسة باختلاف نوعية الأرض من حيث هي أرض مفتوحة أو هي أرض مغلقة . وقد زادت المسافة المؤثرة لأسلحة الضرب المباشر الحديثة عن مسافة الاشتباك داخل المدن والغابات زيادة كبيرة . وعادة ما يترتب على النيران الكثيفة التي تطلق من مسافات قريبة زيادة في معدلات الخسائر عنها في حالة الاشتباك في الأرض المفتوحة .

وتميل معدلات التقدم إلى البطء في داخل المدن والغابات عنها في السهول المفتوحة ، وينطبق ذلك على الوحدات الآلية الحديثة بصورة خاصة . فقد انطلق الألمان عبر الأراضي المفتوحة في عمليات الحرب العالمية الثانية بينما قلت سرعة اندفاعهم داخل الغابات التي اعترضتهم في مسارح روسيا الأوروبية . وقام الجنرال باتون Patton بطي أراضي شمال فرنسا بفرقه المدرعة التي شكلت الجيش الثالث بعد أن حقق الاختراق من نورماندي ، وكلما سمح موقفه اللوجستيكي بمواصلة التقدم عبر الغابات والأراضي المغطاة بالغابات في مقاطعة اللورين كان المعدل أبطأ وزاد طلب قادة الفيالق على المشاة للمعاونة في تطهير الغابات من المقاومات الألمانية . وبالمثل فقد طلب الجنرالات الألمان القائمون بالدفاع المزيد من المشاة لممارسة قتال الغابات في اللورين .

وتحرص القوات الآلية على أن تتجنب المناطق السكنية بقدر الإمكان حتى لا يتسبب مرورها داخل المدن في إجهادها وإبطاء حركتها . لقد انطلق فون باولوسPaulus بجيشه السادس عبر سهوب أوكرانيا عام ١٩٤٢م حتى اصطدم بمدينة ستالينجراد التي طحنت قواته بصمود أحيائها السكنية ، كما زحف زوكوف Zhukov بالجيش الأحمر من وارسو حتى نهر نيس ــ الأودر في شهر يناير ١٩٤٥م ضد فلول الألمان . ولكن معركة برلين نفسها استغرقت

منه المدة من ١٦ أبريل حتى ٨ مايو كما كلفت السوفيت من الخسائر ٣٠٠ ألف مقاتل .

إن غالبية الجيوش تفضل خوض المعارك في الأرض المفتوحة حيث يمكنها السيطرة على القوات المرؤوسة وممارسة معارك المناورة . أما المعارك التي تدور في الأراضي المغلقة مثل الغابات فإنها تتدهور حتى تصبح معارك بين الجنود وتفقد الرئاسات العليا السيطرة خلالها على القتال وتطحن الوحدات الصغرى بعضها بعضاً في قتال متلاحم . ولقد تحولت عدة معارك في الحرب الأهلية الأمريكية إلى قتال دموي بين الجنود بسبب الغابات التي كانت تفصل بين الوحدات وتتسبب في القتال المتلاحم على العديد من أراضي المعارك . ولقد دارت بين الجيوش الأنجلوسكسونية بقيادة روزكرينز وقوات الثوار بقيادة براج واحدة من أكبر المعارك التي اشتعلت بين الجيوش الأنجلوسكسونية (أكثر من ١٠٠ ألف مقاتل) وذلك في أثناء اقترابها من بعضها عبر وادي سيكاموجا في غرب ولاية تنيسي خلال شهر سبتمبر ١٨٦٣م . وقد فقد كل من الطرفين نحو ٤٠٪ من قوة المشاة في هذا الاشتباك المشوب بالفوضى ، كما أجبر نصف الجيش الاتحادي على الانسحاب من المسرح ، غير أن انتصار براج برهن على أنه غير حاسم ، لعجزه عن فرض السيطرة على قواته بالقدر الكافي لمطاردة وتدمير جيش روزكرينز الذي تمت هزيمته في تنيسي . ولا تحد الغابات والمناطق الحضرية من مدى البصر والاتصالات بالمراسلات بل إن اتصالات الجيوش الحديثة باللاسلكي تفقد الكثير من تأثيرها . ونتيجة لهذه الصعوبة في الاتصالات وما يعانيه القادة من حد ميدان النظر ومراقبة أرض المعركة تضمحل قدرتهم على فرض السيطرة كما يضطر الجنود إلى خوض القتال في الأرض المغلقة .

القتال تحت أشق ظروف البيئة :

عادة ما تعتبر الجيوش الأوربية والأمريكية أن القتال تحت الظروف البيئية الطبيعية هو الذي يدور فوق أراضي السهول والتلال في الطقس المعتدل . أما

الجبال والصحارى والمناطق القطبية فإنها في العادة تعتبر ظروفاً بيئية قاسية تحتاج إلى وحدات وتدريبات وتكتيكات متخصصة . ومع أن بعض الجيوش تعتبر الأدغال نوعاً من البيئة القاسية فإن الآثار التكتيكية وليس اللوجستيكية للحرب في هذه الأدغال تماثل تقريبا الحرب في الغابات .

وعادة ما تحد المنحدرات الشديدة من تحرك العربات داخل الغابات ـــ حتى المجنزرة منها ـــ وتقصرها على القليل من الطرق الممهدة . كما تجعل من تقدم القوات سيراً على الأقدام عملية بطيئة وشاقة . لقد أتاحت طرقات التقدم الضيقة وصعوبة نشر القوات في المناطق الجبلية للقوات الصغيرة الحجم فرصة الدفاع أو تعطيل قوات أكبر منها كثيرا . فقد نجح ليونيداس **Leonidas** وقواته الإسبارطية في قفل الطريق في وجه أحشويرش **Xerxes** وجيشه الفارسي في ترموبيلاى عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، ولا يزال هذا المثل الموغل في القدم يدور على الألسنة . كما أن عصابات الفدائيين اليوغسلافيين القليلة العدد أمكنها في المراحل الختامية من الحرب العالمية الثانية أن تعطل انسحاب القوات الألمانية والإيطالية عبر جبال الألب الدينارية . ولا تستطيع القوات الأكبر حجما أن تتغلب على المواقع التي أحسن انتخابها داخل الممرات الضيقة ، حتى ولو اعتمدت على تفوقها العددي .

لقد كانت الجبال ملاجيء تقليدية للقوات المسلحة الخفيفة التي تتصدى لخصم يملك أسلحة ثقيلة . فجنود فرق المشاة السويسرية غير المدرعة تمكنوا من داخل أراضيهم الجبلية أن يلحقوا الهزيمة النكراء بفرسان النمسا الثقيلي التدريع . كما أن المجاهدين الأفغان يجبرون الجيش السوفيتي الآلي الثقيل اليوم على النزول من عرباته المدرعة واتخاذ تكتيك المشاة المترجلين . وعلى كل حال فإن جبال هندكوش لا تعتبر أرضاً صالحة لقتال الدبابات . وكما كانت مشكلة فرسان العصور الوسطى في سويسرا هي خفة الحركة فإن الجيش الأحمر يعاني في أفغانستان من هذه المشكلة . ففيما عدا الطرق والأودية المنبسطة ، فإن المناطق الجبلية لا يمكن عبورها إلا بواسطة قوات المشاة الخفيفة .

وقد تغير الحوامات من طبيعة الحروب الجبلية وإن كانت الخبرة المتوفرة عنها مازالت ضحلة . لقد استخدم السوريون الحوامات لتحرير جبل حرمون من قبضة الاسرائيليين عام ١٩٧٣م ، كما يزداد اعتماد السوفيت عليها في المسرح الأفغاني. ولم يكن أمام أي جيش يزحف صوب عدو يحتل ممراً جبليا سوى خيارين اثنين ، فإما أن يبحث له عن ممر آخر وإما أن يشن عليه هجوما أماميا . أما الجيوش الحديثة المزودة بالحوامات فتستطيع أن تطير فوق هذه المواقع التي تسد طريقها . ولا تزال نتائج ما يسميه مشاة الأسطول الأمريكي بالاقتحام الجوي الرأسي في الحروب الجبلية موضع النظر والدراسة وليس التحليل التاريخي .

وينظر إلى الصحراء كأنها بحار مفتوحة تستطيع القوات الآلية أن تقاتل فيها مثل السفن التي تناور بلا قيود ، وفي كل الاتجاهات . ويكشف تاريخ عمليات الحرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا وكذلك الحروب العربية الصهيونية في سيناء والجولان عن صورة مختلفة تماماً .

إنه من النادر أن تسمح الصحراء بالتحركات غير المحدودة خارج الطرق . وإلى جانب ما يوجد فيها من رمال ناعمة فإن الاختلافات المفاجئة في الانحدار تحد من صلاحيتها للسير . ويترتب على عملية انجراف التربة في الصحراء زيادة حدة انحدار وزوايا حافات التلال عنها في المناطق الأكثر رطوبة . وتشكل الضفاف الحادة الأجناب وجوانب الأودية موانع تحد من السير عبر الأراضي وتحصره في ممرات ومسالك محدودة . ولقد كان الجيش البريطاني والجيش الألماني الإيطالي قادرين على انتخاب المواقع الدفاعية المناسبة في شمال أفريقيا خلال الأربعينيات . وكانت العمليات ذات المرونة العالية في هذا المسرح أنسب لوظيفة الجيوش الصغيرة التي تشتبك في المعارك فوق الأراضي الواسعة برغم ما كانت تصادفه من صعوبة الحركة . ولقد ترتب على طبيعة أرض مرتفعات الجولان البازلتية ذات الحواف الحادة ، وأرض سيناء الجبلية أن اقتصرت التحركات ذات المقياس الكبير على الطرق والمدقات والمسالك المتوفرة فيها ، على الرغم من ا لمساحات الواسعة في شبه جزيرة سيناء

بالمقارنة بحجم الجيوش المتصارعة فيها . فقد اتجهت المعارك التي دارت فيها عام ١٩٥٦م ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣م إلى السيطرة على عقد المواصلات والممرات . وبالإضافة إلى القيود التي تفرضها طبيعة سطح الأرض على التحركات فإن ندرة المزروعات كانت ذات تأثير واضح على المراقبة والإخفاء . إن تحرك العربات في الصحراء يثير سحباً كثيفة من الغبار ، ولا تحد الأشجار والشجيرات والمحاصيل الزراعية من مدى النظر والنيران . وقد اشتبكت الدبابات العربية والصهيونية مع بعضها ودمرت الواحدة منها الأخرى في حرب عام ١٩٧٣م على مسافات زادت على ٢٥٠٠ ياردة . ويعتبر اشتباك الدبابات صعبا على مثل هذه المسافة من الأرض العادية المليئة بالغابات مثل أراضي غرب أوروبا .

وعادة ما تعالج الحرب في المناطق القطبية على اعتبار أنها شديدة القسوة بالنسبة لمشاكلها اللوجستيكية الناجمة عن برودة الجو . ولكن هذه المناطق القطبية تتميز أيضا بظواهرها التكتيكية الفريدة . فالأوحال التي تبرز نتيجة تقليب التربة الموجودة تحت طبقة الجليد تجعل من التحركات خارج الطرق في موسم الصيف غير ممكنة في أكثر من مكان . كما تتجمد مجاري المياه في موسم الشتاء بما يسمح بقدر أفضل من المناورة ، ولهذا فقد حرص الاتحاد السوفيتي على غزو فنلندة خلال شهر ديسمبر ١٩٣٩م ليبدأ حرب الشتاء . وقد يحد الجليد السميك من الحركة خارج الطرق خلال أشهر الشتاء القطبي ، إذ أجبر هذا الجليد القوات الراكبة السوفيتية أن تلتزم بالسير على الطرق المعبدة فقط . والواقع أن قوات المشاة الفنلندية الخفيفة المدافعة كانت أكثر مرونة من القوات السوفيتية الراكبة عند العمل داخل الغابات المغطاة بالثلوج ، إذ أمكن للفنلنديين تجزئة وهزيمة القوات السوفيتية . ولا يتوفر في المناطق القطبية سوى القليل من الطرق التي تفصل بينها مساحات شاسعة الأمر الذي يحد بشدة من حركة القوات الآلية عندما تجبرها الأوحال أو الثلوج على الالتزام بالطرق . وعلى غرار ما حدث في الأراضي الجبلية فإن التقنية الحديثة جدا قد تزيد من خفة الحركة في المناطق القطبية بعدة طرق مازالت في مرحلة التوقع

فقط . وقد تثبت الحوامة أنها من وجهة نظر خفة الحركة في المناطق الجليدية أفضل من قوات المشاة الخفيفة المزودة بالزحافات ، وإن كانت لا تعتبر جزءاً من المذهب العادي لحلف شمال الأطلسي أو حلف وارسو بجيوشهما المدرعة .

الأرض الحيوية :

عادة ما تعرّف الأرض الحيوية بأنها معْلَم أو ظاهرة في أرض المعركة توفر للقوة العسكرية التي تسيطر عليها ميزة واضحة على القوة العسكرية المضادة لها . ومن الواضح أن الأرض الحيوية تختلف باختلاف طبيعة أرض المعركة ، وحجم وطبيعة القوات المتحاربة ، ومستوى ومهام القادة المتضادين . وقد لا تكون الأرض الحيوية في أرض المعركة من وجهة نظر أحد الأطراف هي نفس قطعة الأرض بالنسبة للطرف الآخر .

إن قمم التلال التي تقع في وسط أراضي فيتنام المرتفعة تتميز بأنها مفتوحة عادة ومكسوة بالحشائش بينما تغطى الشجيرات السفوح الحادة للتلال . وقد تجنب الفيت كونغ خلال حقبتي الستينيات والسبعينيات تلك القمم التلّية المفتوحة خشية التفوق الجوي الأمريكي ولذلك عمدوا إلى إقامة معسكراتهم وتحصيناتهم فوق الجوانب المكسوة بالشجيرات لتلك التلال حيث يسهل إخفاؤها عن المراقبة الجوية . ولقد كانت الوحدات الجوية الخفيفة الحركة ووحدات فرسان الجو تحتاج إلى قمم التلال المفتوحة لتهبط فوقها الحوامات .

وعوضاً عن شن الهجوم التقليدي من السفح إلى القمة حيث يربض المدافعون عندها بينما يحاول المهاجمون الاستيلاء عليها فقد صارت المعارك تبدأ عادة بهبوط الحوامات فوق قمة تل واقتحام فرسان الجو والقوات الأمريكية من هذه القمة إلى أسفل للاستيلاء على معسكر الفيت كونغ الموجود في الجانب المكسو بالشجيرات من التل . لقد كان هذا الجانب المكسو بالشجيرات بما يوفره من فرص التمويه والإخفاء الجيدة هو الأرض الحيوية من وجهة نظر الفيت كونغ ، بينما كانت القوات الجوية الخفيفة الحركة تعتبر قمم التلال المفتوحة التي تصلح

لهبوط حواماتها هي الأرض الحيوية .

وبالنسبة للجيوش المعاصرة فإن الأرض الحيوية للفرقة وما تحتها هي الأرض المرتفعة التي توجد عادة داخل نطاق المعركة . فهذه الأرض المسيطرة تسمح لمن يحتلها بالمراقبة وميادين النيران اللتين توفران ميزة تكتيكية واضحة على القوات المضادة . ولكن ما يعتبر أرضا مرتفعة يختلف باختلاف مدى الأسلحة المستخدمة ، فقد أوقع هانيبال الرومان في كمين عند تراسيمين برغم أن ميول تلالها لم تكن أعلى مما تستطيع حرابهم أن تصل إليه أو سهامهم أن تصيبه بدقة . وفي الحرب الأهلية الأمريكية لم يكن مدى نيران المدفعية والبنادق يتجاوز الأربعمائة ياردة (كانت المدافع تستطيع ضرب قذائفها لمسافة أطول إلا أنها لم تكن تقتل العدو إلا على مسافة ٤٠٠ يادردة فأقل) .

إن سيمتري ردج في غيتسبرج **Cemetery Ridge at Gettysburg** لا تعدو أن تكون مرتفعا تغمطه أعين جنود اليوم ولكنها كانت عام ١٨٦٣م مربضاً مثالياً للمدافع والبنادق بوضعها المتحكم قليلا فوق مستوى الوادي الكبير في مرتفعات جبال الأبالاش العظيمة . كما أن الأرض الحيوية في معركة شيكاماجوا كانت تل سنودجراس حيث دار القتال الدموي وذلك رغم أن هذا التل لم يكن إلا تبّة صغيرة عند سفح تل أكبر . والواقع أن تل سنودجراس لا يجذب العين ، كما أنه غير مُوقّع على الخرائط ذات مقياس الرسم ١ : ٦٢٥٠٠ لهذا القسم من الأبالاش . ومع ذلك فقد كان سنودجراس تلاً مثاليا للمدافع عام ١٨٦٣م لإشرافه على الوادي الواقع إلى الشرق منه . أما التلال الأعلى منه فقد كانت شديدة الارتفاع من وجهة نظر نيران أسلحة القرن التاسع عشر .

ومع الزيادة المطردة في مدى المدفعية خلال الحرب العالمية الثانية أصبح في استطاعة المراقب فوق قمة التل أن يطلب النيران غير المباشرة ضد أغلب ما يقع عليه نظره من أهداف كبيرة للمدفعية ذات المدى الطويل ، ليس لكونها أفضل كمربض للنيران ، بل كنقطة للملاحظة . واليوم وقد أصبحت مدافع الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات قادرة على إصابة الأهداف وتدميرها من مسافة ميل أو أكثر فقد زادت أهمية الأرض المسيطرة مرة أخرى كنقطة

للملاحظة وتوجيه النيران المباشرة . ويقول قانون خدمة الميدان الأمريكي (FM 100-5) في معرض الحديث عن طريقة القتال أن الأسلحة الحديثة صارت بالغةالدقة طويلة المدى عظيمة القدرة على التدمير حتى أصبح كل ما يمكن رؤيته في أرض المعركة عرضة للاشتباك معه ، كما أصبح كل ما يمكن الاشتباك معه عرضة للتدمير .

وبالنسبة للمستويات الأعلى من الفرق فإن خطوط المواصلات لا الأرض المرتفعة ، تعتبر الأرض الحيوية ، فقادة الفيالق وما فوقهم يهتمون بالدرجة الأولى بتحريك الوحدات الكبيرة تكتيكيا داخل مناطق عملياتهم . ولهذا فهم يعتبرون شبكات الطرق والسكك الحديدية بالغة الأهمية بالنسبة لأنشطة قواتهم ، وينظرون إلى عقد المواصلات الرئيسية كأرض حيوية ، غالبا ما تكون هي المدن .

وقد تكون الأرض الحيوية في البيئة القاسية هي أماكن الملاجيء ، فالواحات في الصحارى ظلت الأرض الحيوية لكل من الجيوش القديمة والحديثة . وفي شتاء عام ١٩٤١ ــ ١٩٤٢م البالغ القسوة تصارعت الوحدات الألمانية والسوفيتية الصغيرة صراعاً ضارياً فوق أراضي شمال روسيا للسيطرة على القرى والدساكر . لأن تمضية ليلة واحدة من الشتاء في هذه السهول المفتوحة كانت تكفي لتجمد كل أفراد الوحدة ووفاتهم .

ولقد تجبر ميادين المعارك في المستقبل القادة على البحث عن المناطق التي توفر الاستتار والاختفاء كأراضٍ حيوية يدرأون بها كثافة النيران البعيدة المدى ، والأسلحة البالغة الدقة الشديدة التدمير . وينص المذهب العسكري الأمريكي على استخدام قوة المشاة الخفيفة لاحتلال الأرض التي لا تصلح للدبابات عند الدفاع ضد القوات الآلية مثل القرى والغابات الكثيفة والتضاريس الحادة وأية هيئات أخرى تستطيع أن تحد بشدة من خط بصر عربات القتال المدرعة ومن مدى اشتباكها وخفة حركتها . أما مذهب الناتو لاستخدام الحوامات في شن الحرب فينص على استغلالها في الانقضاض على الأرض بأن تحلق هذه الحوامات قريبا من سطح الأرض وتحت خط التلال

والجسور المرتفعة وقمم أشجار الغابات المجاورة . وتعتبر هذه التدابير ضرورية لبقاء الحوامات وسلامتها في أرض المعركة في مواجهة أجهزة الرادار العصرية ، والمدافع والصواريخ المضادة للطائرات . وقد تضطر القوات الآلية أيضا إلى الاختفاء والاستتار بأسبقية عالية لتسلم وتبقى عاملة في أرض معارك المستقبل .

الجغرافيا العسكرية المتغيرة لحوض اللورين :

يشكل حوض اللورين في شمال شرقي فرنسا ممراً بين حوض باريس ووادي الراين . ويحده من الجنوب جبال الفوج ومرتفعات هونسروك الوعرة . وقد كان المسلك الأكثر استخداما بين شمال فرنسا ووسط ألمانيا . وقد وجدت فرق قيصر حصونا كلتّيه قديمة في اللورين عندما زحفت شرقا لاخضاع القبائل الجرمانية في وادي الراين ، كما حاربت منذ ذلك الوقت عدة جيوش للاستيلاء على اللورين . ولسوف يركز الاهتمام لأغراض الحاضر حول التغيرات التي دخلت على تكتيك الجغرافيا العسكرية لهذا الإقليم خلال الحملات الثلاث الرئيسية التي دارت على أديمه ، ونعني بها المرحلة الافتتاحية من الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠م ، ومعركة التخوم عام ١٩١٤م ، ثم حملة باتون عبر اللورين عام ١٩٤٤م . ثم نختم ببعض التصورات عن تكتيكات أية حروب قد تشتعل فوق هذه الأرض في حقبة الثمانينيات الحالية .

إن الوجه الجغرافي لحوض اللورين ، بتلاله ومناخه وغطائه النباتي والقرى المنتشرة فيه لم ينل إلا أقل التغيير على مدى ثلاثة أرباع قرن في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٨٧٠ ، ١٩٤٤م رغم أن هذه المدة كانت مشحونة بالتغيرات في التقنية العسكرية . وعلاوة على ذلك فقد اختلفت الأهمية الاستراتيجية لحوض اللورين اختلافا بيناً من حرب إلى حرب وتغيرت طبيعة الإقليم في الفترة المشار إليها سلفا من وجهة نظر الجغرافيا العسكرية طبقا لتغير الجيوش المتصارعة فيه ، واستراتيجيتها وأهدافها .

فالطبوغرافيا المجزأة لحوض اللورين تتكون من سهول متتالية ونجود تتدرج

من ثنيات منعزلة حتى تلال عالية تمتد من الشمال إلى الجنوب تعترض طرق غزو الجيوش من الشرق إلى الغرب . ويتراوح فرق الارتفاع بين النجود والمنخفضات بين ٣٠٠ ، ٦٠٠ قدم . وللنجود قمم منبسطة تحف بها عادة منحدرات ذات ميول لطيفة ، وبخاصة عند أجنابها المتجهة ناحية الشرق .

وكثيرا ما تقطع هذه المنحدرات الأخاديد والخيران ، بينما تكسو الغابات ربع أو ثلث الإقليم ، وتنقسم المناطق المكسوة بالأشجار بالتساوي بين النجود والمنخفضات ، وهي تميل إلى الظهور كتجمعات أشجار بأحجام مختلفة وليس كأحزمة متصلة من الغابات . إن العمل بالغابات قد مارسه الإنسان هنا منذ زمن بعيد ، وإن الأراضي خلال هذه الفترة كانت مجردة من النباتات الصغيرة . وتتميز بوجود فارق كبير في المظهر بين الحقول والغابات . ولم تبدأ أي من الحملات الثلاث سالفة الذكر إلا في أغسطس أو سبتمبر عندما تكون المحاصيل قد تم حصدها والأعلاف قد تم قطعها . وفيما عدا مزارع الكروم التي تعتبر موانع بسيطة بالقرب من وادي الراين والموزيل فإن المزروعات الوحيدة ذات القيمة العسكرية توجد بين الغابات والمناطق المفتوحة . وتتكون قرى اللورين من مبان حجرية في الأغلب ، وتعتبر هذه القرى والغابات مصادر تبادلية للاستتار والاختفاء في أثناء الحملات الحربية .

المرحلة الافتتاحية للحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠م :

كان حوض اللورين أرض المعارك الحاسمة في الحرب الفرنسية البروسية . ففي سلسلة من قتال التلاقي أمكن للجيوش البروسية وحلفائها من الألمان إزاحة الجيوش الفرنسية عن مواقعها وفرض الحصار على مدينة ميتز وهزيمة الفرنسيين في سيدان ثم الإطباق على العاصمة باريس ومحاصرتها . وبمجرد نشوب القتال حشد الطرفان المتضادان جيوشهما بين نهري الراين والموزيل على امتداد الجبهة الشمالية الشرقية الفرنسية . وكانت البنادق الفرنسية أفضل من الألمانية ، بينما كانت مدافع الألمان تتفوق في النوعية على الفرنسيين . أما

الاختلاف الجوهري فقد انحصر في التنظيم البروسي المتفوق . لقد تجمع الفرنسيون في فرق وفيالق وليس في جيوش ، كما كانت تنقصهم الخبرة بالمناورات ذات المقياس الكبير . وبالمقابل كان البروسيون وحلفاؤهم يتشكلون في تنظيمات كبرى من الجيوش التي سبق لها التدريب على المناورات الكبرى في وقت السلم . ولقد ظهر التفوق في التنظيم البروسي من واقع أغلب الاشتباكات التي دارت بين الجانبين كما أتاحت السيطرة البروسية الحازمة على قواتها سرعة حشدها للمعركة .

لقد خطط الفرنسيون في بادىء الأمر لاتخاذ وضع الدفاع مع تركيز قواتهم النظامية الرئيسية حول ميتز وسترا سبورغ بينما عبأوا احتياطياتهم في شالون . ولكن نابليون الثالث أمر بتغيير هذه الخطة ليغزو جنوب المانيا بأسرع ما يمكن قاصدا إخراجها من الحرب ، فضلا على حث النمسا على الانضمام إلى جانبه في مواجهة بروسيا . ومع ذلك فقد ظلت خطط التعبئة الدفاعية المبدئية سارية المفعول عندما اشتعل القتال إذ احتشد الفرنسيون عند ميتز تحت قيادة المارشال بازين **Marshall Bazaine** وعند ستراسبورغ تحت قيادة الماريشال ماكماهون **Marshall McMahon** . وهكذا أهدرت خطة غزو المانيا بسبق الألمان إلى غزو اللورين قبل أن يتم الفرنسيون التعبئة (شكل رقم ١) .

أما البروسيون وحلفاؤهم فقد أتموا التعبئة في ثلاثة جيوش حشدوها بين بلدة ترير ونهر الراين على امتداد التخوم الفرنسية الشمالية الشرقية . وكان فون مولتكه رئيس الأركان البروسي يرغب في تحطيم الجيش الفرنسي بعملية زحف سريعة نحو الجنوب ، يبدأ بها القتال . وما أن انتهت عملية التعبئة الألمانية في اليوم الثاني من شهر أغسطس ١٨٧٠م حتى اندفعت الجيوش البروسية للزحف على فرنسا ، فقام الجيش الألماني الثاني الشديد البأس بتثبيت الفرنسيين في وسط الجبهة ، بينما واصل الجيش الأول الأقل حجما زحفه على

امتداد نهر الموزيل . وأما الجيش الثالث فقد سار نحو ستراسبورغ ، وهكذا أصبح سقوط جناحي الفرنسيين أمراً متوقعا .

وفي اليوم الرابع من أغسطس نجح الجيش الثالث في زحزحة فرقة فرنسية عن بلدة ويسمبورغ الواقعة على الحدود ثم واصل التقدم غربا على امتداد سواربك بعد أن أفرز فيلقا كاملا لمراقبة غابة هاجينو الواقعة على جانبه الأيسر . ولما تعرضت قوات مكماهون سعيا وراء العلائق (إذ كان نظام الإمداد الفرنسي يتدهور عندئذ) أصدر المارشال أوامره إلى قواته المبعثرة لتتجمع عند مرتفعات فروسكويلر إلى الغرب مباشرة من مدينة وورث بغرض قفل الطريق في وجه الجيش الثالث الألماني . إلا أن الألمان نجحوا في السادس من أغسطس في الإطباق على وورث . ومع أن القيادة الألمانية لم تقصد أن تشن هجوما أماميا على هذه المواقع الفرنسية القوية فإن الطلائع البافارية والبروسية قامت بالهجوم يتبعها باقي الجيش الثالث ومدفعيته . وقد أنزلت نيران البنادق الفرنسية خسائر جسيمة في القوات الألمانية الزاحفة على المنحدرات المفتوحة فوق بلدة وورث . ومع ذلك فقد استمرت قوات المشاة البروسية تتوغل داخل غابة صغيرة على الجانب الأيمن للفرنسيين ، مما عرّض جناح ماكماهون الجنوبي للخطر . وعندما شن الفرسان الفرنسيون هجومهم المضاد على تلك الغابة تعطلت قواتهم بفعل الأشجار والأرض الوعرة ، كما مزقتهم نيران البنادق البروسية شر ممزق . وهكذا اضطر ماكماهون إلى الارتداد قبل مغرب اليوم السادس من أغسطس .

وفي اليوم نفسه فشل الجيشان الأول والثاني في اقتحام مواقع الفيالق الفرنسية المتمركزة على المنحدرات فوق مرتفعات سبيكرين بالقرب من فورباخ . وخلال تلك الليلة انسحب الفرنسيون خشية تعرض مجنباتهم للتطويق واتجهوا نحو ميتز . وبعد الوصول إلى بلدة وورث انسحبت قوات مكماهون عبر الفوج في اتجاه شالون ، بعيدا عن قوات بازان المتمركزة في ميتز . ومع أن معارك السادس من أغسطس اتصفت بعدم الحسم تكتيكيا فقد كانت القوتان الفرنسيتان الرئيستان تنسحب كل منهما عن الأخرى بعيدا . وبعد أن تعذر

على فون مولتكه اغتنام فرصة سحق الجيش الفرنسي قرب الحدود تمكن من استغلال الأوضاع الفرنسية الشاذة ليحول جيوشه إلى اتجاه الغرب .

وراح الجيش الثالث يطارد قوات ماكماهون بعد محاصرة مدينة ستراسبورغ بفرقة واحدة . وقد اندفع نحو لونفيل ونانسي دون أن يصادف مقاومة تذكر . أما الجيش الأول والثاني فقد تحولا نحو ميتز . وبينما كان الجيش الأول يخوض يوم ١٤ أغسطس معركة غير حاسمة شرق هذه المدينة ، عبر الجيش الثاني نهر الموزيل جنوب ميتز يوم ١٥ أغسطس . ولما حاول الفرنسيون الارتداد عن ميتز يوم ١٦ أغسطس وجدوا الطريق نحو الغرب مغلقا بفيلق كامل من الجيش الثاني الألماني . واحتل البروسيون عددا من الغابات غير المتصلة فوق السلسلة الجبلية المنخفضة التي كانت تسيطر على السهل المتموج ونجح البروسيون في تثبيت بازان بشغله بمعركة حادة . الأمر الذي منعه من الاختراق نحو فيردون . ثم هجم مشاة كل من الألمان والفرنسيين عبر الغابات ، بينما امتنعت قوات الفرسان التي احتشدت داخل الأشجار من اقتحام تجمعات المشاة .

وفي ١٨ من أغسطس قام الجيش الثاني الألماني بمصاحبة جزء من الجيش الأول بمهاجمة مواقع بازان غرب ميتز . وكان الفرنسيون قد استندوا بمواقعهم على قرية غرافيلوت في الجنوب حيث كان يتعين على الألمان عبور خانق حاد الجوانب كثيف الشجر ، أما جانبهم الشمالي فكان يستند إلى سان بريفوت . وقاتل الألمان لشق طريقهم في الجنوب عبر الخانق الكثيف الشجر إلا أن الفرنسيين نجحوا في صدهم بنيرانهم الحامية بمجرد أن خرجوا من الغابات إلى الأرض المفتوحة . واستغل الألمان مناطق الأشجار في الشمال لستر تحركاتهم ونشر قواتهم من المشاة خلال الغابات . ولما فشلوا في احتلال غابة صغيرة من الفرنسيين انهالوا عليهم بنيران المدفعية التي أجبرت الفرنسيين على الرحيل . ودارت معركة سان بريفوت في غير صالح الفرنسيين مما جعلهم يلجأون إلى غابات جومون اتماسا لتغطية انسحابهم . وظل بازان يتقهقر طيلة يوم ١٩ من أغسطس ليدخل قلعة ميتز حيث خمدت حركة جيشه داخلها طيلة ما بقي من أيام الحرب . وبمجرد تطويق ميتز انضم جزء من الجيش الثاني الألماني إلى

الجيش الثالث في مطاردة جيش مكماهون الذي يكون نصف الجيش الفرنسي وبهذا تحولت المعركة النشطة إلى الغرب نحو اللورين .

لقد كانت الحرب الفرنسية البروسية قتالا بين المشاة بالدرجة الأولى إذ لم تكن المدفعية قد سيطرت على أرض المعركة بنيرانها بعد . وقد أوقعت نيران البنادق خسائر زادت نسبتها على ٩٠٪ من إجمالي خسائر الحرب . كما أن نيرانها المطورة جعلت هجمات الفرسان غير مؤثرة بينما تسببت تضاريس الأرض الوعرة وما ينتشر في المنطقة من غابات في جعل هجوم الفرسان غير ممكن . ومع أن كلا الجانبين أدخل بعض التعديلات على أساليب نابليون في التكتيك والتنظيم إلا أنها لم تكن كافية لتواكب تطور قوة نيران المشاة .

ونتيجة لذلك اتصفت الهجمات المركزة التي شنها المشاة بالدموية وعدم الحسم . وكانت الجيوش ما زالت صغيرة الحجم ومندمجة بالقدر الذي لا يجعل لها جبهة مستمرة ، كما كانت أجنابها عرضة للتطويق بسهولة مع تجنب الموانع والنقط القوية . ولقد كسب البروسيون انتصاراتهم بفضل نجاحهم في تهديد مجنبات الفرنسيين أو الاستيلاء على النقاط الحيوية في أرض المعركة (مثل طريق ميتز ـ فيردون) قبل أن يتمكن الفرنسيون من حشد الكفاية من الجنود لحماية الموقع المهدد . ومع إن كلا الجانبين استغل الغابات لاخفاء تحركاته وستر قواته فإنه يبدو أن قيمة الساتر والإخفاء في مواجهة قوة النيران المطورة قد غابت عنهما .

حرب التخوم عام ١٩١٤م :

مع أن اللورين كانت مسرحا مهما للقتال في المرحلة الإفتتاحية من الحرب العالمية الأولى فإنها لم تكن الإقليم الوحيد للصراع ، كما أن كلا من الزحف الألماني عبر بلجيكا «ومعجزة المارن» قد تسببت في حجب الأضواء عن أحداثها . وعلاوة على ضآلة الأهمية الاستراتيجية لإقليم اللورين فإن فن الحرب قد تغير كثيرا منذ عام ١٨٧٠م . لقد كانت المدفعية هي سلاح القتل الرئيسي ، وقد سيطرت مع مدافع الماكينة على أرض المعركة . وكان حجم

الجيوش هائلا بالدرجة التي جعلتها تنتشر على امتداد شمال فرنسا في جبهة متصلة مما جعل المناورة على غرار ما تمت ممارسته في الحروب السابقة أمراً مستحيلا . وإذا ما صادفت إحدى الوحدات أرضاً مستنقعية أو نقطة قوية للعدو فإنه لا يكون أمامها إلا اقتحامها لأن البراح الأرضي الموجود إلى اليمين أو إلى اليسار منها كان محتلا بوحدة أخرى صديقة . ونادراً ما كان العدو يترك مجنباته مفتوحة أو معرضة لحركات التطويق مادامت وحداته منتظمة في جبهة متصلة من بحر المانش غربا حتى الحدود السويسرية شرقا .

وللمرة الثانية اضطر الفرنسيون إلى تغيير خططهم من الدفاع إلى الهجوم قبل أن تشتعل نيران الحرب مباشرة لترغمهم أحداثها على العودة إلى الوضع الدفاعي الأصلي . وكانت الأركان العامة الفرنسية قد عزمت بعد كارثة ١٨٧٠م . أن تنتهج وضع الدفاع المبدئي المستند على حصون الجبهة في أي حرب مقبلة مع ألمانيا توطئة لشن الهجوم المضاد بعدئذ . ولكن المذهب العسكري الفرنسي صار يحبذ الهجوم في الحقبة السابقة على عام ١٩١٤م مما جعل الأركان العامة ترسم خطة جديدة تلتزم بالهجوم الفوري خلال اللورين في اتجاه إقليم السار فإذا ما تقدم الألمان عبر بلجيكا ولوكسمبورج قام الفرنسيون بشن الهجوم عبر الآردين جنبا إلى جنب مع تقدمهم في اللورين .

وكانت الخطة الألمانية المبدئية لفون شليفن **Von Shelffen** عام ١٩٠٥م تقضي بحشد قوة متفوقة على الجناح الأيمن الذي كان عليه أن يجتاح بلجيكا وشمال فرنسا . وقد تطلب هذا إضعاف الجناح الأيسر عمداً لتوريط الفرنسيين في مهاجمة صوب الراين مما يبعدهم عن حركة الاجتياح الحاسمة عبر بلجيكا . ولكن موت شيلفن ترك الفرصة للأركان العامة لإدخال تعديلات جوهرية على خطته الجسورة سعيا وراء تقوية الجناح الأيسر ، أي جناح اللورين .

لقد امتلك الفرنسيون في المرحلة الإفتتاحية من الحرب خفة الحركة بدرجة عالية ، وتمتعت مدفعيتهم الميدانية بالسرعة التي تبلغها المدفعية الألمانية وإن كانت الأخيرة أفضل تجهيزا في الهاوتزر الثقيل كما أن مدافعهم الماكينة قد

قطعت شوطا كبيراً من التطور .

وفي اليوم الرابع عشر من أغسطس شن الجيش الثاني الفرنسي والجناح الأيسر للجيش الأول هجوماً صوب نهر السار في تزامن واحد مع الهجوم الثانوي عبر الالزاس عن طريق ثغرة بلفور وممرات جبال الفوج . وارتدت القوات الألمانية من الجبهة إلى المواقع القوية المستندة إلى مخارج شاطىء الموزيل إلى الشرق من النهر ومنطقة الأرض المستنقعية شرقها بغرض تغطية سكة حديد ميتز ــ ستراسبورغ.ثم ضغط الجناح الأيسر للجيش الفرنسي الأول فيما بين الفوج والمنطقة المستنقعية جنب ديوز فوصل إلى ساربورغ وخندق نهر السار حيث رُدّ على أعقابه عندما حاول عبور هذا الخندق ، وأجبر على الانسحاب . وقام الجيش الثاني الفرنسي بتغطية التل الواقع شرق نهر الموزيل بفرقة احتياطية بينما راح فيلق يهاجم امتداد الوادي المفتوح في اتجاه بلدة ديوز . وعلى الجناح الأيمن للجيش الثاني خاض فيلق ثالث نضالاً شديدا عبر المستنقعات على أمل الخروج من شمالها للإطباق على المواقع الألمانية والهجوم على امتداد الشاطىء الشرقي لنهر السار . وقد تجزّأ هذا الفيلق داخل المستنقعات إلى مفارز صغيرة بسبب طبيعة أرضها مما جعله يفشل في الوصول إلى مخرجها الشمالي . أما الفيلقان الآخران المتقدمان عبر الوادي المفتوح فقد أزعجتهما نيران المدفعية الألمانية وأوقعت بهما خسائر فادحة ، كما شنت القوات البافارية هجوماً مضاداً عليهما يوم ٢٠ أغسطس بعد أن أتمت حشدها داخل الغابات على قمم السلسلة الجبلية . ولما لم يتمكن الفرنسيون من الصمود في الوادي ، راح الجيش الثاني الفرنسي يرتد عبر السلاسل الجبلية الواقعة شرق نهر الموزيل . وتعطل الجناح الأيسر للجيش الأول الفرنسي عند معابر النهر قبل أن يتوقف في النهاية عند خط نهر المورتان منتشرا ناحية الشرق حتى الفوج . ولقد تسبب فشل القوات الفرنسية في اللورين في العودة مرة ثانية إلى الخطة الدفاعية القديمة حيث كان الدفاع عن حدود فرنسا الشرقية يستند على تحصينات خط الموز ــ الموزيل في اللورين ، وخط أبنيال ــ بلفور في الفوج . وقد تُرك صحن «تشارمز» الواقع بين هذين الخطين سالفي الذكر

بلا تحصينات لإغراء الألمان بالهجوم بمحاذاة هذه الطرق المحدودة بهدف تعريضهم للهجمات المضادة من اتجاه الفوج أو المرتفعات الموجودة شرقي الموزيل .

وقد تسبب نجاح الجيش السادس الألماني في صد هجوم الجيشين الأول والثاني الفرنسيين في مبادرة القيادة الألمانية إلى تغيير دوره من الدفاع إلى الهجوم . وعوضا عن تطويق الجناح الأيمن للجيش الفرنسي والالتفاف حوله عبر بلجيكا صارت المهمة تطويقه من الجانبين بدفع الجيش السادس ليلتف حول جناحه الأيسر خلال اللورين . وقد تقدم الجيش السادس الألماني جنوبا طيلة ليلة ٢٣ أغسطس على امتداد صحن تشارمز . وهكذا سقط الألمان في الفخ الذي نصبته الخطة الدفاعية الفرنسية القديمة فقد احتشدت البطاريات الفرنسية في مواجهة القوات الألمانيةوجناحها الأيمن فوق المرتفعات المشرفة بينما الجيش الثاني الفرنسي يشن هجومه المضاد بقوة على مؤخرتها وجناحها الغربي . وهكذا أُجبر الجيش السادس الألماني على الارتداد على عقبيه . ولم يكن يغيب عن بال الألمان ضرورة الاستيلاء على المرتفعات الواقعة شرق الموزيل قبل البدء في التحرك بمحاذاة صحن التشارمز . ولهذا جاءت محاولتهم الثانية لاقتحام الجروف «الحافات الصخرية» شمال وجنوب بلدة نانسي . وقد تميزت هاتان المائدتان الارضيتان بجروفهما الحادة المواجهة للشرق ، والتي تنقسم إلى سلسلة من المعاقل والستائر . وفي معظم الأماكن كانت الغابات تكسو قمم الجروف فتوفر للبطاريات والقوات الفرنسية المتحركة الاستتار فضلاً على إخفاء نقط الملاحظة الفرنسية . وقد حشد الألمان قوات كبيرة في الغابات الكثيفة الممتدة عبر الأراضي الواطئة حول بلدتي لونفيل ونانسي توطئة لإطلاقها غربا ضد هذه المرتفعات ، إلا أن المدفعية الفرنسية تمكنت من قصم ظهر المشاة الألمان بمجرد أن خرجوا من ستر الغابات . ووجد رجال المدفعية الفرنسية أن الأشجار التي يبعد بعضها عن بعض بمسافات متساوية على امتداد طرق الأرض الواطئة توفر لهم نقطاً مثالية لإحكام التنشين . وبعد محاولة نهائية لم يكتب لها النجاح ارتدت القوات الألمانية صوب التخوم اعتبارا من اليوم الثامن من سبتمبر وساد

الهدوء النسبي فوق إقليم اللورين حتى نهاية الحرب .

لقد أثبتت الهجمات بالمواجهة التي وقعت عام ١٩١٤م ضد مواقع العدو المتمركزة فوق النجود ذات الجوانب شديدة الانحدار باللورين أنها غير مجدية تماما مثلما كان حالها في عام ١٨٧٠م . وفي عام ١٩١٤م كان تأثير مدافع الماكينة ونيران المدفعية قاسيا جدا على تلك الهجمات المضادة ولم يكن هناك مجنبات يمكن طيها في عام ١٩١٤م بينما تقوم الهجمات الأمامية بتثبيت العدو في مواقعه . وكان حجم الجيوش وتقنية صنعة القتال وطبيعة الأرض تقف جميعا في جانب الدفاع في اللورين في عام ١٩١٤م . وقد استغل كلا الطرفين الغابات بمهارة في حشد قواتهما ونشر قوات الستارة بطريقة أفضل كثيرا مما حدث عام ١٨٧٠م .

حملة اللورين عام ١٩٤٤م :

التف الغزو الألماني لفرنسا عام ١٩٤٠م حول إقليم اللورين مما جعل معركة فرنسا تجسم بالهجوم عبر الأراضي الواطئة وبالضربة المدرعة خلال الآردين . ولم يحدث القتال العنيف في اللورين مع بداية الحرب كما كان الحال عام ١٨٧٠م ، ١٩١٤م بل قرب نهايتها عندما انطلق الجنرال جورج باتون بجيشه الأمريكي الثالث من شمال فرنسا صوب نهر الراين ، أما اللورين فكانت الجبهة الثانية إلى جانب الجهد الرئيسي للحلفاء شمال الآردين والضربات المضادة الألمانية التي جاءت خلال الآردين أيضاً . وكانت قوات مونتغمري المتقدمة على محور موبيرج ــ لييج عبر سهول بلجيكا تهدد منطقة الرور الحساسة بصورة مباشرة . كما كان باتون يهدد إقليم السار الذي يعتبر منطقة صناعية تقل في أهميتها كثيرا عن إقليم الرور ، بينما كانت مانهايم وفرانكفورت لا أهيمة عسكرية لهما تقريبا في عام ١٩٤٤م .

لقد استغرق تقدم الجيش الثالث الأمريكي من نهر الموزيل حتى السار في خريف وشتاء ١٩٤٤م نحو ثلاثة أشهر ، بينما استغرق القتال النشط في حملتي اللورين عامي ١٨٧٠ ، ١٩١٤م أسبوعين وثلاثة أسابيع ونصف على

التوالي . واختلفت خصائص القتال من وجهة نظر الأعداد النسبية القليلة والمعارك الجامدة في عام ١٨٧٠م وكذلك عمليات الدفاع والهجوم على مقياس كبير التي اشتملت عليها معارك الحدود عام ١٩١٤م . وبرغم الحجم الأصغر للقوات عام ١٩٤٤م عنها عام ١٩١٤م (إذ حاربت فرق باتون للاستيلاء على الأرض التي تصارعت فوقها الفيالق الفرنسية والألمانية من قبل أي منذ ثلاثين عاماً) فقد جنحت معارك اللورين عام ١٩٤٤م إلى مد خط الاشتباك على جبهة واسعة مع دفع الأفواج والسرايا للعمل معا في أعمال قتال غير مرتبطة ببعضها . وقد سمحت التحسينات المستمرة في مدى الأسلحة وقوة القتل بتكوين الجبهات في الحرب العالمية الثانية وحشدها برجال قليلي العدد ، إذ أن نسبة الوحدات إلى المناطق المحتلة أقل مما كانت عليه في الحرب العالمية الأولى . وعلى الرغم من الحجم المحدود للقوات عام ١٩٤٤م إذ لم تكن هناك مجنبات يمكن طيها ، كما كان على الوحدات أن تشق طريقها على أي نوع من الأراضي وعبر أي مواقع للعدو وتعترض طريقها . وفي هذه المرحلة كان جيش باتون أكثر ميكنة من القوات الألمانية المدافعة ، إلا أن شبكة الطرق الفقيرة وخفة الحركة الضئيلة عبر أراضي اللورين هيأت للأمريكيين بعض الفرص لاستغلال تفوقهم .

لقد دار كثير من القتال داخل الغابات ، وخاصة حيث تخترقها الطرق أو تقع داخلها عقدة مواصلات . وقد عمد الألمان إلى قفل وتلغيم الطرق التي يستخدمها الأمريكيون لتقدم قواتهم سواء أكانت تخترق غابات أو لم تكن . واعتادت القوات الأمريكية مقابلة الأعداء داخل الغابات حتى صار قصفهم لها أمراً طبيعياً يلتزمون به على امتداد محاور الهجوم ، كما استغل كلا الجانبين الغابات بغاية الاهتمام لإخفاء مواقعهم الدفاعية ولحشد قواتهم لشن الهجوم أو الهجوم المضاد . وقرب نهاية الحملة اعتاد الألمان انتخاب أماكن قفل الطرق والمسالك داخل القرى المبنية بالحجر حيث يستطيعون الاحتماء من طقس الشتاء كلما أمكنهم ذلك . وقد وجدت القوات الأمريكية هذه القرى المحصنة أسهل في التطويق والقطع من المواقع الألمانية المجهزة داخل الغابات . فالأرض

التلية والمكسوة بالأشجار لا تقطع العمليات الحربية إلى اشتباكات صغيرة بالوحدات الفرعية فحسب ولكنها أيضا تجعل استخدام الدروع أمراً صعبا . ولقد كانت العمليات الميكانيكية السريعة الحركة التي تجلت فيها قدرة الجيش الثالث الأمريكي صعبة الإدارة في واقع الأمر . ولم يتوان القادة الأمريكيون والألمان عن مطالبة رؤسائهم بالمزيد من المشاة . ولكن الاستثناء الوحيد الملفت للنظر تمثل في سلسلة ديلمي Delme Ridge الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي من شاطىء الموزيل إلى الشرق من بلدة نانسي فقد اقتحمتها قوة مدرعة أمريكية واجتازت سفحها الشرقي المفتوح حيث كانت تتمركز فرقة مشاة كاملة . وهكذا أمكن اجتياح موقع دفاعي قوي خلال يوم واحد فقط في الحرب العالمية الثانية ، سبق أن ثبتت مناعته وصموده في الحرب الأولى لا لشيء إلا لأنه كان يقع في منطقة تصلح لقتال الدبابات داخل حوض اللورين .

ثم تضاءلت أهمية اللورين الاستراتيجية خلال الفترة التي درست فيها . فبعد أن كانت أرض المعارك الحاسمة في الحرب الفرنسية البروسية ، والجبهة ذات الأهمية الثانوية في عام ١٩١٤م تجاوزتها الأحداث في المراحل الافتتاحية من الحرب العالمية الثانية . فلما حل عام ١٩٤٤م عادت تشكل جبهة ثانوية يقتصر الغرض منها على تحويل موارد الألمان بعيدا عن الضربة الرئيسية التي اعتزم الحلفاء شنها في الشمال عند الآردين . وكانت حملة ١٨٧٠م آخر ما دار من قتال بقوات صغيرة مندمجة في هذا الإقليم بالقدر الذي أتاح لها ممارسة المناورة التقليدية ببراعة . ولقد كانت آخر سلاسل المعارك التي دارت في هذا الإقليم بالبنادق التي يحملها الجنود ، والتي كانت سلاحاً حاسماً وقتئذ . وفي عام ١٩١٤م ، ١٩٤٤م تشكلت الجبهات وتسلحت بالأسلحة ذات الأطقم المتعددة . وهكذا تسببت التغيرات في التقنية العسكرية في تحويل الميزة إلى وضع الدفاع حتى اعادتها الدبابة والميكنة في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الهجوم لولا أن أرض اللورين الوعرة بشبكتها الفقيرة من الطرق وقلة صلاحيتها للسير عبر الأراضي قد حيدت ضربة باتون الهجومية المدرعة . ولم يكن اللورين

أكثر مناسبة للمدرعات عام ١٩٤٤م مما كان عليه خلال هجمات الفرسان عام ١٨٧٠م ، ولهذا فقد سيطرت قوات المشاة على تلك الحملات الثلاث التي دارت فوقه . وكان هناك ميل مشترك آخر شديد الوضوح بين تلك الحروب الثلاث إذ سريعا ما تحولت المعارك إلى اشتباكات مضطربة بين وحدات صغيرة بفعل الأرض الوعرة التي تسببت في تجزئة تلك الوحدات وامتصاص طاقتها القتالية .

ومن الظواهر التي برزت خلال هذه الفترة أيضاً زيادة أهمية الساتر والاختفاء مع تحسن نوعية السلاح . وقد استغلت جيوش الحرب العالمية الثانية مزايا الغابات والانحدارات والميول المتقطعة لتسلم من مراقبة العدو ونيرانه على صورة أفضل كثيراً مما فعلته الجيوش في حرب ١٨٧٠م . ومع ذلك فقد عملت بعض مناطق الغابات الصغيرة المساحة كشراك للجنود في تلك الحروب الثلاث عندما ذهبوا يبحثون فيها عن الملجأ ، إذ كانت المدفعية تصب فيها حممها حتى درجة الإشباع . كما كان الهجوم يتوقف عدة مرات بمجرد نجاح المدافعين في تركيز نيرانهم فوق مخارج مناطق التجمع الموجودة داخل تلك الغابات .

حلف الناتو في مواجهة حلف وارسو ــ سيناريو لحقبة الثمانينيات :

تأتي غالبية المشاهد المكتوبة عن الغزو المتوقع لحلف وارسو إما كمحاولة لاجتياح جمهورية ألمانيا الاتحادية بحرب خاطفة فيما لا يتعدى ٤ ــ ٦ أسابيع ، وإما الاستيلاء عليها وعلى الأراضي الواطئة . ويرجح في كلا المشهدين أن يتقدم الجيش الأحمر عبر سهول أوروبا الشمالية فيما بين هامبورغ وهانوفر . ويؤمن ذلك أقصر الطرق المباشرة أمام حلف وارسو للوصول إلى الرور وموانئ بحر المانش الواقعة في بلجيكا وهولندا .

وإذا ما حاول حلف وارسو اجتياح كل أوروبا الغربية فسوف يترتب على تلك المحاولة مشهد مختلف إذ سوف يتقدم الجيش الأحمر خلال ثغرة فولدا **Fulda Gap** ليعبر الراين بين فرانكفورت ومانهايم ثم يندفع فوق السار واللورين

صوب حوض باريس . ومن الواضح أن التقدم على هذا الاتجاه سوف يعرض باريس والإقليم الصناعي الواقع في شمال فرنسا للخطر ، فضلا على احتمال فصل أوروبا الغربية إلى قسمين ، وتعريض موانى القنال الإنجليزي للخطر من الاتجاه الجنوبي . وقد تكون هذه الخطة جذابة من وجهة نظر حلف وارسو لحث الناتو على حشد غالبية قواته في سهل أوروبا الشمالي ، مع المقامرة بأن تقع الضربة الرئيسية السوفيتية بين هامبورغ وهانوفر إلى جانب ضربة أخرى ثانوية عبر ثغرة فولدا .

وإذا ما زحف الجهد الرئيسي السوفيتي فوق الفيلق الخامس الأمريكي في ثغرة فولدا واجتاز الراين فأي صورة من صور الاشتباك يمكن أن نتوقع حدوثها في اللورين؟ قد تحاول القوات السوفيتية استغلال نجاحها في اتجاه الغرب معتمدة على قوات الدبابات الثقيلة ، وقد يقوم النسق الثاني المشكل من الدبابات بالتقدم بغاية السرعة لاستغلال هذا الاختراق الناجح . ومن الطبيعي أن تتأهب غالبية قوات الناتو الآلية عندئذ ، إذا كانت ملتزمة حقا بمذهب الانتشار للأمام ، لتشتبك ضد شمال وجنوب القوات السوفيتية التي نجحت في عملية الاختراق . أما القوات المتيسرة لمواجهة الجيش الأحمر على وجه السرعة خلال اللورين فسوف تكون على الأرجح من القوات الإقليمية الفرنسية (المشاة) والقوات ذات خفة الحركة الجوية ، ربما من الأمريكية والكندية في الاحتياطي الاستراتيجي لحلف الناتو . تُرى كيف يمكن لفريق فرنسي على رأس مثل هذا الفيلق الذي تم تشكيله بسرعة مما سبق ذكره من عناصر أن يتصرف حيال هجمة جيش دبابات سوفيتي في اللورين؟ وقد لا يكون موقفه مع ذلك سيئاً .

إن الإقليم لم يكن أبدا أرضا مناسبة للفرسان أو الدبابات فيما سبق من حروب . فطبيعة أرضه الوعرة المليئة بالأشجار تجبر أي قوة مدرعة متحركة بسرعة أن تلتزم بالطرق . وتستطيع قوات المشاة أن تقفل الطريق في وجه الأرتال المتقدمة على هذه الطرق أو أن توقعها في كمائن وخاصة حيث تجتاز الغابات وهذا سوف يجبر السوفيت على التوقف والانتشار بقوات المناورة

ووحدات المدفعية . وقد يترتب على نقص المشاة في العمليات المترجلة تأخير إضافي في قتال القوات المدرعة السوفيتية للتغلب على انسداد الطريق داخل غابة . وعندما يقوم جيش الدبابات السوفيتي باستغلال النجاح غرب الراين فقد يضطر إلى الابتعاد عن مرمى أسلحته المضادة للطائرات فيصبح بذلك عرضة لضربات طائرات الناتو وصواريخه التي تطلقها الحوامات . كما أن الأرض الوعرة المليئة بالأشجار توفر كمائن مثالية للصواريخ المضادة للدبابات التي تطلقها الحوامات على الأرتال المقيدة بالسير في الطرق الممهدة . وبالمثل ففي إمكان الوحدات الجوية خفيفة الحركة أن تضع الكمائن لأرتال الإمداد ، وتقيم السدود على امتداد طرق الإمداد في مؤخرة الأرتال السوفيتية المتقدمة . وقد يتعرض الجيش الأحمر الذي يتقدم نحو حوض الراين باتجاه الغرب إلى استنزاف قدراته اللوجستيكية ، كما أن شن العمليات الجوية خفيفة الحركة على مؤخرته قد تصبح شديدة الإرباك له . وإذا ما حشد السوفيت قوات آلية ضد المشاة الجوية خفيفة الحركة في المناطق الخلفية فيمكن لهذه القوات المحمولة في الحوامات أن تغير مكانها بسهولة إلى منطقة قفل أخرى . وأن يتم ذلك بسرعة تفوق سرعة ملاحقة السوفيت لها . وهكذا تقف مزايا خفة الحركة والمبادأة إلى جانب قوات المشاة الخفيفة المحمولة بالحوامات وليس الأرتال الثقيلة للجيش المقيدة بالتحرك فوق الطرق الممهدة . وقد أمكن للمشاة الألمانية المترجلة خلال الحرب العالمية الثانية أن توقف في إقليم اللورين قوات ميكانيكية أمريكية متفوقة عليها عدديا كانت موضوعة تحت قيادة الجنرال باتون . وخلال حقبة الثمانينيات الحالية تستطيع أي قوة من المشاة الخفيفة المحمولة بالحوامات والمزودة بالأسلحة المضادة للدبابات أن تشطر أي قوة من الدبابات الثقيلة تحارب في إقليم اللورين وأن تقضي عليها جزءاً بعد جزء .

مراجع الفصل الخامس :

اقتبست المعلومات عن الحرب الأهلية الأمريكية من :

A.Tate :Stonewall Jackson (University of Michigan Press,Ann Arbor, 1928)

W.B.Woodard and J.S. Edwards Military History of the Civil War (G.P.Putman, New York,1937)

B.H.Liddell Hart Sherman (Praeger,New York,1958)

V.J.Esposito The West Point Atlas of American Wars, Vol.1 (Praeger, New York, 1959)

G.Tucker Chickamauga (Bobbs-Merrill, New York, 1961)

تم شرح إقليم اللورين في المراجع الآتية :

J.F.Maurice The Franco-German War (MacMillan and Co., New York,1899)

B.H.Lidell Hart The Real War 1914-18 (Little, Brown and Co., Boston,1930),chs. 2 and 3

D.W.Johnson Battlefield of the World War (Oxford University Press, New York,1921)

H.M. Cole The Lorraine Campaign (US Government Printing Office, Washington, DC,1950)

حرب الأدغال مشروحة في الآتي :

J.Miller 'Forest Fighting in the Eastern Front in World War II' Geograpical Review, vol.62, no.2(1972), pp. 186-202

G.K.Zhukov Marshall Zhukov's Greatest Battles (Harper and Row, New York,1969),ch. 16

الفصل السادس
استراتيجية الحملات الحربية
CAMPAIGN STRATEGY

«إذا حشدت جيشك بمهارة في مواجهة عدوك ، فلن يصعب عليك دحره ولو كان على بعد فرسخ»
صن تزو (الفصل ١١ ، الفقرة ٥٧)

المجال الجغرافي : Geographic Scope

ينبغي أن يوضع في الاعتبار عند التخطيط للحرب أهمية المدى والمجال الجغرافي في عملية اتخاذ القرار العسكري ، فضلاً على ضرورة انسجام الأوامر والتعليمات مع حجم المهام المراد تنفيذها . ولا توجد علامات إرشادية جاهزة للتفرقة بين مستويات العمل العسكري المزمع إنجازه ، إذ يتشابه التكتيك مع الفن الاستراتيجي بحيث يتعذر الفصل بينهما وبين الجيوبوليتيكا . ومع ذلك فهناك قدر من زمام المسؤولية يختص بإدارة العمليات في مسرح الحرب بأكثر من مجرد توجيه أعمال قتال الوحدات في المعركة . ويعمل هذا القدر الذي يعرف باسم «وظيفة القائد» على إحراز الغاية السياسية المنشودة . هذا ويشمل الفن الاستراتيجي أسلوب تمركز القوات في مواقعها الميدانية ، وكذلك تحركات هذه القوات ، وخوض الصراع المسلح بالجنود والسلاح والعتاد ، وقوة النيران والمناورة لكسب غرض سياسي محدد . وقد ذكرنا تعبير «الحملة» في عنوان هذا الفصل لنؤكد أنها عبارة عن سلسلة من العمليات الحربية المتتالية التي تشن بغرض الحصول على هدف منشود . ولسوف نعالج في الفصل التالي الأشكال الجغرافية السياسية التي تعترض مسار الحرب تحت عنوان «الجيوبوليتيكا» ، كما سنناقش مفاهيم الاستراتيجية العظمى التي تستند إليها القرارات العسكرية المختلفة .

ومن المعروف أن التأثير الجغرافي على الفن الاستراتيجي ينبثق عن تفصيلات أرض المعركة ، وحتى عموميات مسرح العمليات ، ويركز الاهتمام

في هذا الشأن على فتح الطرق والتشكيلات المقاتلة للمناورة بالجنود والمدرعات والمدفعية . وليس ثمة شك في أن انتخاب المواقع في ميدان المعركة يتم بغرض دحر العدو بالدرجة الأولى . ويؤكد الفيلسوف العسكري البريطاني الشهير ليدل هارت Liddel Hart على أن غرض الاستراتيجية هو تجريد العدو من إمكانية المقاومة عن طريق الحركة والمفاجأة . ومن الواضح أن الجغرافيا تدخل في جميع الاعتبارات والأحكام التي تتعرض لها عملية تقدير الموقف الاستراتيجي . وترتبط الحركة والمفاجأة بعلاقة ثنائية وثيقة إذ يترتب على الحركة تحقيق المفاجأة بينما تتولد عن المفاجأة الحركة ذاتها . إلا أن طبوغرافية الأرض وسعة[1] وسائل النقل والوقت تحد كلها من إمكانات هذين العاملين الثنائيين ، وذلك لأن المكان يتحدد بمجرد اختيار نوعية العمل الحربي ، كما تتحدد السرعات في الوقت نفسه . ويمكن تمثيل كل ذلك بمجموعة من القوى الموجهة ، فالجغرافيا ليست إحدى الثمرات العارضة للقرار ، بل هي المتغير الرئيسي لتحليل الخريطة . ويتضمن الفن الاستراتيجي مجموعة مترابطة من الجغرافيا التطبيقية وعلم النفس . وتبدو الصورة هنا كمباراة حربية تدار أحداثها على خريطة تظهر عليها أعمال الخداع كما تظهر أساليب استخدام القوة في البر والبحر والجو .

ولقد نشطت موازين الحرب بشدة منذ عام ١٨٥٠م مع اتساع مجال التنظيمات الاقتصادية والسياسية . كما أطلقت طفرة التصنيع والنقل فكرة الحرب الشاملة من عقالها حيث تتقاتل حشود ضخمة من الجيوش النظامية في صراعات عالمية . ونتيجة لذلك أصبح القرار الحاسم هو الفيصل في حسم الصراع ، وقد اتسع مجاله أكثر فأكثر . وعندما كان قرار خوض القتال يُتخّذ ، قبل عهد الجيوش الجرارة ، كانت نقطة التحول رهن تصرف القائد في أرض المعركة وكان في استطاعة المناورة التكتيكية أن تحسم يوم القتال وتكسب الحرب . وبظهور السكك الحديدية والتلغراف والمدفعية بعيدة المدى والأعداد الوفيرة من حملة البنادق صار من اللازم بذل قدر كبير من الجهد في التنظيم والإعداد للقتال . وتطلب كل ذلك الاعتماد على أجهزة الأركان التي

ألقيت عليها مسؤولية الأعمال الاستراتيجية المخططة . كما ترتب على زيادة مدى العمليات الحربية واتساع رقعتها الجغرافية ارتفاع في مستوى القرار الذي يحقق نقطة التحول ليصل به إلى آفاق الاستراتيجية . وهكذا أصبح ما كان يحققه قادة المغول من قبل في ضبط تزامن العمليات الحربية على مستوى القادة مسألة يستطيع أن يحققها القادة العسكريون في الدول الصناعية . أما الموهبة التي تحقق النصر فقد صارت تستلزم أيضا القدرة على استغلال الظروف السائدة في مجال جغرافي أكثر اتساعا عما تتطلبه عملية توجيه جيش ما في أرض المعركة . لقد ترتب على ميكنة الجيوش والأساطيل وشيوع استخدام الاتصالات اللاسلكية والطائرات الحربية أن ارتفع الصراع المسلح إلى المستوى العالمي ، وأصبحت الخيارات الحاسمة ترتبط بالقدرة على تنسيق الأعمال الحربية بين جيوش مختلف الشعوب . وهكذا أصبح الفن الاستراتيجي تابعا للتفكير الجغرافي السليم في متابعة الحرب بصرف النظر عن إعلانها . إن المسؤولية الأساسية عن نتيجة أي حرب تقع على عاتق السلطة التي بدأت بإشعالها . وبالمثل فإن استخدام الصواريخ العابرة للقارات والرؤوس الحربية يجعل قرار الحرب والمسؤولية عن نتائجها تقع على عاتق أعلى مستويات السلطة السياسية في الدولة . ويتحمل شخص واحد فقط هذه المسؤولية السياسية والعسكرية العظمى بينما يتبع كل شيء لقراره الصادر عن تصوره الشخصي للعالم كما هو فعلاً أو كما يمكن أن يكون . ومع ذلك فإن احتمالات التدمير الذاتي التي يحملها استخدام مثل هذه الأسلحة المهلكة يجعل أطراف الصراع المسلح يفضلون الاستمرار في استخدام الجيوش في الحرب المحدودة فقط . ومن الواضح أن الحسابات الاستراتيجية تلعب في مثل هذه الأحوال دوراً حاسما . أما إذا اقتصر قرار القتال على الحرب المحدودة أو كان المتحاربون لا يملكون أسلحة نوورية ، فإن الخداع الاستراتيجي قد يصبح عندئذ العامل الحاسم في أية معركة .

تطور المذهب الاستراتيجي : The Evolution of Strategic Doctrine

لقد كانت خفة الحركة هي المبدأ الذي يعود إليه الفضل في صقل المذهب العسكري على امتداد نصف القرن المنصرم . ولقد عالج دعاة خفة الحركة مغزاها ومزايا استخدامها في الحروب بوضوح تام وعلى رأسهم الجنرال فولر General Fuller والسير ليدل هارت وبفضل المعرفة العميقة بأحداث التاريخ العسكري والمهارة الفائقة في ملاحقة الطفرة التقنية الحديثة وملاحظة تأثيراتها إلى جانب الحاجة إلى الشعور بالمحافظة في الأمور العسكرية وجد هذان الداعيتان أن العلاج الناجع يتحقق باستخدام الدبابات والمشاة الآلية في تعاون وثيق مع الدعم الجوي للتغلب على حالة الركود التي وصلت إليها حرب الخنادق . ثم راح ليدل هارت يبشر بمزايا الاقتراب غير المباشر مستمدا براهينه وقرائنه من التحليلات التاريخية للانتصارات العسكرية . إلّا أن أغلب ما صدر عنه في هذا الشأن كان قد سبقت المناداة به منذ أربعة وعشرين قرنا مضت على لسان صن تزو Sun Tzu الفيلسوف الصيني القديم ، والاقتراب غير المباشر هو أيضا وسيلة الملاكم والمصارع ولاعب الكرة الماهر في لعبته . والواقع أن التركيز على خفة الحركة والاقتراب غير المباشر جاء كرد فعل للكوارث المرعبة التي سببتها حروب الخنادق في المرحلة الافتتاحية من الحرب العالمية الأولى ، والتي تعود بدورها إلى بداية طفرة التصنيع الكمي سالفة الذكر .

ويضرب المؤلفون العسكريون صفحاً عن أحد المذاهب الاستراتيجية المبكّرة التي تعمل فوق شريحة جغرافية واسعة رغم أنه كان الرائد لفكرة الجيوبوليتيكا الحديثة . ولقد اقتبس ماهان Mahan فكرة دعوته للولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تتسنم ذروة القوة في العالم أجمع من واقع تحليله للاستراتيجية البحرية البريطانية ، حيث اعتمد المبدأ الأساسي لهذه الاستراتيجية على حشد القوى ، ثم صار هو المذهب المعتمد لتحقيق السيادة للأساطيل العسكرية الحربية . أما عمليات الكر والفر hit-and-run operations فقد أضحت وسيلة إضافية للسيطرة على المياه الحيوية بواسطة الأسطول الذي احتشد لتدمير قوات العدو ، أو قفل الطرق والمسالك البحرية في وجهه .

لقد استخدم نابليون ميزة السرعة العالية التي يتمتع بها الجيش الثوري الفرنسي لتحقيق حشد القوى لنفسه ، إذ سعى في حروبه البرية ذات المواقف الأقل استقراراً إلى تجميع قوة نيرانه على خلاف ما يتوقعه عدوه . ولقد سارت فرقه المقاتلة عبر الأراضي في انتشار محسوب وهي معتمدة في إعاشتها على ما تجود به تلك الأراضي من محاصيل وثمار . وبمجرد أن تسنح الفرصة كان نابليون يبادر إلى إعادة تجميعها وزجها للقتال في مؤخرة أعدائه . ولم يكن نابليون يألو جهداً ــ وهو المدفعي المطبوع ــ في صب حمم مدافعه الميدانية على أعدائه بأقصى تأثير ممكن ، وذلك بفضل حشدها جميعا ضد قطاع بعينه من خطوط الحسم . وكانت غلالة النيران الاستراتيجية هذه من وجهة نظره هي التوأم البري لعمليات القفل البحرية التي تجريها الأساطيل الحربية ، إذ كان يستطيع بفضلها أن يناور في مؤخرة العدو ليسد عليه خطوط الانسحاب ويقفل طرق المواصلات في وجهه . أما سقوط نابليون وهزيمته فقد ترتّبا على زيادة اعتماده على الحشد على حساب خفة الحركة في معادلته التي أعلن فيها أن القوة العسكرية هي محصلة الحشد والسرعة . وتطبيقا لهذه المعادلة عمد نابليون إلى الاستعاضة عن المفاجأة بتنظيم مضمون للقتال من واقع التجربة الميدانية . وكانت حصيلة هذه الأخطاء ما حاق به من هزائم في سهول روسيا المترامية الأطراف حيث أبدع خصمه في المراوغة والابتعاد عن طائلة نيرانه وهو ضامن بأن زمهرير الشتاء القطبي سوف يتكفّل بالباقي .

وعندما كتب فون كلاوزفيتز **Von Clausewitz** تعميمه عن إنجازات نابليون ركّز بصفة خاصة على مبدأ حشد القوات . ومن سوء الحظ أنه عبّر عن أفكاره بمثاليات مغرقة في التطرف لم تترك للحقيقة إلّا وجهـاً باهتا حجب عن قرائها مقصده الحقيقي فيها . فما وصفه كلاوزويتز كقيود عامة قام مريدوه بترجمته كأسلوب عمل . كما أن الهدف الاستراتيجي تدهور حتى صار مجرد تدمير قوات العدو في المعركة . ثم جاء فون مولتكه **Von Moltke** من بعده ليغرق مفهوم الحرب الشاملة في فيضان من المعارك الملطخة بالدماء . وكان الشق الواقعي من تعميمات فون كلاوزويتز المتعلق بأهمية السكك الحديدية في نقل

القوات والمعدات وكذلك توقعاته عن الدور المتنامي للبنادق سريعة الطلقات من أسباب النصر الذي حققه البروسيون سنة ١٨٦٦م ثم ١٨٧٠م وما تبعه من اعتناق العسكريين لمذهب الاقتراب المباشر .

وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي كان الجنرال جرانت Grant الأمريكي ينتقل بجيشه من نصر إلى نصر في مواجهة الجيش الكونفدرالي الأمر الذي عزز بدوره مذهب الاقتراب المباشر إلّا أن جرانت كان يدرك جيدا قيمة مبدأ خفة الحركة والمناورة في هذا المسرح الغربي ، وبخاصة في أثناء استيلائه على بلدة فيكسبورغ Vicksburg في استغلال مبدأ خفة الحركة ، والحنكة التي أبداها فيما قام به من مناورات بارعة . ولما رجحت كفة الرأي الذي ينادي بحشد الجيوش النظامية الكبيرة التي تعتمد في تحركاتها وإعاشتها على السكك الحديدية ، تضاءلت مرونة القتال نتيجة ارتباط الجيوش برؤوس السكك الحديدية التي تمدها بلوازمها المختلفة . وفي الوقت نفسه ترتب على تعرض هذه الخطوط الحديدية للأعمال العدائية مشكلات عويصة بعد أن صارت أهدافا مغرية للإغارات التدميرية أو الغلالات النيرانية المهلكة . وقد أبدع كل من الجنرال فورست Forrest والجنرال مورغان Morgan في شن الإغارات الكونفدرالية المتتالية لقطع القضبان الحديدية مما أجبر الجنرال جرانت على الاستيلاء على تقاطع السكك الحديدية عند بلدة جاكسون قبل أن يتحول لمهاجمة فيكسبورغ واحتلالها . ولم يكن يغيب عن بال الجنرال شيرمان ما تفرضه خطوط الإمداد الثابتة من قيود ولا ماتوفره خفة الحركة من مزايا ، ولهذا فقد تجنب الاعتماد على السكك الحديدية في تحركات قواته وإدارتها بينما راح يضرب الخطوط الحديدية لخصمه بلا هواده . ولم يكن هدفه أن يفرض على عدوه المواجهة المسلحة بل السيطرة على الخطوط الحديدية المهمة وتقاطعاتها الحيوية لشل شبكة السكك الحديدية تماما من نقطة بدايتها في مدينة إطلانطا . وبمجرد أن حقق هذا الهدف انطلق شيرمان بخمسة أرتال نحو المحيط في سرعة خاطفة وراح يهدد في طريقه عدة نقاط استراتيجية حيوية ، مما أوقع خصمه في الارتباك نتيجة غموض الاتجاه الحقيقي لتقدمه . وبفضل

قدرته العالية على تغيير اتجاه التقدم أمكنه بسهولة أن يقطع مدينة ريتشموند عن مصدر إمداداتها في ولاية جورجيا . فلما وصل إلى شاطىء المحيط التف يسارا وراح يطوي موانيء القوات الجنوبية ليقطع اتصالها بمصادر إمدادها عبر البحار . ولا نستبعد أن تكون هذه الحملة هي التي بهرت ليدل هارت وملأت وجدانه بأهمية خفة الحركة في الحروب الحديثة ، ومن ثم وضع نظرية الحرب الخاطفة التي طبّقها الجنرال هانز غودريان Guderian بكل جدارة وجسارة في مسرح الحرب العالمية الثانية في أوروبا ، وذلك بقوات البانزر الألمانية .

ومما يثير الدهشة أن الخطة الفرنسية للتحضير للحرب العالمية الأولى كانت ترتكز على مذهب شن المعركة الحاسمة الوحيدة ، طبقاً لتعاليم الفيلسوف العسكري البروسي فون كلاوزفيتز بينما كان قصد الألمان أن يستغلوا مزايا الاستراتيجية المرنة والعمليات الجسورة التي حققت لنابليون انتصاراته المدوية في أوائل عهده . لقد كانت الخطة الفرنسية رقم ١٧ تقضي بتوجيه ضربة مركزة ضد قلب الخط الدفاعي الألماني . وعلى الجانب المضاد حرص واضع الخطة الأصلية الجنرال فون شليفن General Von Schliffen على أن يلتف بجناحه الأيمن حول الحائط الفرنسي عبر الأراضي البلجيكية مع حشد غالبية قوات الميسرة هناك بغرض تطويق حوض باريس والوصول إلى مؤخرة الفرنسيين حيث يضرب قواتهم بشدة فوق سندان القلاع الألمانية في إقليم اللورين إلى أن يتم هزيمة القوات الفرنسية . ولسوء الحظ كان خلفه فون مولتكه Von Moltke أقل منه جسارة وأضعف بصيرة في الأمور الجغرافية مما حدا به إلى تعديل الخطة بتقوية الجناح الأيسر المواجه للقوات الفرنسية الرئيسة على حساب إضعاف الجناح الأيمن الذي توقف كل شيء على سرعته في إنجاز حركة الالتفاف العظيمة عبر الأراضي البلجيكية . ونتيجة لذلك نجح الحلفاء في التمسك بأرض الفلاندرز وصد حركة الالتفاف مما أدى إلى حالة ركود تحول الصراع بعدها إلى حرب الخنادق التي استنزفت قوات كل الخصوم . وللتغلب على هذه الصورة المفجعة التي تحول إليها الصراع المسلح في مسرح غرب أوروبا حاول البريطانيون تطويق

جناح ألمانيا من الشرق بشن عملية غزو بحري عبر مضايق الدردنيل وأراضي البلقان . وكانت هذه الخطة التي اعتمدت على سيطرة البريطانيين على البحر المتوسط لاغبار عليها إلا أن ماشاب تنفيذها من تردد عجل بفشلها . ومع ذلك فقد استمرت السيادة البريطانية على البحار والمحيطات تضعف من القدرة الألمانية على مواصلة الحرب وتمنع عنها الغذاء وغيره من لوازم القتال مما أضعف البنية التحتية الاقتصادية وقدرة ألمانيا على المقاومة أو مواصلة الصمود .

وفي مسرح الشرق الأوسط حققت الأساليب غير التقليدية انتصارات مدوية مع قيام الثورة العربية الكبرى التي حظيت بأفضل دعاية ممكنة بفضل شخصية لورانس Lawrence الأسطورية وحنكة المارشال ادموند اللنبي Allenby الذي هزم الأتراك في فلسطين بفضل خفة الحركة والاقتراب غير المباشر . ولم تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها قبل أن تدخل الدبابة والطائرة ساحة الوغى ويكتسحا حالة الركود التي خيمت طويلا على المسرح الأوروبي وما ترتب عليها من حرب الخنادق . وبفضل هذه الدبابة وتلك الطائرة خرج الصراع المسلح من مستنقع الوحل الدامي المليء بالهلع . وهكذا أمكن للدبابة والطائرة أن تنقذا الصراع المسلح من المستنقع الموحل الدامي الذي سقط فيه نتيجة الالتزام بمذهب فون كلاوزفيتز . وكانت عين ليدل هارت الفاحصة تتابع كل ذلك بوعى لا مزيد عليه وهو يبلور نظريته الاستراتيجية الجديدة .

خفة الحركة والاقتراب غير المباشر :

مع مطلع العشرينيات راح كل من فولر Fuller وليدل هارت يبشران بمزايا اختراق تشكيلات الأعداء بالدبابات وبعمق كبير ، ولكنهما اختلفا في أسلوب استخدام المشاة في هذا الاختراق ، إذ أصر فولر على ضرورة أن يقتصر دور المشاه على التمسك بالنقط الاستراتيجية المهمة ، بينما رأى ليدل هارت أن تواكب هؤلاء المشاة انطلاقة الدبابات وهي محمّلة على عرباتها . وفي سنة ١٩٢٧م قام الجيش البريطاني بتنظيم قوة ميكانيكية لإجراء التجارب الميدانية

بغرض اختبار المذهب الذي يدعو إليه فولر وليدل هارت . وفي ألمانيا لم يغب عن فون سيكت Von Seeckt ما أصبح لخفة الحركة من أهمية متزايدة استلزمت ضرورة حمل الجنود المشاة في عربات مناسبة ، كما اقتنص الجنرال هانزغودريان Guderian نظرية الحرب الخاطفة بالدبابات والطائرات وجسدها في فرقة البانزر . أما استراتيجية استخدامها وتكتيكات عملها في الحروب الخاطفة فقد نقلت بالتمام والكمال عن تصورات ليدل هارت لأسلوب الهجوم المشابه للفيضان المتدفق . كان غودريان على ثقة بأن غاية الاستراتيجية هي زحزحة الأعداء من مواقعهم وأن تحقيق ذلك ينبغي أن يكون عن طريق استخدام القوة المسلحة لإرباك العدو ثم الإلقاء به في مهاوي الغموض والإبهام بتقطيع أوصال خطوط مواصلاته وإمداداته والطرق المحتملة لانسحابه مع تدمير قدرته على المقاومة المادية والمعنوية . أما التكتيكات التي تحقق كل ذلك فلابد أن تشتمل على تحقيق اختراق مفاجيء بالدبابات تساندها الطائرات لفتح ثغرة في جبهة الخصم يتدفق من خلالها فيضان من الدبابات والمشاة ذات الكفاية الذاتية القتالية والإدارية التي تكفيها مدة زمنية طويلة تنقسم خلالها إلى وحدات مستقلة سريعة تقوم باختراق خطوط العدو في أضعف المحلات ثم الالتفاف حول جيوب المقاومة ورفع وتيرة الهجوم حيثما تصادفها المضايق لتحافظ على قوة الضربة وتظل تنتخب أهدافاً متتابعة تزيد الخصم بلبلة وارتباكا وتفسد اتزانه في المسرح .

وقد جاءت ذروة العمل الإبداعي بهذه التكتيكات في المسرح البولندي عام ١٩٣٩م ثم الفرنسي عام ١٩٤٠م عندما تدفق فيضان تشكيلات البانزر الألمانية عبر إقليم الآردين في حركة اختراق عميقة بهدف دق اسفين يفصل بين الجيوش الفرنسية والبريطانية توطئة لتطويقهما . ولما هاجم هتلر روسيا تهيأت لجحافله فرصة مواتية بفضل تضاؤل نسبة القوة المضادة في المسرح بالنسبة إلى المساحة الإجمالية للسهول والسهوب التي وقع عليها الهجوم مما أتاح للقوات المهاجمة تحقيق معدلات تقدم عالية نحو نهر الفولغا Volga River . ولم يخل جانب الحلفاء وقتئذ من إنجازات مماثلة ، إذ اهتبل الجنرال

أوكونور O'conner الفرصة في الصحراء الغربية وراح يستغل مبدأ خفة الحركة مع تطبيق نظرية الاقتراب غير المباشر بقدر ما تسمح به الظروف السائدة وقتها . ومع أن نشأة المارشال مونتغمري Montgomery كانت مرتبطة بمفاهيم المدرسة القديمة فإن الأحداث في المسرح سريعاً ما أقنعته بجدوى مذهب ليدل هارت ودفعته إلى تطبيقه بمهارة حصد بفضلها كل ما أحرزه من انتصارات مؤزرة . ثم جاءت بعدها إنجازات الجنرال جورج باتون Patton الرائعة في أثناء عملية الانطلاق من شبه جزيرة نورماندي والتقدم صوب نهر المارن . تلك العملية التي ظل يخوضها باتون وكأنه يدير بيانا عمليا محكم الإعداد والتجهيز ، قوامه الجسارة والاقتراب غير المباشر حتى اصطدمت قواته بدفاعات الألمان عند ميتز وأجبرت على الدخول في معركة هجومية بالمواجهة .

وفي المسرح الروسي ضاعت روح خفة الحركة المغولية التي حقنها الماريشال توخاشيفسكي Tukhdchevski في شرايين الجيش الأحمر عندما أعدم هو ورفاقه من كبار القادة السوفيت إبان حركة التطهير التي أدارها ستالين فيمابين عام ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩م . ولولا الطبيعة الجغرافية للمسرح الروسي السهلي المتسع الأرجاء لما عادت إليه مرة أخرى استراتيجية الحشد والمناورة التي يتعذر تحقيق أي نجاح بدونها . وكان توخاشيفسكي قد خلّف وراءه مدرسة تنادي بأهمية التدريب على عمليات التطويق السريع . وقد اهتم بتضمين ذلك في قوانين خدمة الميدان Field Regulations التي نشرها عام ١٩٣٦م وأكد فيها حتمية الهجوم الخاطف الذي يجمع بين قوات المشاة والدبابات والمدفعية والطائرات في امتزاج متجانس ومتوازن بالإضافة إلى تنظيم مفارز الاقتحام التي تُكلّف باختراق خطوط الخصم وفتح الثغرات الكافية لتتدفق منها الدبابات في فيضان مندفع بأقصى سرعة . فإذا ما تحقق كل ذلك واقترن بالتفوق العددي والمجال الأرضي الرحب دانت له كل الأسباب لإلحاق الهزيمة الساحقة بالجيوش الألمانية . وبالإضافة إلى ما سبق فقد نوهت مدرسة توخاشيفسكي عن مخاطر نشر القوات السوفيتية على مواجهة واسعة في أثناء مطاردة القوات الألمانية وما يتبع ذلك عادة من تدهور نسبة الكثافة العددية للقوات السوفيتية ،

وبخاصة أن خفة الحركة الألمانية سوف تمكن جيوش البانزر من الصمود في الدفاعات أمام هجمات تتفوق عليها عدديا بأكثر من نسبة ١٠ إلى ١ .

يبقى الحديث عن الجيش الأمريكي الذي نشأ على تعاليم فون كلاوزفيتز التي تنصح بالسعي إلى المواجهات المسلحة الحاسمة مع الخصم ، الأمر الذي أثار عليه الجانب البريطاني كثيراً من الاعتراضات . والواقع أن مسرح المحيط الهادي كان ساحة للصراع البحري تعددت فيه العمليات البرمائية والغزو البحري للقفز من جزيرة إلى أخرى لدفع القوة الجوية الأمريكية خطوة وراء خطوة نحو الجزر اليابانية . وقد كان لعمليات الجنرال ماك آرثر Mac Arthur البارعة للإطباق على اليابان عبر غينيا الجديدة وجزر الفلبين إلى جانب شن الضربة البحرية الرئيسة من وسط المحيط الهادي في اتجاه الجزر اليابانية الفضل في سك استراتيجية اغتنام الفرصة المتميزة .

استراتيجية القوات الجوية :

مع مطلع عام ١٩١٧م لم يكن أحد أشد اقتناعا من مارشال الجو ترينشارد Trenchard قائد سلاح الطيران الملكي Royal Flying Corps بفرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، والذي تولى منصب رئيس أركان القوات الجوية بعدئذ بجدوى عمليات القصف الاستراتيجي بعيد المدى بالطائرات الحربية .

وقد استمر المارشال يعقد البيان العملي تلو البيان العملي طيلة سنوات العشرينيات والثلاثينيات ليبين للملأ قدرة الطائرة على إنجاز عمليات متعددة في مسرح الشرق الأوسط . وقد وضع ترينشارد رسالة علمية عن تفوق قدرة القوات الجوية على القوة البحرية في إنجاز المهام الاستعمارية في أراضي المستعمرات . وكانت عملية تخصيص الموارد لتنمية القوات الملكية البريطانية فيما بين الحربين تتم كاستجابة سياسية مقابل خشية الجمهور من وقوع هجوم جوي مباشر على المدن البريطانية . وكان الانفاق على القوات الجوية البريطانية يخضع لقانون يقضي بالمساواة بين موازناته وموازنات أقرانه من القوات الجوية الأخرى التي تقع رقعة دولها داخل مدى الهجوم الجوي . وقد أكد ترينشارد

أن عملية التوسع تحرص على رجحان كفة قاذفات القنابل الهجومية بالدرجة الأولى ، ولم يكن يتصور للدفاع الجوي أسلوبا غير الهجوم . أما ألمانيا النازية فقد كان المارشال غورنغ Goering يبني قواتها الجوية المعروفة باسم Luftwaffe حتى تهيء للحرب الخاطفة أفضل فرص النجاح . وكان دوهيه Douhet وليدل هارت قد وضعا أسس القذف الجوي الأستراتيجي بعد أن حط الجنرال دوهيه الإيطالي من قدر الحرب البرية خفيفة الحركة وتزعم حركة المناداة بتحويل الاهتمام كله إلى الجو . فالطائرات حسبما زعم تستطيع إرهاب الجماهير المدنية لإحداث التفكك السياسي في الدولة ، ومن ثم الانتكاس العسكري .

أما ليدل هارت فقد ظل يكرر القول منذ سنة ١٩٢٥م بأن الضربة المدرعة خفيفة الحركة ضد خطوط العدو يجب أن تشن في تعاون وثيق مع الضربة الجوية ضد أنظمته الاقتصادية والسياسية مع قصف مراكزه المدنية بالقنابل .

وقد اعتنق ترينشارد ذلك الاتجاه عن اقتناع بأنه الوسيلة المثلى لتطوير شكل جديد لحرب الاستنزاف التي تهدف إلى تدمير القدرة الصناعية للدولة بدلا من إضاعة الجهد في خوض حرب خنادق عديمة الجدوى باهظة التكلفة .

ومثلما اقتنع ترينشارد بأقوال ليدل هارت فقد اقتنع الجنرال ميتشل Mitchell الأمريكي بالشكل الجديد للحرب الذي يدعو إليه ترينشارد فعاد إلى الولايات المتحدة وهو يحمل دعوة القذف الاستراتيجي بعيد المدى ليلهب حماس مدربي مدرسة سلاح الجو التكتيكي Air Corps Tactical School بماكسويل فيلد بولاية ألباما Maxwell Field الذين كان القدر يدخرهم لخوض غمار الحرب العالمية الثانية في الجو من موقع القيادة . لقد ركز هؤلاء المدربون على أن هدف القوات الجوية هو تحطيم إرادة الخصم وقدرته على المقاومة ، وذلك بتدمير وسائله الإنتاجية التي تدعم طاقته الحربية . وقد انتقل مركز الاهتمام الجغرافي من التشكيلات الحربية والوسائل الدفاعية إلى أماكن تمركز المواطنين والصناعات ووسائل النقل . وفاق هؤلاء التلاميذ أساتذتهم ، إذ تجاوزوا كل الحدود التي وضعها لهم ميتشل في مصطلحاته الجيوبوليتيكية وراحوا يحذرون

من أن يقتصر الأمر على مجرد إقامة قواعد جوية قواعد جوية داخل البحر لتوجيه الطائرات منها نحو العدو المحتمل ويؤكدون ضرورة عمل الترتيبات اللازمة مع الحلفاء لتهيئة قواعد إضافية تتمركز فيها القوات الجويةالأمريكية بهدف زيادة مدى عملها ـــ إلا أن تكتيك القصف الجوي النهاري الدقيق للأهداف المعادية تعرّض لضربة أليمة في غارة شوينفورت Schweinfurt الشهيرة التي شنتها القاذفات الأمريكية في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٣م . ولم يكن التكتيك البريطاني للقصف الليلي الذي يصل إلى حد التشبع بأفضل حظاً على الرغم من أنه استهدف المناطق الصناعية التي حددها تشرشل منذ مايو سنة ١٩٤٠م ، إذ لم يوقف عجلة الإنتاج الألماني ولم يمنع توسعها المطرد بل ظهر أنه كان أحد الحوافز الحقيقية في رفع معنويات المدنيين الألمان . وفي مارس ١٩٤٤م وضع اقتراح مارشال الجو البريطاني آرثر تيدر Tedder موضع التنفيذ ، فراحت قاذفات الحلفاء تقصف السكك الحديدية الفرنسية والبلجيكية بلا هوادة مما حد من خفة حركة الألمان ، وعرقل استعدادهم لمقابلة غزو نورماندي . ثم جاء قرار ضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية في أغسطس سنة ١٩٤٥م لتلبية مطالب سياسية داخلية فضلا على الرغبةفي إثبات التفوق على الاتحاد السوفيتي في مضمار النفوذ الدولي . وقد كشفت الشواهد عن استعداد اليابان منذ شهر مايو ١٩٤٥م للتسليم دون قيد أو شرط على نحو ما كان يصر عليه الحلفاء . كما كان الامبراطور مقتنعا بضرورة إنهاء الحرب ، ولهذا راح في مطلع شهر يونيو ١٩٤٥م يستطلع إمكانات توسط السوفيت في الأمر . وبناءً على ذلك يمكن الجزم بأن استخدام الأسلحة الذرية آنذاك كان لمجرد استعراض العضلات وليس لدواعٍ حربية حقيقية .

الاستراتيجية النووية Nuclear Strategy

لقد تركت مجريات الحرب وأساليب الحلفاء في إدارة معاركهم انطباعا بتفوق الأعمال الهجومية الفذة التي تسعى إلى تحقيق النصر الشامل والسريع .

كما بدا أن الاقتحام البرمائي ، ومجموعات حاملات الطائرات ، والمدرعات والقصف الاستراتيجي قد أتت جميعها بالنصر . وحتى قبل أن تستسلم ألمانيا واليابان كانت خطوط الصراع المقبل تتشكل وترسم خطط إدارته وتنفيذه . ولا يختلف اثنان في أن اختراع الأسلحة النووية قد قلب موازين العنف رأسا على عقب وكفل للهجوم اليد العليا في مسرح الحرب . وفي سنة ١٩٤٥م خرج علينا الجنرال الأمريكي عمر برادلي Omar Bradley بمذهب «الانتقام الجسيم» . وبات على الدفاع أن يتوقع التهديد الوشيك بالهجوم المدمر . ولدرء أية حركة عدوانية سوفيتية راحت الولايات المتحدة تنشر قواتها المسلحة كيما تصبح أقدر على توجيه الضربات ضد الأراضي الروسية بالقنابل النووية التي تحملها القاذفات من طراز ب ـــ ٣٦ ، ب ـــ ٥٠ . وكان يكفي مجرد نشر قوة تقليدية محدودة للعمل كسلك إعثار trip wire لاستدراج الرد السوفيتي الذي بمجرد أن يتخبط فوقه تنهال عليه الحمم النووية المهلكة لتحيله أثرا بعد عين .

ولما امتلك الاتحاد السوفيتي السلاح الذري عام ١٩٤٩م ، ثم النووي عام ١٩٥٥م لم يعد الحلفاء ينفردون بخيار التدمير الشامل وأصبح المعسكران منذ الخمسينيات يواجه بعضهما بعضاً من موقع القدرة على شن الهجمات النووية عبر المحيطات ، مما جعل مذهب الردع الجسيم غير عقلاني ومغامرة غير مضمونة العواقب ، بينما يعتبر الاتحاد السوفيتي أن جيوشه المتمركزة في أوروبا الشرقية تشكل القوة الرادعة التي تحقق التوازن .

وعلى حين كان ستالين يعتبر جيوش المعسكر الشرقي المتمركزة في أوروبا الشرقية أنها أداة الردع في مواجهة أوروبا الغربية ، ولموازنة احتكار الولايات المتحدة الأمريكية للسلاح النووي كانت الولايات المتحدة تنظر إلى تلك الجيوش كتهديد عداوني قد بيت النية على قهر العالم . وقد رفض خروتشوف سنة ١٩٥٣م استراتيجية ضربة الإجهاض لتدمير الخطر الأمريكي قبل أن تتاح له فرصة العمل وكان تبريره لهذا الرفض أنها تحمل أخطاراً داهمة لا يستطيع أن يتحملها المعسكر الشرقي . وكانت استراتيجية القوات البرية السوفيتية حينذاك

مشابهة في إطارها العام لاستراتيجية الدفاع الأمني النشيط التي كان يعتنقها حلف شمال الأطلسي حينذاك ، وقد استلزم الأمر المزيد من خفة الحركة وقوة النيران التي تتضمن أسلحة نووية لتحقيق التقدم السريع على محاور متباعدة . كما زودت الجيوش بالصواريخ متوسطة المدى لتدمير الأهداف الأوروبية . وما أن شعر الاتحاد السوفيتي بتخلفه في مضمار إطلاق القنابل النووية حتى أسرع ببناء أسطول ضخم من القاذفات بعيدة المدى من طراز بيسون وبير Bison Bear فضلا على تطوير الدفاعات المضادة للطائرات لوقاية مدنه .

وخشية من أن تحدث ثغرة قاذفات في منتصف الخمسينيات فقد عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تطوير برامج إنتاج القاذفة ب ـــ ٤٧ ، ثم القاذفة ب ـــ ٥٢ ، أما الاتحاد السوفيتي فكان قد قرر وقتها أن يهمل أمر القاذفات بعيدة المدى لصالح الصواريخ . وجاء إطلاق سفينة الفضاء سبوتنيك Sputnik في أكتوبر سنة ١٩٥٧م كإعلان عن نجاحه المدوي في هذا المضمار . وبحلول عام ١٩٦٠م كانت سفينة الفضاء س س ـــ ٦ قد خرجت عن الطوق . وكان خروتشوف قد شعر قبل ذلك بعام بتوازن حجم القوة التدميرية بين المعسكرين إثر تطوير الصواريخ السوفيتية العابرة للقارات .

ولتدعيم حالة التوازن هذه بادر خروتشوف بإنشاء قوة الصواريخ السوفيتية لتعمل كرأس حربة للردع الذي سوف يسمح بتخفيض القوات المسلحة التقليدية . ولكن الولايات المتحدة اعتبرت ذلك اضطرابا خطيرا في موازين القوى بين المؤسسات العسكرية المتضادة يدعو الاتحاد السوفيتي إلى استغلاله بشن هجوم مفاجىء يعتمد على ثغرة الصواريخ Missile gap . ومع أن الرئيس الأمريكي دوايت ايزنهاور استبعد أن يكون لدى السوفيت القوة الكافية لتدمير أسطول القاذفات الأمريكية فإن ضغط الرأى العام كان من القوة بحيث أجبر المسؤولين على العودة إلى استئناف العمل في برامج إنتاج الصواريخ العملاقة من طراز أطلس ، وتيتان ، ومينوتمان ، وبولاريس ,Atlas, Titan, Minuteman Polaris . وعندما كشفت الأقمار الصناعية الأمريكية في سنة ١٩٦١م عن عدة صواريخ سوفيتية عابرة للقارات ، وتركيزها حول العاصمة موسكو ،

وتبخّرت بالتالي ثغرة الصواريخ كان الوقت متأخراً جدا إذ كانت الولايات المتحدة قد تفوقت على السوفيت بمسافة طويلة في مجال الصواريخ وكان شبح بولاريس ومينوتمان هو الحافز الذي دفع خروتشوف سنة ١٩٦٢م إلى محاولة تطويق شبكة الإنذار الميكرو الأمريكية جغرافيا بنشر الصواريخ السوفيتية في كوبا . وعندما فشل في ذلك تحول إلى الوسائل الدبلوماسية لتخفيف حالة الضغط العالمي التي نجمت عن تلك المحاولة وراح ينادي بتخفيف حدة التوتر الدولي مع استمراره في محاولات التغلب على ضعفه في الأعمال التعرضية ببناء شبكة قوية للدفاع الجوي والأنظمة المضادة للصواريخ .

ومنذ أن امتلك السوفيت المقدرة على توجيه الضربة الثانية التي تعني إمكان امتصاص صدمة الهجوم الأمريكي ثم توجيه الضربة السوفيتية المضادة توارت استراتيجية الردع الجسيم لتترك مكانها لاستراتيجية الرد المرن كمذهب الولايات المتحدة المعتمد . وتضمنت هذه الاستراتيجية الجديدة فرضية القدرة على إحراز النصر في المعارك التي يتم فيها تبادل الضربات النووية عن طريق تطوير قدرة الولايات المتحدة على تدمير الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ومن يدور في فلكهما رغم التعرض لأسوأ هجماتها المحتملة .

وكان من الواضح آنذاك أنه لم يعد هناك أمل للدفاع في مواجهة الهجوم النووي . فمثل هذا الهجوم يستطيع أن يختار الوقت والمكان الملائم وأن يحدد الحجم المناسب للضربة الأولى . وسوف يتحول كل طرف بعدها إلى محاولة تقطيع أوصال الطرف الآخر بكل شراسة وعنف حتى ينضب معين أحدهما من الأسلحة النووية . وتحت هذه الظروف الوحشية لن يكون هناك غالب ومغلوب . لقد كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يمتلكان في سنة ١٩٦٢من بعد أزمة الصواريخ الكوبية ما يكفي من القوة النيرانية لتدميرهما تدميرا لا حياة لأيهما بعده . وبعد أن أدركا هذه الحقيقة صارا يعتبران السلاح النووي «رادعا نهائيا» وصار من الميسور منع الهجوم النووي المفاجىء بمجرد التلويح بأن الجزاء سيكون من جنس العمل . أما احتمالات الهجوم التقليدي ضد المانيا الاتحادية بقوة متفوقة فسوف يتوقف تلقائيا عند حده خشية أن

يتجاوز القتال العتبة النووية . ولم يعد لهذه الخشية المتبادلة من غنى عن امتلاك مصداقية العمل في المعسكرين حتى تستكمل قدرتها الرادعة التي لا تترك لأي منهما بصيص أمل في جدوى الضربة الأولى . وهكذا أيقن العالم أجمع بأن ما يوقف الحروب العالمية عن الاشتعال هو الخوف من التدمير الأكيد المتبادل ، إذ أصبح كل طرف قادرا على امتصاص الضربة الأولى ، وتوجيه الضربة الثانية ليحطم أي أمل لخصمه في النصر . وحتى يستقيم أمر هذه الموازين النووية صار من مصلحة الأطراف المعنية أن يؤمن كل طرف بامتلاك الطرف الآخر القوة الرادعة الكافية والمؤمنة . إن مثل هذه القوة تكفي لوأد أي أمل في شن الضربة الأولى . وإذا ما خامرت أي طرف الشكوك في مدى تعرضه لضربة غير متوقعة فسوف يبرز عندئذ خطر اعتناق سياسة القذف بمجرد الإنذار التي سوف تزيد من احتمالات نشوب الحرب بالصدفة .

وعندما أحس الاتحاد السوفيتي بعجزه عن تطبيق السياسة الهجومية لجأ إلى التركيز على تبني سياسة الدفاع ، فراح يبذل الجهد الكبير في تطوير أجهزة الرادار والصواريخ سطح ـــ جو والطائرات الاعتراضية . وقد نجح في نهاية الخمسينيات في تطوير الصواريخ المضادة للصواريخ «ABMS-Anti-Ballistic Missile» التي أقام بعضها حول موسكو قبل نهاية الستينيات . وإدراكا منه لأهمية هذه الصواريخ المضادة للصواريخ فقد راح منذ سنة ١٩٦٢م ينادي بالحد من الأسلحة . ورغم الشواهد على قلة جدوى الصواريخ المضادة للصواريخ فقد بدأت الولايات المتحدة سنة ١٩٧١م برنامجا لإنتاج أسلحة متطورة ذات رؤوس متعددة MIRVed Weapons لتتفوق على ما يملكه السوفيت وذلك في نفس الوقت الذي كان يعلن فيه نيكسون ووزير دفاعه ملفين ليرد Melvin Laird أن الولايات المتحدة غير مهتمة بتطوير قوة الضربة الأولى ، وأنها لم تخطُ خطوة واحدة في هذا الاتجاه .

لقد أفسدت هذه الصواريخ ذات الرؤوس الحربية المتعددة موازين الردع ، إذ أصبح كل صاروخ منها قادراً على تدمير العديد من صواريخ الخصم على الأرض . وما دام لكل صاروخ رأس حرب واحد ، ومع وضع احتمال الفشل

موضع الاعتبار ، فليست هناك جدوى حقيقية من استخدام هذه الصواريخ لتدمير مثيلاتها ، وبخاصة أن احتمالات الإصابة المؤكدة كانت نسبتها تقل دائما عن الواحد الصحيح . ولكن الصواريخ متعددة الرؤوس الحربية قلبت هذه الحقيقة رأسا على عقب إذ أتاحت للمهاجم دقة التصويب الأفضل التي زادت من فرصة إصابة كل رأس حر هدفه المحدد وتدمير صومعة الصواريخ المعادية تدميرا مؤكدا . وهكذا تحولت ميزة التراشق بالصواريخ لصالح المعتدي . وقد قامت الولايات المتحدة باختبار هذه الأسلحة الجديدة لأول مرة سنة ١٩٦٨م قبل أن تعدها للعمل سنة ١٩٧٠م ولم يتأخر رد الفعل السوفيتي كثيرا إذ أجرى اختباراته على الصواريخ متعددة الرؤوس الحربية عام ١٩٧٣م حيث نصب منصاتها على اليابس سنة ١٩٧٥م ، كما زود بها غواصاته سنة ١٩٧٩م . ولم يحل عام ١٩٨٠م حتى كانت هذه الصواريخ السوفيتية متعددة الرؤوس الحربية قد صارت تشكل خطراً حقيقياً على صوامع الصواريخ البالستيكية الأمريكية العابرة للقارات مما حدا بالحكومة الأمريكية إلى المبادرة بتصنيع الصواريخ ام ــ اكس MX لإحكام الدفاع عن جبهاتها المهددة .

وقد حدث تحول جذري في موازين التبادل خلال سنة ١٩٧٣م عندما حل شليزنجر Schlesinger محل ليرد ثم راح ينوه بقدرة الولايات المتحدة على كسب الحرب النووية . وقد أتم شليزنجر وضع الأسس العملية لهذه الفكرة عندما راح يقلل من شأن الاستعداد الأمريكي ويرفع من قدر القوة السوفيتية أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي . ولم يفت شليزنجر وهو في هذا الموقف أن يرسم السيناريو المقترح للضربة السوفيتية الأولى التي قدر لها أن تنجح في تدمير صوامع الصواريخ الأمريكية وأن تتسبب في قتل ٨٠٠ ألف مدني فقط . وأكد شليزنجر أن رئيس الولايات المتحدة سوف يأمر بالاستسلام خشية أن تقابل أي ضربة مضادة بتدمير المزيد من المناطق الأمريكية المأهولة بالسكان . وهكذا أثبت شليزنجر مصداقية الحرب النووية ونتائجها المحتملة شريطة أن تمضي الحكومة الأمريكية قدماً في إقامة صوامع

الصواريخ ام ــ اكس . أما التقدير الأكثر واقعية للخسائر البشرية المحتملة من هذه الضربةالأولى فيناهز العشرين مليونا من الضحايا . ومثل هذه الخسائر الهائلة في أرواح المواطنين الأمريكيين سوف يدفع الرئيس إلى الرد وبخاصة أن الركيزتين الأخريين لقوائم الردع الثلاثية لم ينلهما أي ضرر . إن قرار نشر الصواريخ ام ــ اكس MX داخل الصوامع الجاهزة حالياً بدلاً من تجهيز أماكن جديدة لها ، يحمل أخطاراً داهمة على أمن الولايات المتحدة يماثل في ضرره ما يمكن أن يحدث للولايات المتحدة إذا هي تركت الروس طواعية ليكيلوا لها الضربة الأولى .

حرب العصابات : Guerrilla Warfare

قطعت الأسلحة النووية من تكامل القوات المسلحة ، إذ كفلت لمن يملكها تفوقا عظيما في قوة التدمير على من لا يملكها . ومع ذلك فعندما يعني استخدامها تصعيد الأمر من مجرد قتل آلاف البشر إلى محو مجتمعات بأسرها يصبح استخدامها عندئذ غير واقعي وما دام الخصوم من أعضاء النادي النووي يستطيعون الرد بالسلاح نفسه فإن الخطر الماثل منه يكفي عندئذ لجعل هذا النوع من التهديد غير محتمل . وهكذا لم يعد امتلاك تلك الأسلحة يعني شيئا بين الخصوم من أعضاء النادي النووي ، إذ أن استخدامها يعتبر والحالة هذه ضربا من الحماقة . إن أحداً من العقلاء لن يرضي أن يحول الأرض إلى كومة من الرماد عقيم الفائدة ليحظى بالنصر على عدوه . وبهذا لم يعد التفوق في قوة النيران وحده قادرا على كسب حروب العصابات التي توارت داخل دائرة الظل بين عمالقة الأسلحة النووية . ولسوف نعالج في الفصل الثامن تكتيكات واستراتيجيات الجانبين اللذين يخوضان حرب العصابات والموقف الجغرافي لأرض المعركة . وبتعبير استراتيجي فإن حرب العصابات هذه تقبع داخل فجوة صغيرة تقع بين جبهة التفوق النووي غير المستغل وبين جبهة الرغبة والقدرة على خوض القتال البري من جانب الدول الكبرى . وفي ضوء هذه الظروف يظهر المعنى الحقيقي وراء تصريح المستر جون بويد John Boyed أحد

المفكرين الأذكياء في وزارة الدفاع الأمريكية **Pentagon** بأن الحرب الناجحة قد أصبحت اليوم حربا نفسية وليست عضلية . أما طريقها المستقبل فسوف يتجه أكثر صوب خفة الحركة والخداع للبحث عن نقاط الضعف في الخصم بدلا من مناطحته في معارك مضنية . وهكذا نصل إلى الخلاصة التي تبين أن صن تزو كان على حق فيما قاله منذ أربعة وعشرين قرنا من الزمان .

مراجع الفصل السادس

تم تحليل الاستراتيجية البحرية البريطانية بمعرفة :

A.T.Mahan The Influence of Sea Power upon History, 1660-1783 (Little, Brown, Boston,1890)

يمكن الرجوع إلى دعاة خفة الحركة في :

B.H.Liddell Hart Strategy (Praeger, New York,1967)

J.F.C. Fuller A Military History of the Western World (Funk and Wagnalls, New York,1956)

K.Macksey Guderian : Creator of the Blitzkrieg (Steing and Day, New York, 1975)

للاستزادة من استراتيجية القوات الجوية والذرية ننصح بالرجوع إلى دراسات جينز الممتازة وكذا ماتلوف وماكنتوش وكيسنجر وبوشان في :

M.Howard (ed) The Theory and Practice of War (Indiana University Press, Bloomington,1965)

We have already referred to a particularly well-informed volume on nuclear strategy and logistics in Scoville's MX: A Prescription for Disaster.

الفصل الرابع
الجيوبوليتيكا والاستراتيجية العظمى
GEOPOLITICS AND GRAND STRATEGY

«إذا أحاطت حدود ثلاث دول بدولة تقع وسطها فستصبح أرضها مركزا يضمن لمن يهيمن عليه أن يكسب تأييد كل البشر»

صن تزو **Sun Tzu** (الفصل ٢ ، الفقرة ٦)

ليس من السهل تحديد مدى التأثير المباشر للأفكار الجيوبوليتيكية على السياسة والعمل . إن تلك الأفكار لا تتعدى كونها مجرد انعكاس لفجاءات الزمن . كما أنه ليس من الواضح ما إذا كانت النظرية هي التي تجعل قرار الحاكم عقلانيا ، أم أن النظرية هي التي تطلق الشرارة التي تحمل هذا القرار . ولكن الشكوك تجد أرضا خصبة في كل كلمة مكتوبة أو تعبير فصيح في التعميمات الجغرافية التي شجعت الخيار السياسي فجعلته يرتكب أعمال العنف .

ماهان واستراتيجية الولايات المتحدة :

لقد حققت الحكومات البريطانية المتعاقبة منذ العهد التيودوري **Tudor Period** أهدافا جغرافية بفضل الوسائل الدبلوماسية والعسكرية . وقد حرصت جميعها على أن يظل مصب نهر الراين المواجه للجزر البريطانية عبر بحر الشمال ، والذي يعتبر البؤرة الأطلسية لوجه أوربا ، بعيدا عن هيمنة أية قوة برية سواء أكانت أسبانية أم فرنسية أم المانية . وكانت الوسيلة الحربية لتحقيق ذلك هي الأسطول البريطاني العتيد الذي كان نداً في أي وقت لأسطولين مجتمعين من تلك الدول الثلاث . وقد تمركز الأسطول البريطاني في أماكن تكفل له الهيمنة على الطرق البحرية المؤدية إلى القارة الأوروبية والخارجة منها . أما الامبريالية الأمريكية عبر البحار فقد تأثرت بداياتها بكتابات ألفرد ماهان **Alfred T. Mahan** عام ١٨٩٠م.إلا أن هذه الهيمنة البريطانية تعتمد بالدرجة الأولى على سيطرة الأسطول الملكي على موازين القوى في قارتي أوروبا

وآسيا . وبناءً على ذلك فإن حصول الولايات المتحدة على الأمن وبلوغها مرتبة العظمة بين دول العالم يتوقف على امتلاكها لأسطول حربي يفوق الأسطول البريطاني في القوة وفي عدد القواعد البحرية الأمامية التي تكفي لإيواء هذا الأسطول ليسيطر على المحيط الهادي . وكانت اليابان هي المنافس التقليدي في هذا المضمار . وظل ماهان طيلة تسعينيات القرن الماضي يؤكد حاجة الولايات المتحدة إلى سلسلة من القواعد البحرية تمتد من كوبا عبر قناة بنما التي كانت عملية حفرها قائمة وقتها على قدم وساق ، وحتى جزر هاواى . ووجدت هذه الأفكار في بعض أفراد الطبقة الحاكمة مثل هنري كابوت لودج **Henry Cabot Lodge** وتيودور روزفلت **Theodore Roosevelt** دعاة لمذهب ماهان ، خاصة وأن احتمالات كسب أسواق جديدة ومناطق إضافية للتبشير جذبت اهتمامات رجال الأعمال والكنيسة . أما إشارة بدء العمل فجاءت مع ثورة كوبا على أسبانيا سنة ١٨٩٥م ثم زاد المتطرفون أفق ماهان سعة بموافقته ليشمل جزر الفلبين وطالبوا بإرسال تجريدة عسكرية لتغرس العلم ذي النجوم والأشرطة في الأرض الفلبينية .

وبعودة التجريدة الأمريكية من المسرح الأوربي سنة ١٩١٧ ــ ١٩١٨م ركزت الاستراتيجية العالمية الأمريكية على محيط واحد فقط هو المحيط الهادي ، وتركت مصالح الولايات المتحدة في المحيط الأطلسي في رعاية الأسطول الملكي البريطاني . وفي مطلع العشرينيات قام المخططون العسكريون بوضع الخطة البرتقالية **Orange Plan** للحرب البحرية مع اليابان إلا أنهم عادوا في منتصف الثلاثينيات فقرروا أن هزيمة اليابان لن تتم إلا بخسارة كبيرة تتضمن التخلي لها مبدئيا عن الفلبين . ونتيجة اختلاف الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة الأمريكية على وجهة النظر هذه فقد اضطرت القيادة العامة سنة ١٩٣٨م إلى فرض حل وسط يرعى أهداف الجيش الذي أصر على ضرورة تركيز الدفاع حول المثلث الاستراتيجي الذي يبدأ عند شبه جزيرة ألاسكا ويمر بهاواى وينتهي ببنما مع استعداد الأسطول لخوض حرب هجومية عبر جزر المحيط الهادي بحاملات الطائرات وقوات الغزو البحري . إلا أن بساطة هذه الخطط

لم تصمد للأحداث التي وقعت بين سنة ١٩٣٩م وسنة ١٩٤٤م التي حولت الاهتمام من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي وفرضت على الولايات المتحدة أن تخوض الحرب مع حلفائها ضد عدة أعداء . وتبع ذلك أن امتد المجال الجغرافي للاستراتيجية الدفاعية الأمريكية من القارة الأمريكية ليضم نصف الكرة الأرضية حتى يستطيع حماية الجزر البريطانية من الفناء الذي كان يتهددها وقتئذ ، على اعتبار أن بقاءها يشكل أمراً حيويا لأمن الولايات المتحدة نفسها . وهكذا تحطمت كل حجج الجنرال دوغلاس ما ك آرثر قائد مسرح المحيط الهادي أمام منطق الجنرال جورج مارشال رئيس الأركان العامة الأمريكية الذي أصر على أن يتخذ مسرح المحيط الهادي وضع الدفاع حتى يمكن حشد معظم القوات في المحيط الأطلسي . وحملت الخطة دوغ **Plan Dog** التي وضعت عام ١٩٤٠م منطق جورج مارشال **George Marshall** سالف الذكر ، إذ اشتملت على عدة خطط لعمليات برية سوف تدار في أوروبا بالتعاون الوثيق مع البريطانيين . وقد ترتب على ذلك أن اختلط المذهب الجيوبوليتيكي بتعقيدات العمل فيما تلا ذلك من أحداث .

ماكيندر والجيوبوليتيكا :

كانت آراء السير هالفورد ماكيندر **Sir Halford MacKinder** البسيطة هي المصدر الثاني الذي ترك آثاره على الأفكار العالمية . ولقد خرج السير ماكيندر على الناس في عام ١٩٠٤م بنظرية محور التاريخ **Pivot of History** التي زعم فيها أن التاريخ كان يدور حول محور سهول وسط وشمال أوراسيا التي يتعذر على السفن أن تصل إليها بينما يسهل على كوكبة من الفرسان أو قطار من عربات السكة الحديدية أن تجتازها . بهذا المفهوم ، وبصرف النظر عن وضع روسيا الدستوري أو الاجتماعي ، فإنها بصفة كونها الوريث الوحيد لامبراطورية المغول ، تستطيع أن توجه للعالم أجمع أقوى الضغوط السياسية . ويمكن أن تصل هذه الضغوط إلى أربعة أقاليم هامشية في قارتي أوروبا وآسيا ، حيث تستطيع روسيا أن تستعرض قوتها البحرية . هذه الأقسام الهامشية

الأربعة هي : شرق آسيا ، وجنوب آسيا ، والشرق الأوسط ، وأوربا . وقد قام السير ماكيندر بعد الحرب العالمية الأولى بتنقيح نظريته ، وغير مصطلح محور التاريخ ليصبح «قلب الأرض» كما بين أن قلب الأرض يشقه هلال داخلي يضم الأقاليم الأربعة الهامشية سالفة الذكر ، ويحوطه هلال خارجي. يضم الجزر البريطانية ، وأفريقيا جنوب الصحراء واليابان . وتتجسد المقاومة الأساسية لجاميع كتل اليابسة عندما تصطرع القوة البرية لقلب الأرض مع القوة البحرية لهذه الأهلة . وكان هدف ماكيندر من هذا التعديل الذي أدخله على نظريته أن يحذر الساسة البريطانيين من الخطر المحدق بامبراطوريتهم إذا ما اتحدت المانيا وروسيا ضدهم . وهكذا تحول مركز الصراع السياسي إلى الغرب صوب أوروبا الشرقية وأصبح نجاح أي طرف في ضم ألمانيا إلى قلب الأرض **heartland** يعني هيمنته على أكبر جزر العالم قاطبة وهي جزيرة أوراسيا ، فإذا ما هيمن عليها امتلك زمام العالم أجمع . كانت ألمانيا هي التربة الخصبة لبذور مثل تلك الآراء السياسية الجغرافية التي زرعها راتزل **Ratzel** في ثمانينيات القرن ١٩ .

أما اصطلاح الجيوبوليتيكا فقد سكه السويدي رودلف كيلن **Rudolf Kjlen** العسكري البافاري الارستقراطي الذي كان مراقبا في الأركان العامة في اليابان وجنوب شرق آسيا فيما بعد سنة ١٩٠٠م ومن أهم دعاة الجيوبوليتيكا . وقد عمل رودلف هيس **Rudolf Hess** ياورا له خلال الحرب العالمية الأولى . وبعد الحرب شن هاوسهوفر حملة ضارية ليكسب الاعتراف بالجيوبوليتيكا كأداة قوية للدولة . وفي سنة ١٩٢٤م بدأ يصدر مجلة واسعة الانتشار اسمها **Zeitschiftfur geopolitik** كما استضاف في منزل العائلة الضيق بميونيخ أعضاء الحزب النازي الجديد وراح يتردد على ادولف هتلر في سجنه عندما كان يؤلف كتاب كفاحي **Mien Kampf** . ومع أن هتلر نفث آراءه الجيوبوليتيكية في صفحات هذا الكتاب المليء بالحقد العنصري فإن هاوسهوفر وغالبية من كتب في الجيوبوليتيكا ظلوا بمعزل عن تلك العنصرية . ولما رفض هاوسهوفر التخلي عن زوجته اليهودية فقد مركزه في الحزب النازي الذي كان يتطلع أن يصل بمساعدته إلى منصب وزير التعليم .

لقد زودت مؤلفات السير ماكيندر هاوسهوفر بمنظار خاص للدنيا إذ تحول خطر التهديد الذي كان يتعرض له الحكم البريطاني للبحار إلى دعوة للبحث عن تحالف مع روسيا لكسر الاحتكار الأنجلو سكسوني للقوة بما فيها قوة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد كتب هاوسهوفر في سنة ١٩١٣م يقول إنه إذا ما اجتمعت كلمة اليابان وروسيا والقوة الامبراطورية في وسط أوروبا على شد أزر بعضها البعض فلن يستطيع أحد أن يناطحها . ولما وضعت المفكرة النازية للهيمنة على العالم ظهر أنها خطة مرنة تهدف إلى تحقيق هدفين جيوبوليتيكيين هما :

الهدف الأول :

السيطرة على قلب الأرض .

الهدف الثاني :

تدمير القوة البحرية البريطانية والأمريكية .

ويظهر ذلك جليا في كتاب كفاحي الذي يردد صدى صوت هاوسهوفر لمعزوفة ماكيندر . ولم يدخر هاوسهوفر وسعاً للتقرب إلى روسيا ، فلما تم توقيع الاتفاق بين هتلر وستالين في أغسطس سنة ١٩٣٩م شعر هاوسهوفر بأن آماله باتت قيد التحقيق بفضل هذا المحور الجديد الذي ربط بين نهري الراين والآمور وما بعده شرقا حتى جزر اليابان . أما هتلر فلم يكن هذا المحور في نظره أكثر من وسيلة مؤقتة لتحييد روسيا حتى يفرغ من التهام بولنده . واستمر هاوسهوفر يدعو لهذا التقارب حتى بعد أن ألغى هتلر الاتفاق عام ١٩٤١م الذي اعتبره هاوسهوفر غلطة جيوبوليتيكية سبق أن وقع فيها كل من نابليون وفون فولكنهاين **Von Falkenhayn** عندما راحا يصارعان الأصقاع الفسيحة بقلب الأرض . وعندما شن أدولف هتلر عملية باربروسا **Barbarossa** تمزقت نظرية ماكيندر الثنائية و ضاع أمل هاوسهوفر في تحقيق محوره . ولم يكن أحد من علماء الجيوبوليتيكا قد نظر في عواقب تحالف القوة البحرية الأمريكية والبريطانية مع القوة البرية الروسية ، ولا كان هتلر نفسه

يرغب في التورط في حرب مع القوة البحرية البريطانية بل استمر يؤكد ضرورة بقاء الامبراطورية البريطانية كقوة لا غنى عنها للنظام العالمي . ولكن علماء الجيوبوليتكا توقعوا نهاية هذه الامبراطورية وانتقال مقاليد الزعامة إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن الواضح أن ضباب عنصرية هتلر قد طغى على مفعول وآثار الجيوبوليتيكيين الألمان ولو كان العكس صحيحا وطغت الأفكار الجيوبوليتيكية على مفهوم هتلر لكان من المحتمل أن تكون ألمانيا في وضع غير مكشوف .

أحزمة الأمن ورقعة الضامة Shatterbelts and Dominoes

دعت التركيبة السياسية الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانفكاك القيود التقنية المفكر شاؤول كوهين Saul Cohen إلى تشبيه جغرافية السياسة الدولية بالقلب وأحزمة الأمن . وكان فيرغريف Fairgreve قد سبق أن استخدم سنة ١٩١٥م الاصطلاح «منطقة السحق» Crush Zone في وصف شرائح الدول الصغيرة الواقعة بين قلب الأرض والقوى البحرية . وقد عرف ويتلسي Whittlsey الدول المانعة الصغيرة فيما كتبه سنة ١٩٤٢م عن الأقطار الواقعة بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي والتي كان علماء الجيوبوليتيكا الألمان قد وصفوها جغرافيا في الثلاثينيات بأحزمة الأمن . ومن الواضح أن أي مجموعة من القلوب وأحزمة الأمن تشكل دولة مؤقتة في خضم العملية الديناميكية ذلك لأن قوى الصراع تتحكم في قيام وسقوط هذه القلوب وفي جمع شعث أحزمة الأمن .

وقد ظهرت صورة واحدة تجسد هذه الشخصية للجغرافيا السياسية فيما أطلق عليه نظرية الضامة Domino Theory . ويبدو أن الصورة التي تعرضها هذه الشخصية الجغرافية السياسية قد ألقت ظلها على الكثير من القرارات العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية على امتداد ربع القرن المنصرم وأن هذه الصورة استخدمت في الجدل الذي ساند هذه القرارات . ولا تزال نظرية الضامة معتمدة إذ صرح الرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan في أثناء حملته

الانتخابية سنة ١٩٨٠م بأنه «ينبغي على العالم ألّا يخدع نفسه . فالاتحاد السوفيتي وراء كل مظاهر القلق التي لا تفتأ تطرأ هنا وهناك . ولو لم يكن الكرملين منغمساً في لعبة الضامة لما كانت هناك بقع ساخنة على وجه الأرض» . أما وزير الخارجية الأسبق الكسندر هيغ Alexander Haig فقد أكد مراراً وتكراراً على أسلوب المراوغة الذي ينتهجه الاتحاد السوفيتي والذي يبدو بأجلى صورة في حث الحكومة الكوبية على مد العصابات بالمعونة والدعم في السلفادور ، إلى جانب ما يبذله العقيد القذافي من جهود لابتلاع تشاد وتشجيع منظمة سوابو SWAPO على انتهاك أراضي ناميبيا من قواعدها في أنغولا . وقد بعثت نظرية الضامة من جديد إبان الأحداث الدامية بأمريكا الوسطى في ربيع سنة ١٩٨٢م عندما ظهرت مجلة التايم الأمريكية وهي تزين غلافها بشعار الضامة المتهاوى . وكان كتاب هنري كيسنجر عن سنوات الكوارث قد صدر في نفس الوقت وقد نبه فيه على صحة النظرية التي تدّعي بأن أي نصر لفيتنام الشمالية على حساب الحرية والاستقلال الوطني لشعوب جنوب شرق آسيا سوف يحمل أوخم العواقب . وهكذا أثبتت نظرية الضامة أنها الصواب بعينه .

ولقد تمثلت الخشية من هذه النظرية العالمية في الأربعينيات عندما تعرضت دول البحر المتوسط للوقوع في حبائل الفلك السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية . وكانت هذه الخشية هي الدافع لإصدار مبدأ ترومان لمواجهة أخطارها . ثم كشف وليام بوليت William Bullitt اللثام عما كان يحيط بالعالم من أخطار داهمة في مقاله المنشور بمجلة لايف الأمريكية سنة ١٩٤٧م . وتأتي أهمية هذا المقال من خبرة بوليت كسفير سابق للولايات المتحدة في كل من باريس وموسكو التي أضفت أهمية زائدة على مقاله عن الخطر الشيوعي الماثل وراء القوة الروسية التي باتت تهدد العالم من خلال الصين وجنوب شرق آسيا . وكان ذلك بمثابة نموذج سياسي جديد لخطر الجحافل الآسيوية التي تدفقت في العصور الوسطى من سهوب وسط آسيا لتجتاح العالم المتحضر على نحو ما بينه اللواء البريطاني فولر في كتاباته على سبيل المثال . وإذا ما قارنا

ذلك بأسطورة سياسة التوسع المنهجي الروسي التي ترجع إلى أيام بطرس الأكبر Peter the great أدركنا حقيقة الهدف الأساسي من هذا الفكر العدواني طبقا لما تؤكده الأسطورة ، وهو الوصول إلى منافذ المياه الدافئة . لقد دارت أول حرب روسية مع الامبراطورية العثمانية ضد خان القرم Khan of Crimea في عام ١٦٨٨م عندما أرادت ولية العهد صوفيا Regent Sophia أن تستولي على شبه جزيرة القرم ليس لغرض الوصول إلى البحر ولا لشن حرب صليبية جديدة لتحرير القسطنطينية ولكن لتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة مع بولنده والتي كانت تنص على استعادة كييف . ومهما كان الدافع إلى هذه الحرب فإن النتائج الجيوبوليتيكية لها مازال يتردد صداها في الآفاق البعيدة . فقد كانت المحرك الحقيقي لأزمة الحدود مع الصين والدافع إلى استمرار المواجهة عبر نهر الآمور Amur River . لقد امتص تتار القرم القدرة الحربية السوفيتية وضيعوا عليها فرصة التقدم صوب المحيط الهادي . وأثمرت المحادثات مع الصين التي تمت تحت ضغط شديد معاهدة نيرشنسك Treaty of Nerchinsh التي أهدت حوض نهر الآمور كله للصين وإن كانت روسيا قد نجحت في أن تستعيده مرة ثانية في خمسينيات القرن الماضي بعد أن أعلنت عدم سريان المعاهدة وبهذا استجد الصراع علي حوض النهر ولا يزال قائما .

وعندما اندلعت الثورة الماركسية في أكتوبر ١٩١٧م حلت الحمية الشيوعية محل أطماع آل رومانوف ، والروح الصليبية للكنيسة الأرثوذكسية ، والنوازع العنصرية للجنس السلافي ، والخوف الدفين الذي ترتب على سقوط اسطنبول في يد محمد الفاتح والذي كان بمثابة شهادة الميلاد للدولة الروسية . وتولد عن ذلك قوة دافعة أسطورية جديدة لتسيير حركة تدفق الجحافل الآسيوية المتوقعة . وكثيرا ما تبدو الأسطورة في صورة معقدة ، اذ ارتبط امتداد الشيوعية نحو الجنوب الشرقي بإمبريالية أسرة هان العنصرية . وقد خرج علينا الجغرافي هـ . ج . وينز H.J.Woiens سنة ١٩٥٤م بأنموذج أكاديمي لتبرير بوليت التدخل الأمريكي في فيتنام . وحتى يتمكن الاستراتيجيون السوفيت من إقامة امبراطوريتهم الشيوعية الجديدة لم يكن من مناص أن يشنوا اقتحاما

سياسيا عسكريا ضد القوى الاستعمارية على غرار ما فعلته أسرة هان قبلهم عندما ظلت تتوسع من ضفاف نهر اليانغتسي نحو الجنوب لنيف وثلاثة آلاف عام . ولماكان وينز أكاديميا من رأسه حتى أخمص قدميه فقد راح يحلل الضغط الواقع على جنوب فيتنام وكمبوديا ولاوس وتايلاند وبورما والملايو على زعم أنه يمثل القوة الكامنة لأسرة هان التي تتجسد اليوم في القوة السوفيتية الجديدة .

وكان الأدميرال آرثر رادفورد **Arthur Radford** أول من استعمل تشبيه صفوف الضامة في عام ١٩٥٣م عندما كان يدعو هيئة الأركان المشتركة الأمريكية إلى استخدام القصف النووي بقنابل القاذفات التي تعمل من فوق أسطح حاملات الطائرات لإنقاذ ديان بيان فو . وسريعا ما التقط الرئيس أيزنهاور هذا التشبيه ليحذر من أن ضياع الهند الصينية سوف يترتب عليه سقوط كل جنوب شرق آسيا مثلما تسقط أحجار الضامة . ولم يمر شهر واحد حتى تبين خطأ التدخل ومشكلاته فإذا بأيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس **J.F.Dulles** يتنكران لهذا التشبيه ويبديان القدرة على استمرار الحفاظ على بقية آسيا حتى ولو ضاعت الهند الصينية كلها . وهكذا أحاطت الشكوك والريبة بهذا التشبيه منذ لحظة مولده . وكانت بذرته قد زرعتها الدواوين الحكومية الأمريكية وهي تنادي بتوثيق عرى الصداقة مع حكومة فيتنام الجنوبية الصديقة كضرورة استراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية . وحول هذا الوقت كان أنموذج الضامة يتحول من تشبيه إلى نظرية .

وكان والت روستو **Walt Rostow** وماكسويل تايلور **Maxwell Taylor** هما الداعين الرئيسيين لنظرية الضامة في إدارة الرئيس كينيدي **Jhon. F.Kennedy** وقد نجحا في كسب تأييد روبرت ماكنمارا **R.McNamara** . ولم تمر أشهر قليلة على تنصيبه حتى انهمك كينيدي في تمحيص نظرية الضامة زاعماً أن هيمنة الشيوعيين على لاوس قد تهدد المركز الاستراتيجي للعالم الغربي في جنوب شرق آسيا .

وقد حاول خصوم هذه النظرية هدمها عن طريق إماطة اللثام عن الحقيقة

الأكبر والأشد الحاحاً على الشعوب المحلية ، والتي تتمثل في العداوات القديمة بين كل من البورميين والطاي والخمير ، والأناميين من جانب والملاويين والجاويين والفلبينيين والأندونيسيين من جانب آخر ، أكثر من تمثيل العداوة بين الممالئين للمذهب الشيوعي وبين المناوئين له . ولما كان مصدر عدم استقرار هذا الإقليم هو الشعور العرقي الدفين يضرم جذوته أي وجود أجنبي بين ظهرانيه فإن التدخل المبني على نظرية الضامة يصبح بمثابة الجرثومة التي يجب محاصرتها . أما عن الوجود الصيني في الإقليم نفسه فيعتبر حقيقة جغرافية أكثر منها أيدلوجية جغرافية استراتيجية . كما أن الزعم بأن الصين بيتت النية لمد رقعتها الأرضية خارج حدود امبراطوريتها فلا يستند إلى أي أساس متين ويمكن أن توضع أمامه علامة استفهام كبرى .

وتعرضت نظرية الضامة للشكوك والريب بفعل تداعى الأحداث في أندونيسيا بعد وفاة الرئيس سوكارنو سنة ١٩٦٥م عندما تعرض أعضاء الحزب الشيوعي للمذابح الدموية . وقد انتصب عود هذه النظرية قائما دون تدخل من جانب الولايات المتحدة ، وبرغم أن الكثيرين كانوا يظنون أنها أضحت غير ذات موضوع . وكان روبرت ماكنمارا **Robert McNamara** قد اقتنع منذ شهر مايو ١٩٦٧م بخطأ نظرية الضامة وحاول تصحيحه بالسعى لإقناع الرئيس جونسون بضرورة بذل محاولة اقتراب ذات طابع سياسي أكثر منه عسكري . وقد أشار ماكنمارا إلى القضية الأندونيسية كما نوه عن بواكير الاتجاه إلى عودة الانتماء للصين ، وقد ورث نيكسون هذه الفكرة مع منصب الرئاسة وصرح لمجلة التايم في شهر يونيو ١٩٧٠م بقوله : «إنني أعلم أن هناك من يعتقد أن نظرية الضامة أصبحت مستهلكة . ولكن هؤلاء لم يتبادلوا الحديث مع أربابها من أبناء تايلاند وماليزيا وسنغافورة وأندونيسيا والفلبين وحتى اليابان وغيرهم . ولو تركت الولايات المتحدة فيتنام لتركت الحبل على الغارب لزعماء الصين الشيوعية والاتحاد السوفيتي لمساعدة فيتنام الشمالية وفرض سياستهم التوسعية في مناطق أخرى» .

ولقد ظلت عملة هذه النظرية متداولة حتى عهد الرئيس رونالد ريغان

وامتد مجال نشاطها إلى قارة أفريقيا وأوربا وأمريكا الوسطى . ثم عبر المحيط والقارات ليحط رحاله في ليبيا وتنزانيا ونيكارغوا وإيطاليا . كما تنبأ دعاة هذه النظرية بسقوط تايلاند . وفي عام ١٩٧٦م راحت مجموعة من السياسيين تضم هنري كيسنجر وجيرالد فورد وجون كونالي تحث الزعماء الايطاليين علانية على إبعاد الشيوعيين عن الحكومة الايطالية حتى لا يتعرّض أمن البحر المتوسط للخطر .

وعلى أية حال فما زالت مسألة جنوب شرق آسيا تشكل الاختبار النهائي لقيمة هذه النظرية . كما أن الفحص المتأني لتداعي الأحداث بهذا الإقليم يكشف عن تزايد الدوافع والتعقيدات في الحقبة الأخيرة عما تتوقعه هذه النظرية البادية القوة . وقد أوقع التصرف الأمريكي الأخرق كلا من لاوس وكمبوديا في المصيدة إذ سحب غزو كمبوديا سنة ١٩٧٠م البساط من تحت أقدام الأمير سيهانوك Sihanouk لصالح لون نول Lon Nol الذي سرعان ما أفلت الزمام من يده ليتلقفه بول بوت Pol Pot ويقيم حكومة الخمير الحمر عام ١٩٧٥م . وكان هؤلاء الخمير الحمر بسياستهم الشيطانية في بعثرة سكان المدن مجرد عملاء للصين وعلى خلاف مرير مع هانوى وفيت كونغ اللتين تتمتعان حالياً بمؤازرة السوفيت.ولما اجتاح أبطال فيتنام كمبوديا سنة ١٩٧٢م واستولوا على بنوم بنه استقبلت جحافل اللاجئين إلى شمال كمبوديا وعبر الحدود إلى تايلاند فراراً من أعمال بول بوت بقايا الخمير الحمر .
وكإجراء انتقامي لما ارتكبه الفيتناميون شنت الصين هجوما على هانوى بعد أن نجحت في التقرب من الولايات المتحدة كإجراء وقائي ضد عداوة روسيا . ويواجه احتلال فيتنام لكمبوديا منذ منتصف ١٩٨١م ثلاث مجموعات مقاومة كمبودية تشتمل على الخمير الحمر ، والحركة اليمينية التي يتزعمها سون صان Son Sann والمجموعة التي مازالت موالية للأمير سيهانوك الذي ما انفك يتفاوض مع كل الأطراف المعنية بما فيها الصين . ومع تبخر مخاوف غزو جيش فيتنام لتايلاند وماليزيا وظهور حقيقة ضعفها العسكري والاقتصادي تأكدت القيمة الجيوبوليتيكية لاستقرار فيتنام حتى تستطيع الوقوف كحصن في وجه

الصين . وبمرور الأيام تزداد قناعة شعوب آسيا بجدوى هذا الاستقرار وبمنافعه المتبادلة . وقد أثبت صمود النظام السياسي التايلندي في مواجهة خطر الانقلاب في مايو ١٩٨١م فوائد الاستقرار التي يمكن أن يجنيها الإقليم كله . أما استقراء الأحداث كنذير بقرب سقوط قطع الضامة كلها فيعتبر تبسيطا للأمور بأكثر مما تحتمل ، إن لم يكن إغراقا في التخيل السقيم .

الضامة المضادة Antidomino

طالما أنه لا يوجد توصيف معتمد لنظرية الضامة ، فليس أمام أية محاولة لتحليل هيكل هذه النظرية منطقيا إلّا أن تقتصر على فحص ميكانيكية محتوياتها . إن السقوط المتموج لأحجار الضامة يستمد رشاقته من تنظيمها بمهارة في وضع توازن غير مستقر تكفي هزة واحدة لأن يتهاوى الصف كله ، قطعة تلو الأخرى . وتكمن في كل قطعة طاقة فعّالة مستمدة من وقوفها على طرفها بحيث تكفي صدمة وقوعها على القطعة المجاورة لسقوطها هي الأخرى ، وهكذا دواليك حتى آخر قطعة في الصف الطويل . وإذا ما وجد فراغ في الصف يزيد على طول قطعة الضامة فسوف تتوقف سلسلة السقوط المتتالي عنده . ومن المعروف أن لأحجار الضامة ثلاث حالات فهي إما أن تكون منتصبة ، أو آخذة في الوقوع ، أو أنها واقعة تماماً . وإذا شبهنا حالتي الأخذ في الوقوع بالتحول إلى الشيوعية والوقوع التام باعتناقها فقد تكسب بذلك الرضا النفسي لدعاة هذه النظرية . وعلى الجانب الآخر قد يكون صف الضامة وهو في وضع السقوط التام نوعا من الاتزان المستقر وأن حالتها وهي منتصبة تماما كانت نوعا من عدم الاستقرار . وغني عن القول أن التشخيص الأحمر والأبيض للسياسة التي يتضمنها هذا التحليل يتصف بالسذاجة والمهانة ، فضلا على أنه يخالف منطق التفرّد الجغرافي . فهذا التشخيص يفشل تماماً في إدراك مغزى الشخصية الإقليمية أو الوطنية التي نراها كل يوم وهي تهيمن على مشاعر الجنس البشري حيال الذات والمكان .

ويلاحظ أن اعتداء كل حجر على المجاور له يحدث نتيجة تحول الطاقة

الكامنة فيه إلى طاقة فعالة نتيجة اصطدامه بجسمه ، وهكذا ينتقل الاعتداء من حجر إلى الذي يليه حتى يبلغ نهاية الصف . وأما وجه الشبه بين ما يحدث في هذا الأنموذج من حجارة الضامة وبين الأنموذج الجغرافي الحقيقي للشرائح الأرضية وخاصة فيما يتعلق بالحجم والفواصل فغير واضح . ومن الواضح أن عملية إبرار بحري على شاطىء سان دياغو (الولايات المتحدة) مثلا سوف تتطلب إرساء عدة أحجار ضامة كبيرة في الفلبين وجزر ويك Wake Island وهاواي كما أن وجود فاصل كبير مثل المحيط الهادي يكفي لتهدئة المخاوف من احتمال اعتداء الشيوعيين على شواطىء كاليفورنيا . وعندما توضع هذه النظرية موضع التطبيق فلن ينظر عندئذ إلى المحيطات أو الأوطان التي تقع على طريقها كفواصل تحمل جراثيم العدوى وإن كانت طبيعة عملية انتقال هذه العدوى مازالت غير واضحة المعالم في هذا المثال . وذلك لأن عملية السقوط قد تحدث لزجاجات موضوعة داخل المخزن وليس لشعوب تعيش في أوطانها ، ولهذا فهي لا تصلح لوصف كنه العمل الوقائي المناسب ضدها . وقد استخدم اصطلاح الدعامة للتعبير عن أحد الحلول رغم غموض المقصود منه في مجالات العمل السياسي والعسكري والاقتصادي، أما الإسقاط بمعنى إزاحة إحدى قطع الضامة أو بعضها جانبا بغرض إيجاد فاصل يوقف امتداد النار فيصادف القبول كأجراء عملي من بعض المفكرين العسكريين بخاصة وأن الكثير من القرى والبلدان الفيتنامية محيت طواعية من الوجود ضناً بها من الوقوع في يد الفيت كونغ .

ويبدو أنه من الأوفق أن يضرب مثل أكثر إيضاحا لعملية التحول يحدّد موقع بؤرة هذا التحول ، حتى تتم الصورة الصحيحة لهذه العملية من وجهة نظر الاستراتيجية العظمى . وبالنظر إلى القوة الدافعة التي ما فتئت تثير تنافس البشر على الأرض منذ آلاف السنين ، يمكن أن نستخلص البدهية التي تقول «إن القوة تحفز المراكز الأضعف أو تنشط المراكز المتضادة لتقوية أنفسها» (ماكنيل ــ ١٩٦٣م ــ McNeill 1963) . وإذا ما تخيلنا سهلا مترامي الأطراف تنشأ فيه بؤرة قوة عدوانية ، فسوف نلاحظ أن الحجم

الاقتصادي والحربي والمعنوي لهذه القوة هو الذي يحدد مجال نفوذها تبعاً لدرجة هذا النفوذ ، ذلك لأن القوة الإجمالية إذا ما تم توزيعها بالتساوي فوق مساحة أكبر فسوف تشكل أسطوانة أكثر ارتكازا مما لو جمعت فوق شريحة أضيق . والخلاصة أن شدة القوة المبذولة تتضاءل في تناسب عكسي مع مربع نصف قطر الشريحة الأرضية المحددة ليعطي مجال نفوذ أشبه بالخيمة ذات العمود الواحد . ويمكن تعميم هذه المعادلة لتبيان سبب الاختلافات في الكثافة السكانية عن طريق تحديد معامل جغرافي يحول تجانس الفراغ الإقليدي Euclidean Space إلى الفراغ الجغرافي المتميز . ويشير ذلك إلى أن امتلاك القوة الكافية للتغلب على أية مراكز مستقلة وابتلاعها يتطلب جهدا أكبر كلما اتسعت حدود الإمبراطورية . أما البؤر المستقلة فلا تحتاج إلى طاقة كبيرة لتبرز داخل حدود الإقليم كلما زادت رقعته الجغرافية اتساعاً . إن الصراع الذي ينشب بين امبراطوريتين متجاورتين كل منهما ذات شكل مدمج قمين بأن يكون أشد ضراوة عنه بين امبراطوريتين متباعدتين بعدا كبيرا . كما أن التنافس الذي يحتدم بين الامبراطوريات الآخذة في الاتساع سوف يولد حالة اتزان عند الحدود التي تتعادل عندها مستويات نفوذها . وهناك شواهد تاريخية كثيرة عن عواقب اتساع رقعة الامبراطوريات الذي يؤدي إلى انهيارها نتيجة بعثرة قوتها هنا وهناك . أما الامبراطورية البيزنطية والصينية فقد صمدتا لعاديات الزمن وقتا أطول بفضل تماسك رقعة الدولة وحسن اندماجها في كيان ملتئم . وعلى الطرف النقيض لم تعش كل من امبراطوريات الاسكندر ، وروما ، وجنكيزخان ، ورايخ هتلر الثالث ، وامبراطورية جنوب شرق آسيا ، إلا زمنا يسيراً .

ويشبه الاقتراح الذي طرح كبديل لأنموذج الضامة سالف الذكر التحليل المستخدم في مناطق الأسواق ، كما تشبه النتائج الإحصائية والإنشائية المقارنة تلك التي تنتج عن المنافسة الاقتصادية بين الشعب ، والتي تصلح لفحص طبيعة التنافس الجيوبوليتيكي ويوفر ذلك مصدراً أغنى للحدس والتخمين ، وأساساً لكشف الزيف ، يعتبر أفضل من صف أحجار الضامة المختل .

ولسوف تتأثر النتائج بالضرورة بالغموض نفسه الذي يحجب حقيقة التوازن في معرض مناقشة مجالات احتكار القلّة إلا أن ذلك سوف يكون انعكاسا أصدق للحقائق عن كل المزاعم السطحية عن الإسقاط .

وكخطوة أولى يلزم استجلاء كنه الافتراض الذي يحدد أسلوب امتداد قوة ثابتة الحجم من مركز منفرد للخارج . وقد يتخيل البعض أن كسب المزيد من الأرض يضيف إلى موارد الدولة مصادر أكثر للثروة مما يدعم قوتها المادية ونفوذها في تناسب طردي مع زيادة نصف قطر حدودها يبلغ في معدله (٢ ط) بالفراغ الإقليدي للمساحة . إلا أن هذا الزعم الذي ألهب خيال الفاتحين وبناة الامبراطوريات يبدو أكثر تفاؤلا من وجهة نظر الشواهد التاريخية ، وخاصة إذا ما أغرق في التطلع إلى الهيمنة على العالم . إن هذه الحسابات البسيطة عن ابتلاع الأراضي ذات القيمة الحيوية والتوغل فيها ما اتسع سطح الكرة الأرضية لذلك لا تنسجم مع الشواهد التاريخية عن انتشار سمة الثقافات التي يترتب عليها اضمحلال الطاقة التوسعية وهبوط عجلة اتساع عملية ابتلاع الأراضي الجديدة كلما زحفت الحدود نحو الخارج . ويبدو أن ذلك يؤكد المنحنيات ذات الشكل (S) التي اتصفت بها الابتكارات على امتداد الزمن .ولقد تحققت في القرن المنصرم عدة انجازات تقنية وغطت وجه الأرض ومع ذلك فما زال الأرجح أن الجهد المطلوب لنشر مجال ثقافي ما يتزايد عند الأطراف الخارجية لهذا المجال .

وعندما يمكن التعرف على السمات الثقافية المؤثرة على الدمج السياسي وعلى هياكل السيطرة فسوف تصبح أي زيادة أو نقص عن المعيار أشد وضوحا . أما عن وجهة النظر الاقتصادية فمن البدهي أن تزيد الكفاءة في مجال الاقتصاديات الموجدة إذا ما رفعت الحواجز أمام التبادل التجاري ، وصار الحد من التخصص طبقا لمزايا التكلفة المقارنة (ويمكن بالطبع أن ينتفع بهذه المزايا دون التجانس الإقليمي عن طريق قوة مركزية) . ويبدو أن هناك كراهية سياسية واجتماعية غريزية تقاوم أي حافز إلى الوحدة الاقتصادية . وتعني الحاجة إلى العضوية في كيان شامل مع احتمال التأثير في مجرى الأحداث

أن الكفاءة السياسية تتضاءل مع زيادة مجال نفوذ الحكومة . كما يمكن افتراض الحجم الأمثل لنظام الحكم بمعايير الميزان الاقتصادي ومزايا ضخامته مقابل المزايا السياسية والاقتصادية المترتبة على صغر حجمه . وبصرف النظر عن الخلاصات التي يمكن الوصول إليها فمن الواضح ، مما يؤكده انعزال المجموعات الأصغر التي تقطن قرب أقاليم القوى الكبرى ، أن الفكرة الضيقة عن الجنسية مازالت تعتبر العامل الجيوبوليتيكي الأشد قوة . إن من ينشد الاستقلال بحكم القانون أو بحكم الأمر الواقع غالبا ما يلجأ إلى المنافس الرئيسي المهيمن على الإقليم ليلتمس منه العون . وتعتبر دولة كوبا المثل الواضح لذلك . وربما كان فهم الولايات المتحدة للعلاقة بين الصين وفيتنام الشمالية أكثر فائدة من نظرية الضامة للسياسة الخارجية الأمريكية في النصف الثاني من هذا القرن .

وتعتبر الصورة الذهنية الأكثر مناسبة لاحتمالات التفاعل بين لب القوى الثلاث الكبرى وروافدها الكثيرة الأقل بريقا ، وعملائها وتوابعها وسائر الكيانات المستقلة وغير المستجيبة بالنسبة للسياسات الدولية هي الصورة التي أطلق عليها كيسنجر تعبير الترابط «Linkage» ومرة أخرى لم تُضْفَ الصفة الرسمية على هذا التعبير التجريدي في أي مكان . أما النموذج خلف هذا الجهاز الشديد التميُّز في سياسة نيكسون ـــ كيسنجر فعبارة عن شبكة تصل بين كل أماكن الاضطرابات العالمية وبين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية . ولا يتوقف حل أي صراع على وقائع حالته الموضوعية فحسب بل على الميزان العام للقوى بين الجانبين . وقد اتضح من مواقع الأحداث الأخيرة أن الصين كانت وما زالت تعتبر مجرد ورقة في هذه المباراة وليست واحدة من اللاعبين . ولا شك في أن ذلك يعتبر تصورا أخرق سوف تستغله الصين لأقصى مدى ممكن . ويوجد الخطأ الجغرافي في الوضع النسبي الغريب لهذه الشبكة التي استخدمها كيسنجر ، إذ يوجد فيها نقطتا التقاء وتتصل بكل الباقين بحواف متساوية القيمة . وقد نظر كيسنجر إلى هذه الوصلات على اعتبار أن كل نقط الصراع الدائر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في

مختلف أرجاء العالم متساوية في قيمها . وقد أطلق على نظرية الترابط الأصلية الحرب الباردة الأكبر قليلا واتخذت كمعادلة لديمومة المواجهات على امتداد العالم (Landaw 1972) . ويتعارض ذلك مع النظرة المتموجة التي ترى الأحداث العالمية شديدة الترابط بقدر قرب المسافات الجغرافية أو الإدراكية التي تفصل بينها .

إن النموذج المعدل المشتمل على تأثيرات المسافة بين نقط التقاء الشعوب في شبكة تامة الاتصالات الاقتصادية والسياسية مع حساب هذه التأثيرات من واقع سهولة الاتصالات والتأثير المتبادل بين الحكومات ، قد يساعد في تقدير فعالية الأساليب غير المباشرة لتحقيق الأهداف الجيوبوليتيكية . وقد يشجع ذلك البحث عن الحلول التي تستخدم دروب التأثير الأقوى سياسيا بدلا من الاندفاع نحو العمل العسكري . والواقع أن نظرية الترابط تَفْضُلُ كثيرا نظرية الضامة ، إلّا أن بنيانها المحدود لا يحقق كل المنشود من الاستعراض للحقيقة الجغرافية . فالجغرافيا تطبع في الذهن النزوع إلى المعادلات المستمرة وقد تقلل الطبيعة غير المحدودة لنقط التقاطع في الشبكة من قيمة التمييز الداخلي والسياسة في أعمال الدولة . وقد لاحظ أليستير كوك Alistair Cooke في إحدى «رسائله من أمريكا» أنه تكفي برهة وجيزة في دراسة خريطة جنوب شرق آسيا لصرف النظر عن نظرية الضامة . ومع أن الترابط ينقل المرء من البعد المفرد لنظرية الضامة إلى البعد المزدوج فإنه ما زال يحتاج إلى تكملته بصورة أكثر تفصيلا لعالمنا المعاصر . وهكذا لا تكفي نظرية الضامة ولا نقط التقاطع في رسم الصورة الكاملة لكيانات الجغرافية الثقافية . وحتى يأتي الوقت الذي نتخلص فيه من قيود الزمن فسوف تظل دوافعنا وأعمالنا تتأثر بالمكان الذي نوجد فيه نحن والآخرون وما أحسن أن يضع رجال الدولة ذلك في الحسبان .

السلاسل والأقواس : Chains and Arcs

لقد استخدم تشبيهان في الآونة الراهنة لوصف جغرافية المواجهة بين

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، والكشف عما تحمله هذه المواجهة من أخطار تفاقمت حتى لم تعد مجرد تصورات ذهنية بسيطة ، بل صارت نظرية ذات أسلوب للتنفيذ . وفيما يتعلق بالعمل الهجومي الأمريكي ذكرت مجلة الأيكونوميست أن الرئيس ريغان يرغب في أن يستخدم الصين كحلقة رئيسة من سلسلة الحلقات العالمية التي يريد تطويق الاتحاد السوفيتي بها . وفي عام ١٩٧٨م أطلق المستر زبينو برزينسكي **Brzezinski** مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق اسم «قوس الأزمات» **Arc of Crisis** على سلسلة الأحداث والمخاطر المحتملة لمستوردي النفط في أوروبا الغربية وأمريكا من مصادره الطبيعية في شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا فيما بين القرن الأفريقي وميناء شيتاغونغ .

وربما يكون أكثر ما يضر السلام العالمي نتيجة هذه الفكرة أنها تستند إلى احتواء روسيا بطوق متين من الأعداء الأقوياء . وفي المقابل نلاحظ أن سياسة روسيا الخارجية تهتم بتأمين حدودها على نحو ما أبرزه التاريخ السياسي وأوضح أهميته . ومن الطبيعي أن يترتب على الأقوال والأفعال التي تشكك الكرملين باحتمال تطويق أراضيه بواسطة أعداء يبيتون له نية العدوان أن تزداد مخاوف الكرملين وجنوحه إلى العنف .

ويبدو أن محاولة دمج مجموعة متباينة من الصراعات السياسية العنيفة داخل شريحة أرضية واحدة وإطلاق اسم قوس الأزمات عليها ليست سوى مظهر من مظاهر الشك والريبة التي تملأ وجدان الغرب . ويكشف عن تلك المظاهر فكرة هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق عن الترابط بين ما تعمد إليه موسكو من مبادرات وما يشتعل في العالم من أزمات تلزم الولايات المتحدة والغرب أن يردوا عليها بالعنف ودون أي اعتبار للظروف المحلية . وقد لا يكون مثل هذا التصرف منسجما مع أهداف تأمين موارد النفط . والملاحظ أن قوس الأزمات يمتد على جبهة واسعة جدا تحد من قدرة الطرفين المتضادين على المناورة فيه وسبق الخصم في حركة الوقت والمسافة . كما أن هذا الاتساع الكبير يزيد في الوقت نفسه من احتمال الانزلاق إلى المآزق ، ومن ثم التحول

إلى العنف ، كما أن هذا القوس قد يتحول تحت ظروف معاكسة ليصبح الخندق الأخير .

الجيوبوليتيكا الشيوعية **Communist Geopolitics**

إذا كانت الحقيقة الجغرافية تخفى على خصوم الشيوعية فإن صورة العالم من وجهة نظر المعسكر الذي ابتدع تلك الحقيقة لا تخلو من الخلط في المذاهب التي يعتنقها ومدلولاتها فضلا على المعتقدات التقليدية والتحيزات الموروثة عن الماضي . إن الروس والصينيين والفيتناميين على اختلاف نحلهم السياسية والعسكرية مغرقون جميعا في الأساطير والخرافات التي تضرب في أغوار التاريخ إلى ما قبل ثورة كارل ماركس بكثير جداً . وليس ثمة شك في أن أخطر ما تخشاه روسيا الأم على نفسها من مخاطر تأتي من جانب ألمانيا . أما الصينيون فمنذ أسرة هان الحاكمة وهم يتطلعون إلى التوسع جنوباً ، مع إقامة سد منيع في وجه البرابرة الذين يقطنون السهوب الشمالية والغربية .

وبفحص تعاليم الشيوعية التي تستمد الدولة منها مذاهبها فإننا لن نصادف إلا النزر اليسير من المفاهيم الجغرافية التي توجه السياسة . ولقد جانب كتاب رأس المال **Das Kapital** الصواب في هذا المجال مثلما جانبه في الكثير من المجالات الأخرى . لقد انبهر ماركس بثورة باريس وبالنمو الصناعي في بريطانيا العظمى ، كما كان شديد الثقة بأن حروب الطبقات سوف تندلع في مدن الغرب . غير أننا لا نصادف في كتابات ماركس أي شرح عن حروب الطبقات هذه ، وكيف وأين سوف تنشب . أما انجلز **Engels** فقد شاهد بعينيه صراع الجماهير في عام ١٨٧٠م الذي خرج منه بخبرة شخصية زادت من شكوكه حيال الثورات . وعلى الذي يبحث عن أسلوب ممارسة الحروب الثورية ومذاهبها أن يلجأ إلى ما كتبه لينين **Lenin** عنها رغم أن مذهبه العملي افتقر إلى القدرة على التركيب الجغرافي . لقد عزز لينين تصوراته بمفاهيم التفرُّد والحتمية التاريخية وحرفة السياسة ، حتى أن دور الحرب في روسيا لم يفز بحيز من التعميم . فهذه الحرب قد دارت طبقا لوجهة نظره بين البولشفيك وعمال

المصانع وبين الطبقة الحاكمة التي كانت تمتلك الثروات والعقارات بهدف السيطرة على أغلبية الشعب من الفلاحين الغوغائيين . وبهذا فقد كانت في الواقع حربا طبقية وليست صراعا للحصول على المزيد من المكاسب الأرضية . وبقدر ما كان لينين قاسيا حيال المعادلات التجريدية فقد ركز تعاليمه في الصراع الفعلي والظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به . ولم يكن لينين يرى سبيلا إلى النجاح إلّا باعتناق أساليب جديدة تكون أكثر انسجاما مع المطامح المتغيرة .

لقد شعر حكام الاتحاد السوفيتي الأوائل ببعض الارتباك بين الغايات والجيوبوليتيكا وهم يواجهون شذوذ الثورة الشيوعية الناجحة لشعب من الريفيين كان ماركس قد استبعد أن يقوم مثله بثورة . وكان تروتسكي Trotsky يرى في شعوب الغرب من سكان المدن والبلاد خامة أكثر استعداداً للثورة ولهذا فقد أعلن أن واجب الشيوعية العالمية هو النفخ في جمرات الثورة لإضعاف الحكومات الرأسمالية ومنعها من شن الحرب ضد الاتحاد السوفيتي . وكان على الاتحاد السوفيتي أن يعمل على استمرار الثورة حتى يخضع الدول الصناعية من أمثال المانيا وبريطانيا لسيطرة البروليتاريا بما يجبرها بعدئذ على إرسال الأيدي العاملة المدربة إلى روسيا مقابل المواد الخام . لقد اعتمد كل من تروتسكي ومنيف Menev وزينوفيف Zinoviev على هذه النظرية للوصول إلى السلطة في صيف سنة ١٩٢٧م . وبالمقابل بادر ستالين إلى تنظيم صفوف المقاومة التي تدعو إلى الانعزالية مذكراً الشعب بسياسة لينين التي تدعو إلى التصنيع والتكاثف لتحقيق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي . وفي سنة ١٩٢٨م صحب تروتسكي أوهامه عن الثورة العالمية إلى منفاه في أمريكا الجنوبية ثم أعلن ستالين عام ١٩٣٠م مذهبه الدفاعي لمواجهة طوق الحصار الرأسمالي . وبذل ليتفينوف Litvinov قصارى جهده في حقبة الثلاثينيات لتحقيق التعاون الدولي لمواجهة مخاطر إعادة تسليح المانيا . ولما خلفه مولوتوف Molotov في سنة ١٩٣٩م راح ينسج خيوط المصالحة مع اليابان والمانيا لصرف اهتمامهما إلى نواحٍ أخرى . وقد لفت نظر المراقبين أن الحكومة السوفيتية عادت في عام

١٩٤٤م إلى انتهاج سياسة ما قبل الثورة فيما يختص بمصالح روسيا الدولية ، الأمر الذي يؤكد نجاح ستالين في تأميم حماس الثورة .

ولقد ظلت الصفوة السوفيتية توقن بحتمية التاريخ وبالدور الريادي للاتحاد السوفيتي في الاطاحة بالنظام الرأسمالي الدولي إلى جانب ترسيخ قواعد الأمن الجماعي Collective Security وإقامة حائط دفاعي من التوابع حول الاتحاد السوفيتي في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وعندما أمسك خروتشوف بزمام السلطة ، تقدمت هذه المفاهيم إلى الأمام ، إذ كان يثق بقدرة الاتحاد السوفيتي على تحقيق التفوق الاقتصادي والعسكري . وبعد أن رفض خروتشوف نظرية الحصار وتساءل متهكما عمن يحاصر من ؟ ودفع ببلده إلى المسرح الدولي راح يتغلغل في المستعمرات المدارية التي ظل الغرب ينحسر عنها . وزاد خروتشوف من سعة هوة الخلاف مع الصين نتيجة تعارض وجهات نظرهما بالنسبة للمذهب الثوري ، الأمر الذي تحول بسرعة إلى عداوة تقليدية بين الشعبين . ولما جاء برجنيف Brezhnev أبدى تحفظا على المقولة الحتمية بنجاح السوفيت المادي . ومع استمراره في محاولة تغيير مسار الأحداث تعبيرا عن حدود السوفيت في آسيا وأفريقيا لإثارة المتاعب في وجه النظام الرأسمالي فإنه لم يحقق سوى النزر اليسير في بعض الأماكن بينما عمل على فرض الاستقرار في بعض الأماكن الأخرى مثل الشرق الأوسط .

وقد نجح الحزب الشيوعي الصيني في انتزاع علم الثورة الدولية وتعبئة الفلاحين على خلاف ما نادى به لينين وتروتسكي ومن جاء بعدهما ممن كانوا يتشككون في جدوى حرب العصابات وافتقارها إلى السلطة المركزية . ففي الصين نجحت هذه الحروب في إنجاز مهام حاسمة في خدمة الثورة . وكان لين بياو Lin Piao هو المشرّع الأول لجغرافية الثورة بإعلانه عن هدف حصار مدن العالم في عام ١٩٦٥م . ولعلنا نذكر أن نظرية ماوتسي تونغ Mao Tse Tung عن القاعدة الريفية للثورة سبق أن نادت بهذا الشيء نفسه ، وبخاصة إزاء أمريكا الشمالية وغرب أوروبا كمركز للمناطق السكنية وإزاء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية كمركز للمناطق الريفية في العالم .

ولما كان المد الثوري قد أوقف مؤقتا في العالم الرأسمالي فقد صار استئنافه مرتهنا بنجاح الصراع في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وإمساك الثوار فيها بزمام الأمور بدعم من أغلبية سكان المعمورة . وغني عن البيان ما لدعم الحكومات الشيوعية لهذه الجهود الريفية من أهمية بالغة . فالفكرة الجغرافية لهذا المذهب تشبه نظرية الضامة سالفة الذكر كما أنها تعادلها في قوة العمل المضلل وبث المخاوف . وتعتبر نظرية شي غيفارا Che Givara عن الأمن الدولي محاولة جيوبوليتيكية لوضع هذه الفكرة موضع التنفيذ . إلّا أن الاتحاد السوفيتي ظل على حذره إزاء حرب العصابات وبذل ضغوطا شديدة على كوبا لتوقف معوناتها الاقتصادية للحركات الريفية في أمريكا اللاتينية . ويبدو أن الصين تميل بعد رحيل ماوتسي تونغ إلى مضاعفة الاهتمام بالأهداف التقليدية في العالم الذي تحتل الصين مركزه ، ويتضاءل كل ما يخرج عن رقعتها الجغرافية في تناسب طردي مع بعده النصف قطري مكونا مناطق متحدة المركز مع المقاطعات الثماني عشرة لأرض الصين الشعبية .

مراجع الفصل السابع

يوجد بحث أساسي يحلل جغرافية تاريخ العالم بعمق في :

W.H.McNeill's The Rise of the West, referred to in ch.1

تركز مجموعة من الدراسات في السياسات الدولية على تتبع نشأ القوة البحرية الأمريكية حتى عام ١٩٤٥م :

H.and M.Sprout (eds.) Foundations of National Power: Readings on World Policies and American Security (Princeton University Press, Princeton,1945)

البحث الجغرافي المقارن هو :

H.J.Mackinder 'The Geographical Pivot of History' Geographical Journal,vol.23,no.4, (1904)K,pp.421-44

عولجت الجيوبوليتيكا والسياسة النازية في :

D.Whitlessey German Strategy of World Conquest (Farrar and Rinehart, New York,1942)

توجد صورة القلوب والأحزمة الفاصلة في :

S.B.Cohen Geography and Politics in a Divided World (Random House, New York, 1963)

نظرية الضامة مذكورة في :

R.B.Asprey War in the Shadows:The Guerrilla in History (Doubleday, Garden City, New York,1975)

صورة توسع أسرة هان مذكورة في :

H.J.Wiens China's March Towards the Tropics (The shoe String Press, Hamden, Connecticut,1954)

عولج نموذج التوسط بين الجيوبوليتيكا في :

D.Landau Kissinger: The Uses of Power (Houghton Mifflin, Boston, 1972)

A.K.Henrikson 'The Moralist as Geopolitician' The Fletcher Forum: A Jounal of Studies in International Affairs, vol.5,(1981),pp. 391-414

عولج موقف السوفيت حتى عام ١٩٤٤م في :

S.Welles The Time for Decision (Harper and Bros, new York,1944)

يوجد ملخص حديث في :

The International Institute for Strategic Studies 'Prospects of Soviet Power in the 1980s' Adelphi Papers,Nos. 151 and 152 (1979)

الفصل الثامن
حرب العصابات
GUERRILLA WARFARE

«أطلق الصرخة المدوية تجاه الشرق ، ثم انقض بالجيش نحو الغرب»

ماوتسي تونغ نقلا عن صن تزو .

بعد أن تحقق التوازن المتوتر في وسائل الدمار المتبادل الشامل تحولت غالبية أشكال الحرب عن النمط النظامي المعهود إلى حرب العصابات . والواقع أن النمط الرئيسي للحروب التي اشتعلت منذ عام ١٩٤٥م كان يتميز بالموضعية . وتستوى في ذلك الحروب الاستعمارية والشعبية إذ اتصفت جميعها باللانظامية وباستخدام أحد الجانبين أو كليهما لتكتيكات العصابات .

كما أن أغلب أنشطة القوات النظامية بذلت في مقاومة حروب العصابات والمعروف أن عدد الحروب الاستعمارية والشعبية التي دارت فيما بين عامي ١٩٤٥م و ١٩٧٥م قد بلغت ٥٤ حربا راح ضحيتها ٨ ملايين من البشر مقابل ١٧ حرباً تقليدية ودولية سقط خلالها ٢٫٩ مليون قتيل . وإذا ما قسنا أهمية الحروب بعدد ضحاياها فسوف تبرز الحروب الصغيرة التي اشتعلت منذ عام ١٩٤٥م إلى المقدمة . وعلاوة على ذلك فإن نقط الصراع العالمي المحتمل أن تشعل الحروب التقليدية العظمى أو تسبب المبارزات النووية قد اقتصرت على مجرد معارك صغيرة خاضها الجنود غير النظاميين . ولا يدفع هؤلاء الجند إلى القتال كبرياء المهنة ولا روح الفريق أو الشعور بالواجب وإنما الحافز الديني أو الوطني أو العصبية . وقد أحرزت حرب العصابات نجاحاً كبيرا كمقدمة للحروب النظامية أو كبديل لها . كما قامت بدور دعائي مؤثر باستغلال نقاط الضعف السياسية في الخصم وخلق فراغ في القوى تملأه الصفوة المختارة . وقد استخدم كل من كولينز Collins ولورانس Lawrence وبيغن Begin وتيتو Tito وماو Mao وجياب Giap وغريفاس Grivas وكاسترو Castro وغيرهم هذه التكتيكات وانتفعوا مع حلفائهم بها إلى أقصى حد

ممكن . وقد اعتنقت الجيوش النظامية التكتيكات الخفيفة الحركة للعصابات كما عبئت الوحدات ، ودربت عليها من أمثال الفدائيين وقوات الإغارة والطليعة .
وقد وجد ليدل هارت ضالته في إنجازات لورانس ليبرهن على أهمية الحرب الخفيفة الحركة واستراتيجية الاقتراب غير المباشر . كما أن استخدام أورد وينجت Orde Wingate لمجموعات الصحراء بعيدة المدى Long Range Desert Group وللفدائيين وذوي القبعات الخضر والخدمات الجوية الخاصة كان أمثلة حية للنضال المرن على نحو ما سبق للمارشال كوتوزوف kutuzov وزميله دافيدوف Davydov أن مارساه ضد نابليون Napoleon بجنود القوزاق .

وقت ومكان حرب العصابات :

شهد النصف الأخير من القرن العشرين تنافسا شديدا على الأرض بين الأيدلوجيات والامبراطوريات . وقد تجسد هذا التنافس في شكل حروب صغيرة دارت داخل أحزمة الأمن «Shatterbelts» . وقد سبق لمثل هذه الحروب أن استغلت على مدى القرون في مختلف أرجاء الأرض فجذبت من الانتباه إليها ما يتناسب مع وقعها على المطامح الامبريالية . ولما كانت تكتيكات حرب العصابات بما تشمله من ضرب وهرب وكمائن واستدراج تحقق مثل ما تفعله الحرب التقليدية ، فإن تكتيكاتها قديمة قدم الولع السياسي للجدال . ولقد استخدم النبي يوشع حرب العصابات مثلما استخدمها البارثيون والقوط والهون والفايكنج والترك والمغول . كما أن البريطانيين والفرنسيين تعلموها على يد أهالي أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) ثم جربوها في بعضهم البعض . وكان كشافة روجرز وجنود ماريون من جنوب كارولينا هم الذين أمدوا الأنجلوساكسون الأمريكيين أول الأمر بالأمثلة العملية على تكتيكات حرب العصابات .

والملاحظ أن هذه التكتيكات استخدمها من أراد تغيير الأوضاع الراهنة ، وكذلك من أراد الحفاظ عليها . وكانت الثورة الفرنسية في تطرفها شديدة البغض لتكتيكاتها رغم أنها شكلت ثلاثة مواقف كلاسيكية في حروبها .

وكانت منطقة البوكيج (الحقول التي تنتشر فيها أسوار الأشجار الكثيفة في شمال غرب فرنسا) ملاذاً نموذجياً للواندال بقدر ما كانت جبال سييرا ملجأ للأسبان ؛ بينما استخدم الجيش الروسي المناضلين والقوزاق لتمزيق أوصال جيش نابليون وقطع خطوط مواصلاته سنة ١٨١٢م .

ولقد دارت إبان الحملات الاستعمارية في القرن التاسع عشر معارك كثيرة بين الجيوش الامبراطورية والقوات غير النظامية التي عُبئت من بين أفراد القبائل والفلاحين والصيادين والرعاة . وكان الروس يواجهون قبائل الشاميل في القوقاز والبولنديين في الغرب كما واجه الفرنسيون قوات الأمير عبد القادر في الجزائر وقوات الثائر سواريز Suarez في المكسيك . أما الولايات المتحدة فقد اشتبكت جيوشها مع قوات الجنرال مورغان والجنرال موسبي Mospy في الجنوب والثائرين بول جيرونيمو Sitting Bull,Geronimo في الغرب ، وبالنسبة للبريطانيين فقد قاتلوا ضد قبائل الزولو والماوري والأشانتي ومناضلي البوكسر والبوير . ومع انحسار موجة الامبراطورية الأسبانية قبل غيرها من الامبراطوريات فإنها تركت إرثا من عدم الاستقرار السياسي وحروب العصابات التي قادها عدد من المشاهير من أمثال مارتي Martiوساندينو Sandino وزباتا Zapata وبانشو فيلا Villa .

وقد كانت الحادثة التي وقعت حول مكتب البريد العام في دبلن عام ١٩١٦م بداية التحول عن أعمال الحصار التقليدية إلى عهد حروب العصابات الذي شهده القرن العشرون . كما شاهد العام التالي ثورة روسيا الشيوعية ونشأة عصابات البولشفيك ضد خصومهم . وكان المقال الخطير لمجموعات العصابات البيضاء هو الذي حدا بلينين وتروتسكي إلى وقف عمليات العصابات الحمراء واستبدالها بالقوات النظامية الأكثر انضباطاً . وتسببت تطلعات ايطاليا والمانيا واليابان لإقامة امبراطوريات عظمى خلال حقبتي الثلاثينيات والأربعينيات في تنشيط المقاومة من طرف العصابات التي كانت تحظى بالرعاية والتدريب والتموين من أجهزة الحلفاء الحربية . ومع أن التأثير العسكري للعصابات على المرحلة الافتتاحية من الحرب العالمية الثانية

كان ضعيفا فإنها تحولت فيما بعد إلى قوة سياسية في المناطق التي مزقتها الحرب ، كما اكتسبت شعبية واسعة في كل من الصين وفيتنام الشمالية ويوغسلافيا ، إن الظروف التي ألحقت بالكومنتانغ Kuomintang الدمار وأجبرت اليابان على الانسحاب من الصين لتواجه التحديات في المحيط الهادي قد مكنت الشيوعية من أن تكتسب القوة . وقد عُزى أغلب الفضل في هذا النجاح إلى حرب العصابات التي كتب عنها ماو مقتبسا نظرياته وأفكاره من كتابات صن تزو الذي سبقه بنحو ٢٤٠٠ سنة . وبصرف النظر عن مصدر ألمعية أو حقيقة الأحداث سالفة الذكر فإن أسطورة التفوق العسكري للعصابات الريفية دفعت لين بياو عام ١٩٦٥م إلى دعوة فلاحي العالم إلى ابتلاع العالم الصناعي .

ثم إن التوسع المستمر لروسيا والصين والولايات المتحدة ، وامتداد نفوذها في النصف الأخير من القرن العشرين مقابل الانفجار الداخلي للنفوذ السياسي الأوربي قد أشعل سلسلة من الحروب الصغيرة وقامت عصابات شون فين Sinn Fein والايرلنديين الأحرار بشن حملات متتالية حققت نجاحا جزئياً في إشاعة الذعر فيما بين عامي ١٩١٩ ــ ١٩٢٢م . وكان هذا المثل هو المعين الذي استمدت منه العصابات الصهيونية في فلسطين تكتيكاتها خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٤ ــ ١٩٤٨م . ثم سارت على الدرب نفسه كل من فيتنام وأندونيسيا والملايو وكينيا والجزائر وقبرص والكونغو وأنغولا وموزمبيق حيث هوجمت قوات الاستعمار بدرجات متفاوتة من النجاح العسكري . ومن المعروف أن الثمن والإزعاجات والقسوة التي بذلت في تلك الحروب عجلت بانسحاب المستعمر . كما أن السياسات المتقلبة والتوزيع غير العادل للثروات في أغلب أنحاء أمريكا اللاتينية كان على الدوام هو المحرك للباحثين عن السلطة لإراقة الدماء على نحو ما فعله كاسترو في كوبا معتمداً على العداء الشعبي العام لحكم الطاغية باتيستا Batista وبطانته الفاسدة . وتعتبر الحرب ضد الاستعمار التي دارت في الهند الصينية على مسرح فيت منه مثلا ناجحا إذ أمكنها طرد الفرنسيين والتخلص من حكومة ديم Diem . وبتورط الولايات

المتحدة نتيجة خطئها في تقدير الموقف الجيوبولتيكي على أساس نظرية الضامة لاقت في النهاية نفس مصير الفرنسيين . وكان الذعر الذي ترتب عليه سقوط ديان بيان فو هو الذي أدخل الولايات المتحدة إلى الحلبة برغم أن مناورات الجنرال جياب حتى ذلك الوقت كانت ذات صبغة نظامية . فلما دخلت الولايات المتحدة طرفا في المسرح حق لمشاة الأسطول الادعاء بانتصارهم على عصابات الفيت كونغ . إلا أن حرب الأعصاب واتجاهات الرأي العام العالمي والصراع السياسي كانت جميعا من نصيب المناضلين السود مما أجبر القوات الأمريكية على الانسحاب مع ما صاحبه من مهانة ومرارة .

وفي هذا العالم المتحضر المتطور الشديد الترابط ببعضه البعض أصبحت فرص النجاح المتاحة أمام الكتائب غير النظامية التي تتحرك في تشكيل القتال ضئيلة للغاية . وفي المجتمعات الحضرية التي تحتوي على نسبة صغيرة من المواطنين الراضين بحياتهم بينما يعاني سكان المدن من حدة التغيرات الاجتماعية السريعة اضطرت جماعات المناضلين إلى الانقسام إلى عصابات إرهابية لتواصل العيش داخل الكيانات المبعثرة وتكسب عطف الأهالي . وتقف ايرلندا الشمالية في منتصف عملية التحول بين الولاءات القبلية لمجتمعات المدينة وولاءات مجتمع الفلاحين المنتشرين في الريف . وقد اشتعل الخلاف عام ١٩٦٩م بين المواطنين البروتستانت والكاثوليك حتى وصل إلى حالة الحرب الساخنة التي أضرمت جمرة النضال الايرلندي . وكان النصر الذي كاد أن ينعقد لواؤه عام ١٩٦٥م لمناضلي الفالن في كركاو ثم فشل غيفارا في إثارة الثورة البوليفية في إقليم الشاكو في بوليفيا ، إلى جانب تبشير غيلين **Guillen** وماريغللا **Marighella** باعثاً لعهد من الإرهاب في أمريكا اللاتينية بفعل ثوار ريو دي جانيرو وساو باولو في البرازيل ، والتوباماروس في مونتوفيديو والمونتيزوس في بوينس ايريس بالأرجنتين . وحينما اشتدت مقاومة العسكريين والشرطة وكان التأييد الشعبي ضعيفاً والحوافز أكثر ميلا إلى التدمير وجدنا أن أعمال العصابات انحدرت إلى مجرد الإرهاب . وقد سبق للفيلسوف ووتشي **Wuchi** أن نوه في القرن الثالث قبل الميلاد بأن رجلا واحداً على استعداد حقيقي

للتضحية بنفسه يكفي لإرهاب ألف . وقد ضخم التلفاز والمذياع والجرائد هذه المقولة أضعافا مضاعفة . ففي وقتنا الراهن نجد المثل في أحداث إيران عام ١٩٧٨م عندما نجحت القوات غير النظامية في انتزاع السلطة . وجاء فشل عصابات السلفادور بعد ذلك في عام ١٩٨١م ليبين أن النجاح لا يأتي بسهولة . كما أوضحت أحداث مطلع عام ١٩٨٢م أن العسكريين النظاميين يمكن دحرهم . بينما شككت انتخابات ابريل ١٩٨٢م في مدى شعبية هذه الحركات . ويبدو من التجربة الأفغانية أن اللجوء إلى التلال مازال وسيلة ناجحة للمعارضة . كما أن تجربة زيمبابوي ترجح أن مصير المعارك التي تدور بين عصابات زانلا ZANLA بقيادة شونا Shona وعصابات ZIPRA بقيادة نديبلة Ndebele سوف يتقرر بتفوق أيهما في الشعبية التي تعتبر أقوى حوافز القتال من وجهة نظر رجال العصابات ويوضح نجاح هجمات الأفارقة الجنوبيين على أهداف سوابو في أنغولا في أغسطس ١٩٨١م مدى عقم حيلة النظاميين كاملي الاستعداد والتجهيز في مواجهة رجال العصابات .

أهمية الجغرافيـــا The Significance of Geopgraphy

يؤكد أصحاب النظريات الخاصة بصراع العصابات والمعلقين عليه ما للعوامل الجغرافية من أهمية قصوى في تقرير النتائج . فهذه العوامل هي التي تتيح استغلال خصائص الأرض للحد الأقصى . وعلى المستوى العملي تعتبر المهارة الجغرافية ضرورة لا غنى عنها لنجاح العمليات الحربية . ولقدنصح دي جيناي De Jeney في عام ١٧٥٩م بضرورة أن يحتفظ رئيس العصابة المناضلة ببعض الجغرافيين رهن إشارته ليرسموا له الخطط الصحيحة للطرق التي سوف يسلكها الجيش وأماكن معسكراته وكل المناطق المطلوب استطلاعها . وفي عام ١٩٧٠م نصح ماريغللا Marighella قوات العصابات التي تعمل في المناطق المبنية بضرورة الإلمام بالمعلومات الطبوغرافية حتى يستطيع كل شخص معرفة موقعه بالأجهزة والآلات أو بغيرها من الموارد المتيسرة التي تحسب المسافات وترسم الخرائط وتحدد مقياس الرسم .

ومن الواضح أن إدراك المرء التحليلي لشكل الحرب يجب أن يواكبه إحساس عظيم بالتطور الجغرافي ومظهر الطبيعة وطبيعة الأرض . لقد كتب أشهر علماء الجغرافيا الصينيين كو تسو يو Ku.Tsu.Yu في عام ١٦٩٨م يقول إن أحداً لا يستطيع أن يناقش الأمور الاستراتيجية أفضل من صن تزو ، كما أن أحداً لا يستطيع أن يناقش مزايا الأرض أفضل منه . وقد ساق فون كلاوزفيتز في معرض حديثه عن حرب العصابات خمس حالات عامة تضمن إدارتها بنجاح :

١ ـــ أن هذه الحرب تشن داخل الإقليم .

٢ ـــ أن نتائجها لا تتوقف على معركة واحدة .

٣ ـــ أن مسرحها يمتد فوق مساحة واسعة .

٤ ـــ أن طبيعة الأرض تناسب هذه الحرب .

٥ ـــ أن الإقليم تتخلله الجبال والغابات والمستنقعات أو المزروعات التي تجعل سطحه غير منتظم ويتصف بالصعوبة .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشروط الخمسة جميعها ما عدا الشرط الثاني ذات صفة جغرافية .

تكتيكات واستراتيجية حرب العصابات ومكافحة التمرد :

Guerrilla and Counterinsurgency Tactics and Strategies

لا يوجد حد واضح بين الكثرة التي تلازم التشكيلات النظامية ، والقلة التي تميز الإرهاب الفردي عندما يراد وصف الاستخدام السياسي للعنف . ومع ذلك فهناك أنواع وسيطة من القتال المعترف به بوجه عام يشترك فيه كل من المقاتلين غير النظاميين أو المناضلين للحصول على أهداف عسكرية ومعنوية من عملياتهم الحربية . وعلى نقيض القتال التقليدي فإن حرب العصابات تنفرد بوجهتي نظر إذ تكون الخيارات والفرص شديدة الوضوح بالنسبة لحرب العصابات عنها في حالة مواجهة عمليات مكافحة التمرد أو العصيان .

وهناك كتابات كثيرة عن تكتيكات حرب العصابات أغلبها عبارة عن خبرات شخصية لمشاهير ممن خاضوا حروبها بنجاح ثم أثبتوا بعد الحرب أنهم

رجال قلم مثلما كانوا رجال سيف . وأغلب تلك الكتابات تعتمد على المنطق العام أو محاولة اختراع آلة مضت على اختراعها مئات السنين . إن صفحات التاريخ مترعة بأسماء القادة الذين لم تتح لهم فرصة الاطلاع على هذه المراجع ولكنهم كانوا يفعلون الصواب بالسليقة أو بسرعة اكتساب الخبرة . والواقع أن جوهر حرب العصابات يتلخص في المقايضة بالمكان مقابل الوقت . وعادة ما يُترك العدو ليسيطر على شريحة من الأرض ثم يركز الجهد لخفض معنوياته واستنزاف قواه ببطء عن طريق آلاف من القضمات الصغيرة الموجعة . كما يستدرج العدو إلى إطالة خطوط إمداداته ومواصلاته ونشر قوة نيرانه بالقدر الذي يضعف فعاليتها حتى يمكن قطع نقط اتصاله الداخلية ومجنباته وتحطيم إرادته بتوجيه ضربات مستمرة إليها . وتعتبر تكتيكات الضرب والهرب ، والإغارات التحويلية ، وأعمال التخريب ، والإرهاب ، والكمائن ، الأنواع الرئيسية للاشتباك . ومع أن الهجوم المخادع ثم الهروب لتجنب المعركة يعتبر من الحيل الأولية ، كما أن حرب العصابات تعتبر من وجهة النظر الاستراتيجية ذات صفة دفاعية عادة فإن إحراز النصر لا يستغني مطلقا عن تكتيكات الهجوم . ولقد أوضح الفيلسوف العسكري البريطاني ليدل هارت قيمة أساليب حرب العصابات والاقتراب غير المباشر في الحصول على المفاجأة وتأمين الحركة للقوات . والواقع أنه قلب الدفاع التعرضي لحرب العصابات التقليدية رأساً على عقب ليجعله دفاعيا هجومياً عميق الاختراق لمواقع الخصم حيث تكون ذروة الاستراتيجية الناجحة هي الحسم بلا قتال فعلي . وقد تجنبت فكرته عن التقدم المنتشر أخطار تجميع القوات فضلاً عن ترك العدو في حيرة من أمره وتهديد خطوطه الداخلية وتنظيماته واستقراره الذهني . وقد أحسن ماوتسي تونغ التعبير بغاية الإيجاز عن تكتيكات الحركة والخداع التي تعتمد عليها حرب العصابات وأساليب ليدل هارت فيما اقتبسه ماو عن صن تزو بقوله : «أطلق الصرخة المدوية تجاه الشرق ، ثم انقض بالجيش نحو الغرب» . وكانت الفكرة التي كرر الحديث عنها مراراً هي الفقرة الثانية عشرة من الفصل السابع والتي تقول «إن الحرب تعتمد على الخداع ، وعليك أن

تتحرك عندما تكون الحركة عونا لك . وحاول أن تفرض ظروفا مختلفة على مواقف القتال عن طريق الانتشار ثم إعادة حشد قواتك» .

ولا جرم في أن الهدف الأسمى لوجهتي حرب العصابات هو السيطرة على الشعب . ولإدراك هذا الهدف يتعين على القوات التي تتعامل مع العصابات ألّا تكتفي بهزيمتها عسكريا بل وفصلها عن الشعب وتحويل عطفه نحوها إلى استهجان وإدانة مع تقديم بديل مقبول له في صورة نظام اجتماعي وحكومة رشيدة يرضى عنها ويطمئن إلى عدالتها وكفاءتها . ومن اللازم أن يواكب المعارك الحربية للبحث عن العصابات وتدميرها معارك معنوية لكسب قلوب الشعب وأفكاره مع إقامة سلطة سياسية مقبولة لديه . ولسوف تعتمد التكتيكات المستخدمة على مدى تشبث العصابات بالأرض فضلا عن نوعية النسيج الاجتماعي لأفراد العصابات . وقد تكفي ضربة تعرضية متحركة للقضاء على مجموعة صغيرة من العصابات غامرت بالدخول في أرض أجنبية مثلما حدث لغويفارا Guevara في بوليفيا . أما إذا كانت العملية تشمل تحركا فطريا تتبعه بعض الجماعات الشعبية على غرار أرتال الفيت كونغ الطيارة فلا غنى لها عن بذل الجهود للسيطرة على الأرض . وتحتاج أساليب المطرقة والسندان ، والدوريات الجسورة إلى تنسيق أنشطتها مع الأعمال التي توجه لعزل الخصم واكتساح قواته ومواقعه . وفي مثل هذه الظروف يجب الجمع بين السيطرة على الأرض والقدرة على التحرك والضرب بعنف لتدمير كمائن العدو وملاجئه .

إن الحفاظ على جهود المناضلين أمر غير واقعي إذ تصادف القوات النظامية مشقة كبيرة مع العصابات بسبب عدم قدرتها على تضييق رقعة نشاطها . وهناك مثال تاريخي عن سرعة التأقلم الناجح مع الأرض فيما حققه أهل الشمال في غزوهم لإيرلندة بعد عام ١١٦٩م . وبتجنب الأسلوب الإقطاعي بهجوم الفرسان العام بالمواجهة أمكن للرجال المسلحين بالقوس والسهم أن يهزموا رجال السيف الغاليين بفضل خفة حركتهم وبحسن استخدام المستنقعات والغابات ، وما اشتهروا به من مكر وختل عند الدخول في المعارك . وبمجرد أن ينجح رجال القوس والسهم في احتلال الأرض فإنهم كانوا

يسارعون إلى تحصينها بقلاع صغيرة قوية عند النقاط الحاكمة من الأرض . ولكسب عطف السكان كانوا يندمجون فيهم ويتكلمون لغتهم ويتخذون أسلوب حياة الصفوة التي قهروها . وكان نجاحهم يعتمد بالدرجة الأولى على عنصرين أساسيين هما خفة الحركة وامتلاك القوة المرنة التي تستطيع أن تكيل الضربات الساحقة فضلا عن الوسيلة الناجعة للتمسك بالأرض المكتسبة على المدى الطويل . إن ما ابتكروه من استراتيجيات كان عليهم أن يعيدوا تعلمه مرات ومرات وبعد آلام طاحنة .

وإذا ما نظرنا في بداية الأمر إلى مكونات القتال فسنجد أن المطلب الأول هو صب أكبر قدر من النيران فوق رؤوس رجال العصابات حيثما وجدوا ، سواء كانوا يعملون أم يسترخون . ويعني ذلك الاحتفاظ بوحدات صغيرة سريعة الحركة على غرار ما اصطلح على تسميته الرتل الطيار Flying Column . ولقد دفعت خبرة غاليني Gallieni ولايوتي Lyautey عن الاستعمار الفرنسي في السنغال والسودان والهند الصينية ومدغشقر والجزائر إلى ابتكار أسلوب «بقعة الزيت» «Tache d'huile» لمكافحة الحركات التي تقوم في وجه السلطة . وكان العنصر العسكري في هذا الأسلوب يقوم على التحرك بغاية السرعة مع نشر وسائل الاستخبارات على أوسع مدى لتأمين المعلومات الطازجة عن القوات . وكان الإقليم المراد إخضاعه للسلطة يتم تقسيمه إلى شرائح أرضية مناسبة للعمليات المزمع القيام بها . وقد أطلق على هذه العملية اسم تربيع الإقليم أي تجزئته إلى أرباع . أما الخطوة الثانية فكانت إطلاق القوة المكلفة بإخضاع الإقليم لإعادة الأمن والنظام إلى ربوعه بواسطة وحدات سريعة لا تفتأ تتحرك بحثا وراء الأصدقاء ولتأمين عونهم ومساعدتهم فضلا عن تحصيل المعلومات من الأهالي . وقد اشتهرت حركتهم الخاطفة هذه باسم «تكتيكات الدوامة الهوائية» Whirlwind Tactics وعندما اصطدم الفرنسيون في حقبة الخمسينيات بمقاومات أشد في الهند الصينية اقتبس الجنرال سالان Salan فكرة النقط القوية عن أورد وينغت Orde Wingate البريطاني بعد إضافة القواعد الجوية البرية إلى تلك الفكرة . و تلخصت فكرة النقط القوية في زرع حاميات

يتم إمدادها جوا في المناطق النائية التي يسيطر عليها الثوار . وكان الهدف الأول هو استعراض علم الدولة المستعمرة واستدراج رجال العصابات إلى الأرض المفتوحة حيث يتكفل التفوق في النيران بإبادتهم . فإذا ما نجح الثوار في امتلاك القدر الكافي من قوة النيران الذاتية وكانت النقطة القوية في مكان سيء مثل ديان بيان فو فلن يتاح لها النجاح . وقد وقعت الولايات المتحدة في نفس المحظور في معركة «خي سانه» Khe Sanh في نهاية الستينيات . وأي زعم بالنصر في تلك المعركة السيئة الطالع ليس إلا من قبيل الادعاء إذ أن الواقع أن الجنرال جياب تمكن من إحكام حلقة الحصار حول القوة الأمريكية وبعد أن استنفد قوى مشاة الأسطول فرض سيطرته على الاقليم كله ثم راح يعد قواته للهجوم على التيت Tet .

وكانت المعضلة الرئيسية التي تواجه القوات النظامية عندما تتصدى لعصابات الثوار هي ضرورة الحد من مساحة العملية جغرافيا وعدديا . وينطبق ذلك بصورة أوضح على الجيوش التي ذاقت حلاوة النصر في الحروب التقليدية السابقة . فالجيش البريطاني في الملايو أتيحت له فرصة التعلم من أورد وينجت وجنود الشنديت في بورما على أساليب القتال التي تناسب الغابات أو التلال الجرداء معتمدا على العمل في مجموعات صغيرة مستقلة . وكان الرجل المسؤول عن هذا الجيش هو الجنرال تمبلر Templer ذا الميول السياسية قد عالج المشكلة وكأنها عملية شرطة تتطلب فرض الأمن والنظام على مستوى القرى والدساكر وإقامة حكومة مرهوبة الجانب في الملايو . ولم يكن هاردنج Harding في قبرص على شاكلة تمبلر سياسيا فعمد إلى ملء الجزيرة بالقوات المقاتلة التي كانت هي نفسها أهدافا جذابة للثوار القبارصة بالقدر الذي أضعف زمام السلطة . وقد زعم غريفاس Grivas أنه كان يستطيع أن يتصرف على نحو أفضل لو استخدم قوات صغيرة الحجم ولكنها عالية التدريب على عمليات قمع الثورات . وكان قد سبق للبريطانيين تحقيق مثل هذا في مسرح الملايو عن طريق ما يشبه القوة الجوية الخاصة الحالية ولكن بمشاة الأسطول الملكي ، وقد نقلوا ما اكتسبوه من خبرات في الملايو إلى مسارح

كينيا وعدن وبورنيو . إن القوات الجوية الخاصة هي الأنسب لمثل هذه المهام على نحو ما تم استخدامها أخيرا في إيرلندا الشمالية وضد أعمال الإرهاب في انجلترا وخاصة في عملية الاستيلاء على السفارة الإيرانية . ولقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦١م عندما كان هناك لغط سياسي كبير بالنسبة لحرب العصابات بإنشاء «وحدة القبعات الخضراء» Green Berets الذين اكتسبوا تقدير العالم وأثبتوا قدرتهم الميدانية على هزيمة الثوار .

وبعد تورط الولايات المتحدة في مسرح فيتنام عام ١٩٦٥م ظهر من القائد العام الجنرال وستمورلاند Westmoreland ميلا إلى الكثرة وكانت أول عناصر تخوض المياه إلى شواطىء فيتنام هي مشاة الأسطول . وقد كيّفوا أسلوب قتالهم البرمائي ليوافق تكتيكات الاقتحام الجوي الرأسي . وكانت عمليات فرسان الجو من ذات الطبيعة نفسها . وقد تركز الاهتمام على كسب الحرب قياسا على بعض الموازين الهادفة ، فبعد أن كان الهدف هو قتل أكبر عدد من جنود العدو صار البحث عن الفيت كونغ ومطاردتهم وتطويقهم وتدميرهم . وقد ظل التركيز على القتل وليس احتلال المزيد من الأرض . وهكذا غطى القتل على هدف فرض السلام الذي كان الأجدر بأن يكون الشغل الشاغل للجميع . ويلخص الضابط الأمريكي غرابيم Grab'em هذا الرأي فيما بعد . وعندما تولى الجنرال أبرامز Abrams القيادة في عام ١٩٦٨ راح يقلل من حجم العمليات إلى المقياس المناسب للبيئة والمؤثرات السياسية مع انتهاج تكتيك الضربات العنيفة . وقد تضمنت هذه التكتيكات استخدام المفارز الصغيرة لتمشيط الأرض بسرعة وعلى فترات متفاوتة .

وكانت وظيفة التمسك بالأرض وفرض السلام جزءاً عضويا من أسلوب بقعة الزيت التي ابتكرها الجنرال لايوتي . ولم تعد الأعمال العسكرية إلا ضرورة استهلالية فقط ، كما أنها بمفردها غير كافية لإحراز الهدف المنشود . وبمجرد تطهير مربع الأرض من الثوار كان يتم تسليمه مباشرة إلى السلطة المدنية التي نجحت في كسب تأييد رجال القبائل بفضل ما وفرته لهم من وقاية وتقدم اقتصادي واجتماعي . لقد امتد النفوذ الفرنسي بفضل هذه الاستراتيجية

بصورة رئيسية وبطيئة . أما البريطانيون في جنوب افريقيا فقد دفعهم تفوق البوير بتكتيكاتهم المبتكرة إلى انتهاج أساليب أكثر وحشية وذلك بالسيطرة على الأهالي المدنيين الذين يمدون الفدائيين الأفارقة بالدعم اللوجستيكي . وقام البريطانيون بتدمير مزارع البوير المتفرقة في البلاد كما جمعوا غير المحاربين من الأهالي وساقوهم إلى معسكرات الاعتقال . ولقد أضر بسمعة الجنود لدى الأهالي ما جنحوا إليه من أساليب مقيتة إذ كانوا يقتحمون الأماكن المدنية في إيرلندا بحثا عن الثوار ، ويضربون الحصار على الأحياء السكنية في فلسطين للقبض على المناضلين العرب ــ وتجدر ملاحظة أن هذه الأعمال المتسمة بالقسوة والعنف أسهمت في مضاعفة عدد المتعاونين مع الثوار والمناضلين .

ولقد اعتمد نجاح البريطانيين في الملايو على الإصلاحات التي أدخلت على ملكية الأرض وعلى برنامج القرى الجديدة الذي زاد من أمن وسهولة حماية السكان فضلا عن وضوح رغبة السلطة في إقامة حكم ذاتي ومجتمع متعدد الأجناس . وفي عام ١٩٥٩م بدأت حكومة ديم Diem بفيتنام الجنوبية برنامجا مشابها للقرى الريفية بغرض تقوية النجوع والكفور في مواجهة هجمات الفيتناميين . ونزولا على نصيحة السير روبرت طومسون Sir Robert Thompson المستمدة من الخبرة الماليزية وضع برنامج في عام ١٩٦٢م لتطوير شبكة من النجوع الاستراتيجية ذات الأهداف العسكرية والسياسية . وقد أمد هذا البرنامج حكومة ديم بالذريعة العملية لإنفاق أموال المساعدة الأمريكية على زيادة إحكام قبضتها على رقاب المواطنين . وبدلا من أن تمتد بقعة الزيت من دلتا نهر الميكونغ كما اقترح طومسون فقد التفت الشباك حول رقاب الأهالي . وقد بذلت الجهود لتقوية دفاعات ١١ ألف نجع تشكل ثلثي إجمالي نجوع فيتنام الجنوبية قبل نهاية عام ١٩٦٣م ، إلا أن الأيدي العاملة العسكرية والمدنية اللازمة لتنفيذ هذا البرنامج الضخم لم يكن لها وجود فعلي . وقد ضاع المال المرصود لهذه العملية على نواحي الفساد الذي دب في البلاد ولم تعد تلك النجوع تخرج في واقعها عن معسكرات اعتقال . وكان أكثر ما ينقص حكومة الفيت كونغ هو حُسن صلاتها بالجماهير .

لقد عاد عدد من الضباط الفرنسين من مسرح الهند الصينية عام ١٩٥٤م وهم على قناعة تامة بأن قوة حرب العصابات تعتمد بالدرجة الأولى على إلهامات الأيدولوجية الماركسية وكانت نظرية الحرب الثورية تستدعي تطوير أيديولوجية معاكسة يتم إقناع الجنود المدنيين بها ليقبلوا على مصارعة الماركسية عن طيب خاطر وبوازع ذاتي . إلا أن الغيرة الفاشية التي انبعثت من هذه الأيديولوجية تسببت في نفور الجماهير منها في ذلك الوقت . ورغم ذلك فإن الحوافز المختلفة للثورة الماركسية ليست إلّا أكاذيب وبهتانا تكشف حقيقته سجلات التاريخ نفسها . وتبقى الوطنية القوة الغالبة سواء لإثارة حروب العصابات ، أو لشن الحروب التقليدية .

تحليل جغرافي : A Geographical Analysis

قد تكون الأبعاد السياسية والنفسية لموازين الأفضلية بين حرب العصابات وقمع حركات العصيان المدني عرضة للمعالجة الجغرافية إلّا أن هذا سوف يعني ضمنيا قبول نظرية تاريخية لم نصل إليها بعد . وإلى أن يتحقق ذلك فلا سبيل أمام العالم الجغرافي إلّا أن يتبصر طريقه خلال نوعين من المداخل أولهما عن طريق الوصف والتحليل للظروف المتفردة التي تحيط بالحدث .

ويميل لاكير **Laqueur** عميد الدارسين لأنشطة العصابات والإرهابيين إلى اعتبار هذا المدخل هو الأكثر صلاحية . ويتوفر الكثير من الكتابات عن هذا المدخل ويستمد أغلبها معينه من الإدراك الجغرافي المتمرس . وتنحو هذه الدراسات إلى أسلوب التعميم بالنسبة للمظهر الجغرافي الذي يناسب نجاح أو فشل حرب العصابات .

ويتأرجح الميزان الذي يدور حوله النقاش عن تأثير حرب العصابات وعمليات قمع العصيان المدني بين نسبة النظاميين وغير النظاميين . فيقول العسكريون التقليديون وأجهزة إعلامهم بضرورة أن ترجح كفة النظاميين من ناحية العدد بما لا يقل عن ١٠ : ١ حتى يمكن إيقاع الهزيمة بغير النظاميين . وقد تكرر التأكيد بذلك من خلال التجربة الحديثة في دولة السلفادور وإن

كنا لا نجد أساسا تحليليا يدعم هذه المقولة . ومع ذلك تبدو من خلال البراهين التاريخية أن حرب العصابات تتميز بكفاءة أفرادها ، إذ أمكن لنحو ٣٠٠٠ ثائر أن يواصلوا تحدي ١٨ ألفاً من جنود نابليون على امتداد ثلاث سنوات خلال الحرب الأسبانية التي دارت فيما بين عامي ١٨٠٩ ـ ١٨١٢م ويعني ذلك أن نسبة النظاميين إلى غير النظاميين بلغت ٦ : ١ في هذه الحرب . وقد احتاج البريطانيون إلى تحقيق نسبة ٢٠ : ١ ليهزموا البوير ، أما الفرنسيون فقد حاقت بهم الهزيمة في الجزائر خلال الخمسينيات رغم تمتعهم بنسبة تفوق عددية مماثلة . كما أمكن لثوار إيرلنده الذين لم يتجاوز عددهم ٣٠٠٠ مناضل أن يشتبكوا بنجاح فيما بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢١م ضد ٤٣ ألفا من جنود الجيش والشرطة . وقد اشتهرت نسبة ١٠ : ١ نتيجة لتصريحات الجنرال ماكسويل تايلور والجنرال وستمورلاند إبان قيادتهما لمسرح فيتنام . وكان تايلور قد أعلن عام ١٩٦٥م أن نسبة التفوق اللازمة لهزيمة الفيت كونغ يجب أن تصل إلى ٢٥ : ١ ولم تكن قوات الجنرال ولا من يؤازرها من جنود فيتنام الجنوبية تبلغ نسبة ٥ : ١ بالمقارنة بالعدو .

ولا غنى عن الرجوع إلى السجلات التاريخية لمعرفة الأبعاد الجغرافية لهذا المقياس . ويوضح الجدول رقم (١) عدد أفراد العصابات وخصومهم في نخبة من الحروب التي وقعت منذ عام ١٩٤٥م . وقد استخرجت هذه المعلومات من عدة مصادر وكلها عرضة للأخطاء الكبيرة المحتملة . وتطرأ مثل هذه الأخطاء نتيجة قلة المعلومات المتيسرة أو ممارسة الخداع السياسي . فإذا ما وضعنا في الاعتبار أن هذا التنظيم غير جامد ، وأن المقاتلين يستطيعون الذوبان في وسط السكان المدنيين فسوف تبدو الصعوبة التي تواجه عملية إخفاء هؤلاء المقاتلين ، مع الوضع في الحسبان ما يواكب هذه العملية عادة من تغيرات من آن لآخر .

الجدول رقم (١) جنود الحرب الفدائية وخواصّ السكّان

الحروب والمنتصرون ف = الفدائيين ينتصرون ن = النظاميون ينتصرون	عدد الجنود النظاميين (١)	عدد الجنود الفدائيين (١)	عدد الجنود الفدائيين (٢)	النظاميون نسبة القوات المسلحة إلى المساحة مقاتل في (الميل المربع) (٢)	الفدائيون نسبة الفدائيين إلى المساحة فدائي في (الميل المربع) (٢)	كثافة السكان مقاتل في (الميل المربع) (٢)	نظامي لكل فدائي
الملايو (ن) ١٩٤٨ — ١٩٥٢م	٣٥٠٠٠٠	١٢٠٠٠	٥٥٨	٦ر٩٠	٠ر٢٣	١٣٢	٢٩ر٢
قبرص (ن) ١٩٥٥ — ١٩٥٩م	٢٠٠٠٠	٩٧٠	٥٢٥	٥ر٥٩	٠ر٢٣	١١٢	٢٠ر٦
الجزائر (ف) ١٩٥٤ — ١٩٦٤م	٥٦٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٣١٨	٠ر٦١	٠ر٠٣	١٠	١٨ر٦
كوبا (ف) ١٩٥٧ — ١٩٥٩م	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠	٢٩١٦	٠ر٦٧	٠ر٠٤	١٣٢	١٥ر٠
ناميبيا (ن) ١٩٦٦م	٤٥٠٠٠	٣٧٠٠	٢٣٠	٠ر١٤	٠ر٠١	٣	١٢ر٢
أورغواي (ن) ١٩٦٩—١٩٧٢م	٣٤٠٠٠	٣٠٠٠	٩٤٩	٠ر٤٧	٠ر٠٤	٣٩	١١ر٣
اليونان (ن) ١٩٤٤ — ١٩٤٥م	٢٥٠٠٠٠	٢٣٠٠٠	٣٣٩	١ر٩٤	٠ر٤٥	١٥٤	١٠ر٩
أثيوبيا (ن) ١٩٦٠م	١٩٢٠٠٠	٢٥٩٠٠	١١٤٧	٠ر٤٢	٠ر٠٥	٦٥	٧ر٤
غواتيمالا ١٩٨١م	٢٠٩٦٠	٣٠٠٠	٢٤٢٠	٠ر٤٩	٠ر٠٧	١٧٣	٧ر٠
كينيا (ن) ١٩٥٢ — ١٩٥٦م	٥٦٠٠٠	١٢٠٠٠	٤٥٠	٠ر٢٤	٠ر٠٥	٢٤	٤ر٧
السلفادور ١٩٨١م	٢٢٠٠٠	٦٠٠٠	٧١٠	٢ر٦٦	٠ر٧٢	٥١٦	٣ر٧
فلسطين (ف) ١٩٤٥ — ١٩٤٨م	١٠٠٠٠٠	٥١٠٠٠	٣٢	١٢ر١٦	٦ر٥٧	١٦٧	١ر٩
الهند الصينية ١ (ف) ١٩٤٥ — ١٩٥٤م	٣٤٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١١٤	٢ر٧٠	١ر٥٨	١٨٠	١ر٧
الهند الصينية ٢ (ف) ١٩٤٥ — ١٩٥٤م	٩١١٧٥٠	٦٠٠٠٠٠	٧٠	٧ر٤٠	٤ر٧٠	٣٣١	١ر٦
أفغانستان ١٩٧٩م	١٢٥٠٠٠	٩٠٠٠٠	١٩٤	٠ر٤٨	٠ر٣٤	٦٧	١ر٤
كمبوديا ١٩٧٧م	٣٤٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٣٩	٠ر١٨	١ر٨٠	١٣	٠ر٢

مصادر الجدول :

١ — (أ) المعلومات الخاصة بكل من الملايو والجزائر مستقاة من :

A.Campbell,Guerrillas :A History and Analysis, (Doubleday,New York,1980).

(ب) المعلومات الخاصة بكل من السلفادور ، وغواتيمالا ، وكمبوديا مستقاة من :

Time,7 September 1981 and 25 January 1980.

(جـ) المعلومات الخاصة بكل من فلسطين ، قبرص ، كينيا ، اندونيسيا ١ ، ٢ مستقاة من :

M.Carver, War Since 1945,(Wiedenfeld and Nicolson,London,1980)

د ــ المعلومات الخاصة بكل من كوبا ، اليونان مستقاة من :

R.Asprey, War in the Shadows, (Doubleday, New York,1975).

هـ ــ المعلومات الخاصة بكل من ناميبيا ، أفغانستان ، أثيوبيا مستقاة من :

_Strategic Survey 1976-77 and 1980-81 (International Institute for Strategic Studies, London).

و ــ المعلومات الخاصة بأورغواى مستقاة من :

R.Moss,Urban Guerrillas : The New Face of Political Violence (Temple Smith, London,1972).

٢ ــ المعلومات الخاصة بالسكان والمساحات مستقاة من أعداد مختلفة من :

The World Almanac, (New York).

• • •

وقد استخدمت الأرقام الدالة على تعداد أفراد العصابات العاملة سواء أكانت قواعدهم داخل حدود الدولة أو خارجها ، مع الوضع في الاعتبار صعوبة تحديد مغزى كلمة العصابات العاملة .

ولا ننفي هنا أن بعض ما أطلق عليه حرب عصابات لم يتجاوز في حقيقته مجرد الإخلال بالأمن والنظام بلا نتيجة عسكرية أو سياسية . مثل هذه الاشتباكات يحسن استبعادها من الاعتبار لأن العمل الفدائي منعدم فيها تقريبا . وقد يمكن الوصول إلى حقيقة التأثير الذي تحقق عن طريق الاقتصار على العمليات الناجحة في الصراعات السابقة فقط للوصول إلى العلاقة الحقيقية بين عدد المقاتلين ومساحة المنطقة ، وكثافة السكان ، وطبيعة الأرض . وتستبعد هذه الطريقة أيضا كل الصراعات الحديثة ، ونحو نصف الملاحظات السابقة ، كما أنها تثير مشكلة تعريف النصر . فقد لا تنتهي حرب العصابات إلى نتيجة عسكرية واضحة بينما تكون قد حققت فعلا هدفها السياسي . وقد تطرح حرب العصابات ثمرتها بعد أن تخمد نيرانها لسنوات طويلة . وتتأثر نتائج حروب العصابات بالظروف الخارجية . وغالباً ما تنشط حرب العصابات قبل أو في أثناء انسحاب امبراطورية كبرى ، أو تغيير نظام حكم . ويترتب على ذلك أن يصبح إضافة عدد طرفي النزاع خلال المدة التي كانا نشيطين فيها للغاية وكانت أرض المعركة شديدة السخونة ويمكن القول

عندئذ أن كلا الطرفين بلغ ذروة تأثيره بالتعبير العسكري بوصوله إلى التعادل المؤقت في القوى .

إن الحروب وحدها هي التي أكدت منذ عام ١٩٤٥م الثبات التقني بين مختلف العوامل حتى لا يحدث تضارب بين تأثير كثافة السكان وطبيعة الأرض وبين الاختلافات الكبيرة في الأسلحة والمركبات والاتصالات . ومن المفترض أن القوات النظامية على الأقل تتمتع بالمساندة الجوية وبالحوامات والعربات الميكانيكية وأن قوة الأسلحة ظلت على حالها طول هذه الفترة .

وإذا ما أردنا قياس الأعداد لصالح هذا التحليل فإن مشكلة تقييد مسرح الحرب سوف تبرز . ومن الواضح أن عملية إيجاد علاقة الاختلاف بين نسبة النظاميين وأفراد العصابات وبين المتغيرات الجغرافية سوف تحتاج إلى رسم الحدود حول هذا العمل . ولما كانت حرب العصابات تنتعش بالمرونة والسيولة وتجنب الاعتماد على قاعدة أرضية فسوف يكون وضع مثل هذه الحدود أمراً صعبا . فنادرا ما تحدد مناطق العمليات بتظليلها بدقة على الخرائط . ولأغراض الاتساق في غيبة المعلومات الأفضل ، فإنه يفضل استخدام كل المنطقة السياسية المشتركة في الحرب مع إبراز الحالات التي كانت تشكل فيها أرض القتال وتجنب الحالات الأخرى التي كان من الواضح أنها لم تشهد أي صراع . ومن الواضح أن ذلك سوف يستبعد العمليات الحربية التي دارت حديثا في المناطق المأهولة بالسكان . وفي الأحوال الأخرى التي تختلف فيها الحقائق عن الفرضيات يجب أن يظهر ذلك بكل وضوح إن المعلومات المتيسرة تقف دليلا على أن حرب العصابات زهيدة التكاليف .

فليس هناك حرب قليلة التكاليف خاضتها عصابات الثوار وهي تفوق القوات المتضادة النظامية عدداً سوى في كمبوديا فقط . وحتى في هذا المثال فإن صفوف الثوار كانت قد امتلأت بالفيتناميين الذين جاءوا لمد يد العون . وقد تطلب الأمر تحقيق تفوق عددي أكبر من ١٠ : ١ لإحراز النصر في أربع حالات من سبع . فهذه النسبة كانت كافية في حرب اليونان بينما كانت نسبة

أقل منها كافية في حرب أثيوبيا وكينيا . ويبدو أنه لاتوجد علاقة بسيطة بين هذه النسبة ودرجة التعاطف مع قضية الثوار ..وكذريعة للتدخل فإن العمود رقم ٣ بالجدول رقم ١ يوضح نسبة الأهالي إلى الثوار . وقد تكون المتغيرات الجغرافية المؤثرة على حقيقة الكفاءة النوعية لكلا الطرفين في حروب العصابات هي توفر الأهداف ، والدعم ، والنسيج الطبيعي للأرض الذي يوفر الساتر والإخفاء . ويبدو للوهلة الأولى أن الأرض الممهدة التي تسهل فوقها الحركة تكون ذات أهمية خاصة ، إلا أنه بقليل من التمعن يتضح أن نوعية الأرض عامل محايد بين الطرفين المتضادين . لقد تمكن الفرسان الثوار من البقاء في السهول حتى امتلكت الفرسان الخفيفة النظامية السرعة العالية بأرتالها الطيارة . كما نجح فرسان القوزاق أمام نابليون على مشارف الغابات الروسية الكثيفة وليس في السهوب المفتوحة ولقد قللت الحوامات وطائرات الانقضاض من قيمة خفة الحركة الأفضل للثوّار ضد التشكيلات النظامية ، حتى لم يعد أمام لورانس فرصة للعمل في الصحارى الرملية تحت الظروف الراهنة . وفي المناطق المأهولة بالسكان يتحيد تأثير الأرض بالنسبة للطرفين المتضادين ويصبح توفر السواتر للاختباء تحتها هو المبدأ المرعي بالنسبة للثوار وحتى هذه الميزة قد قلل من شأنها استخدام المراقبة والاستطلاع بالأشعة تحت الحمراء .

وإذا ما نظرنا إلى شدة الدعم أولا ثم إلى تغيير الأهداف فسوف نجد أن عدد الثوار اللازمين للهيمنة على مجريات القتال داخل شريحة أرضية محدودة يتزايد في تناسب طردي مع عدد الأهداف ، ومدى صعوبة الأرض المراد السيطرة عليها . ويوفر الأهالي في الوقت نفسه دعماً ماديا ومعنويا لعمليات العصابات ولكثافة أهداف الحرب التي تزيد من إزعاج السلطة الشرعية . وربما تؤدي الكثافات العالية جدا عندما يساندها الأهالي المحليون ويمدونها بالمعلومات والإمدادات المدنية إلى خفض عدد مناضلي العصابات اللازمين للهيمنة على الأرض . وفي الوقت نفسه سوف تزداد نسبة عدد الجنود اللازمين لقمع هذا العصيان المدني طرديا مع زيادة نسبة السكان وكثافة الأهداف ولكن بمعدل أسرع طالما أن الهدف هو السيطرة المحكمة وليس مجرد استغلال

الفرص والظروف المواتية على نحو ما تحرص عليه تكتيكات العصابات . وتوفر تجربة حرب العصابات في جزيرة قبرص مثلا جيدا للكثافات العالية عندما تقترب من حد التشبع وما يترتب عليها من تدهور الفعالية مع زيادة عدد الجنود النظاميين وتضاعف فرص عثورهم على الثوار . وتحكم نسبة النظاميين إلى الثوار كثافة الأهالي ومدى تعاطفهم مع الهدف الذي تقاتل العصابات من أجله .

وإذا ما تحولنا إلى متغيرات الساتر فسوف يتضح أن عدد أفراد العصابات الضروريين للسيطرة على شريحة أرضية سوف يتناقص بقدر ما يتوفر فيها من سواتر ، وعلى النقيض من ذلك نجد أنه كلما صارت الأرض أكثر تضرسا كلما زاد عدد الجنود النظاميين اللازمين لتمشيطها وفرض السيطرة عليها . وهكذا تتدهور فعالية إجراءات قمع العصيان مع زيادة صعوبة طبيعة الأرض وتوفر السواتر فيها . وعندما انتقلت أعمال التمرد إلى مدن العالم في الحقبة الأخيرة فإنها استغلت كثافة المباني في المناطق السكنية وقد ساعدها تماثل المنظر الطبيعي للمناطق المبنية على نحو ما سبق للأرض الصعبة أن قدمته لها من عون . وكان قد سبق لجيمس كونللي **James Connolly** أن نوه عن ذلك في عام ١٩١٥م مبينا الرابطة بين طرقات المدينة وبين الشعاب والأودية وإن كان لم يتبين في ذلك الوقت المبكر ما سوف تفتحه هذه الأوضاع من آفاق رحبة للحرب المرنة .

ولقد سبق أن سقنا مقاييس ليدل هارت عن الكثافة السكانية التي وضعها كنسبة بين القوة والمساحة . وقد حسبت هذه النسبة لكل جانب في كل حرب ثم سجلت في العمودين ٤ ، ٥ من الجدول رقم (١) ويبين العمود ٦ كثافة الأهداف والعون الذي يقدمه الأهالي . ومن الواضح أنه يصعب الحصول على تقدير كمي لكل الأرض ، كما أنه ليس من المنطقي أن نعمم القياس الفردي لشريحة أرضية على أرض الإقليم كله . وسوف يختلف هذا الوضع إلى حد ما باختلاف كثافة السكان بما يلزم اعتباره عند إجراء التحليل المبدئي كبديل لكل من المتغيريين الجغرافيين . ولاختيار مدى تغير نسبة القوة

ومساحة المنطقة بالنسبة للكثافة تسجل قيم المنتصرين فقط ، سواء أكانوا من الجنود النظاميين أو من أفراد العصابات ــ (شكل رقم ٢) .

وتجدر ملاحظة أن النقط المسجلة تكون قليلة العدد بالنسبة للمتغيرات العشوائية الملائمة لمعالجة الاحتمالات . وهناك ميل لتمييز الخطوط المرسومة للأنشطة الناجحة للعصابات . ويبدو بوضوح أن الكفاءة الأفضل لقوة العصابات تصبح أكثر فعالية في الكثافات العالية وعندما تكون الأهداف والمساعدات والستائر كثيرة . ولإدراك النجاح في الكثافات العالية والستائر الكثيرة ينبغي أن تتمتع القوات الحكومية بنسبة تفوق عددية تتجاوز ١٠ : ١ أما في الأراضي القليلة السكان وفي الريف المفتوح فإنها تستطيع إدراك النصر بنسبة تفوق أقل . ونستخلص من هذا أفضلية استدراج العصابات إلى المدن كما فعل التوباماروس Tupamaros .

إن مايرجح كفة الميزان العددي في غالب الأحيان في الحروب هي قوة الإرادة وشدة بطش المحاربين . فقد أمكن لنحو ٢٥٠ ألف جندي ياباني أن يحاصروا ٤٠٠ ألف ثائر صيني . ومن جهة أخرى فإنه يمكن لبضع عشرات من الإرهابيين إيقاع أفدح الأضرار بالأمن والاستقرار الحكومي . إن جيش التحرير السمبيوني لم يتجاوز عدده عشرة أفراد ، كما أن اللواء الإنجليزي الغاضب Britain's Angry Brigade كان يتكون من ثمانية . ومن نافلة القول أن ميزان القوى في هاتين الحالتين كان يقتصر على القدرة على التدمير بالدرجة الأولى . وهناك من يقول إن الجيش البريطاني يستطيع أن يبطش بالعصابات الإيرلندية إذا ما تعامل معها دون رحمة على نحو ما فعله السوفيت عندما استخدموا تكتيكات المارشال توخاشيفسكي Tukhachevski في العشرينيات ، ليبطشوا بمواطني روسيا البيضاء . وقد مارس الجيش البريطاني التكتيك نفسه عام ١٩١٦م وتأكد من أنه إذا ما استخدم القسوة ضد الثوار الإيرلنديين فسوف يلقون مساعدة الأهالي ويفوزون بعطفهم . فزيادة القسوة والكثافة القتالية تدفع الأهالي إلى الارتماء في أحضان الثوار ، وهو نفس ما صادفه التدخل السوفيتي في أوربا الشرقية خلال الستينيات والسبعينيات أكثر من

مرة . وحتى في مسرح الأفغان تعرض السوفيت بجيشهم الذي ناهز ٩٠ ألف جندي وكميات من الأسلحة المتفوقة كما وكيفا إلى حركة مقاومة عنيفة من العالم الإسلامي أيقظت ذكريات حركة الباسماتش Basmatchi movement التي اشتعلت بين الشعب التركي في الثلاثينيات قرب حدود بلاد الأفغان .

ولا يغرب عن البال أن الظروف الخارجية والظروف والتفصيلات المحلية والفرص التي تسنح تقرر جميعها الحصيلة النهائية للصراع . ومع ذلك فإن ممارسة حرب العصابات على غرار ممارسة لورانس لها سوف تثبت أن عوامل علم الجبر تكون في نهاية المطاف هي الحاسمة ، وهي نفس العوامل الحسابية المذكورة في هذا الفصل . وبهذا يصبح من المفيد متابعة المسألة بهذا المفهوم لمعرفة الأحوال التي تحكم موازين التفوق على الأقل .

مراجع الفصل الثامن

البحث الأساسي الذي يحلل الجانب الجغرافي لتاريخ العالم موجود في :

W.H.McNeill's The Rise of the West, referred to in ch.1

توجد مجموعة من الكتابات في السياسات العالمية تتناول نشوء القوة البحرية الأمريكية حتى عام ١٩٤٥ :

H.and M.Sprout (eds) Foundations of National Power : Readings on World Policies and American Security (Princeton University Press, Princeton,1945)

البحث الجغرافي المقارن هو :

J.J.Mackinder 'TheGeograpical Pivot of History' Geographical Journal,vol.23, no.4,(1904)k,pp, 421-44

عولجت السياسة البحرية والجيوبوليتيكية في :

D.Whittlesey German Strategy of World Conquest (Farrar and Rinehart, New York,1942)

توجد صورة القلوب والأحزمة الفاصلة في :

S.B.Cohen Geography and Politics in a Divided World (Random House,New York,1963)

نظرية الضامة مذكورة في :

R.B.Asprey War in the Shadows : The Guerrilla in History (Doubleday, Garden City,New York,1975)

صورة توسع أسرة هان مذكورة في :

H.J.Wiens China'sMarch Towards the Tropics (The Shoe String Press, Hamden, Connecticut,1954)

عولج نموذج الربط بين الجيوبوليتيكا في :

D.Landau Kissinger :The Uses of Power (Houghton Mifflin, Boston,1972)

A.k.Henrikson 'The Moralist as Geopolitician' The Flether Forum :A Journal of Studies in International Affairs, vol.5, no.2, (1981),pp.391-414

عولج موقف السوفيت حتى عام ١٩٤٤من في :

S.Welles The Time for Decision (Harper and Bros, New York,1944)

يوجد ملخص حديث في :

The International Institute for Strategic Studies 'Prospects of Soviet Power in the 1980s' Adelphi papers, Nos. 151 and 152 (1979)

الفصل التاسع

الحرب في المناطق الحضرية

URBAN WARFARE

«لا تهاجم المدن مطلقا إلّا إذا لم يكن هناك أي بديل آخر»

صن تزو (الفصل الخامس الفقرة السابقة)

تثري المدن إقليم الدولة وتمنحه القوة بقدر ما تجذب اهتمامات الغزاة وأترابهم من الباحثين عن المغانم . كما قد تنشأ بعض المواقع السكنية الكبيرة لأغراض الدفاع . ولقد عمد الفلاحون إلى إقامة مساكنهم متلاصقة لمواجهة احتمالات عدوان المتطفلين أو الأعداء السياسيين ، وسعيا وراء المزيد من الأمن الذي تحققه الكثرة العددية ولو جاء ذلك على حساب زيادة الجهد المبذول في الانتقال بين المسكن والحقل . وتعتبر قرى إيران المحاطة بالأسوار ، وقلاع البربر في إقليم الأطلس بالمغرب الأقصى ، وكيبوتسات الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، أمثلة واقعية على ذلك . ولا تشكل هذه القرى مناطق سكنية لغير المشتغلين بالزراعة مثل التجار والصناع ، ذلك لأن المدينة تعتبر في جوهرها ظاهرة انتقال تجمع بين المباني التي يقطنها مختلف طبقات السكان ، وتقام فيها الماكينات وتخزن البضائع وتوفر الخامات ويتم تبادل المعلومات ، كل ذلك بهدف تقصير المسافات لعمليات الإنتاج والتبادل والحكم ووسائل الترفيه . ويعني ما سبق أن مزايا القرب الشديد يمكن مقايضتها بمدى أهمية الحاجة للمساحة اللازمة لممارسة مختلف النشاطات . ومن المعروف أن السيطرة السياسية والاقتصادية على إقليم الدولة تكون أكثر سهولة بالقبض على زمام الأمور في مراكزها الحضرية ، ولهذا فإن المدن تشكل الأهداف الرئيسية للحرب . وعندما تقطن النسبة الغالبة من المجتمعات في المناطق السكنية بما يتجاوز قدره ٨٠٪ من إجمالي الشعب فإنه يتعين على الغزاة أن يحتلوا المدن ليفرضوا سلطانهم على الإقليم . وتظل أهمية المدن بارزة حتى في المجتمعات الريفية لكونها تربط بين عمليات التموين بالمواد وبين سيطرة القيادة .

وبفضل أهميتها الحربية فغالبا ما يتم انتخاب موقعها ووضع تصميمها ليخدم متطلبات الدفاع . ولقد أقيمت المدن للسيطرة العسكرية على الإقليم وحكمه إداريا ولإنعاش أحواله الاقتصادية ، ولهذا كانت مواقعها تنتخب فوق الأماكن الحاكمة وطرق المواصلات الطبيعية أو الممهدة بأيدي البشر . وعلى المستوى التكتيكي كان موقع المدينة يضمن تعطيل الهجوم ومعاونة الدفاع . وتعتبر مدينة طليطله Toledo الواقعة على منحنى مناسب على نهر التاجه Tagus River ودرام Durham على المنحنى المشابه على نهر الوير مثلين جيدين للمكان المسيطر على ما حوله من الأراضي . وفي حالة طليطلة فإن المدينة تشرف على خانق في النهر يعتبر آخر نقطة عبور لإحباط أية محاولة لعبور النهر . أما درام فتتحكم في الممر الرئيسي الذي يمتد على الشاطىء الشرقي لنهر بيناين .

ويبدو أن الحل الهندسي لتعديات البشر والجياد والصواريخ هو بناء سور حول المدينة . وحتى يمكن توفير التكلفة الباهظة لهذه العملية كان من الواجب حصر مساحة المدينة ، الأمر الذي يترتب عليه كثافة المباني وتلاصقها . ومع أن نظام الشوارع في التصميمات البلدية مقتبس من أنظمة المعسكرات التي تشتمل على مركبات حربية تحتاج إلى شبكات إحداثية (طولية وعرضية) لتوفير سهولة الحركة والسير بها فإن ضرورات الدفاع عن مدن العصور الوسطى تطلبت إدخال بعض التعرجات على أركان الطرقات لتمنع تدفق من يحاولون اجتياح المدينة عنوة بعجلاتهم الحربية الثقيلة ، وإجبارهم على تغيير الاتجاه بين الفينة والفينة فضلا عن إخفاء ما يوجد في طريقهم عن أعينهم حتى اللحظة الأخيرة . وعندما وضع البارود حدا فاصلا لجدوى الأسوار برزت للتو حاجة المدن إلى شيء من العمق الدفاعي لمقاومة القصف المدفعي أو تلطيف آثاره . ولهذا عمدت المدن الإيطالية خلال القرن السادس عشر إلى حفر الخنادق وإقامة المتاريس ذات المعاقل التي تسيطر على ما حولها من الأراضي ويحمي بعضها بعضا ، وقد بلغ هذا العلم الدفاعي ذروته فيما أنشأه فوبان Vauban حول مدينة ليل من استحكامات وخاصة ماأقيم منها للسيطرة على منطقة الفلاندرز . وبمجرد نجاح المهاجم في اختراق أسوار المدينة كانت المذابح

تستعر بينه وبين المدافعين عنها فلا يبقى لهم أمل في الحياة إلا بالتسليم .

وقد كان ضيق الطرقات وكثافةالمباني مع تلاصقها ، داخل المدن ، عاملا مساعدا لشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية . فلما انتعشت ضمائر الجنود بحوافز السياسة الوطنية أصبحوا هم والأهالي قوة غالبة . وليس من شك في أن المتاريس التي أقامها مواطنو باريس في أعوام ١٧٩٢ ، ١٧٩٥ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، و١٨٧١م قد أثرت في مجريات السياسة الفرنسية . ومن جهة أخرى فإن هذه المتاريس لم تكن لتصمد في وجه الأعمال العسكرية المضادة التي تتميز بالقسوة وكفاءة التدمير على نحو ما أبداه نابليون بونابرت بمدفعيته عام ١٧٩٥م ــ ثم كرر الجيش البريطاني الدرس نفسه في دبلن عام ١٩١٦م . وفي العام التالي ترتب على رفض الجنود قمع ثورة الشوارع في مدينة القديس بطرسبرغ التعجيل بالثورة البلشفية . وقد اعتصم عمال المصانع الحربية والنقل خلف المتاريس في المدينة وقد أثارتهم الحرب والجوع فشكلوا القاعدة التي انتشر منها الكيان السوفيتي والثورة الحمراء لتهيمن على روسيا في ختام عام ١٩١٧م .

ولقد تعرضت باريس للحصار والمجاعة خلال الحرب البروسية الفرنسية عام ١٨٧٠م مما أشعل الكفاح الشعبي في طرقاتها . وفي الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ لم يحدث إلا القليل من قتال المدن ، إذ ساعد انتشار المساكن والبيوت فوق الحقول الذي كان قد بدأ في بريطانيا حول عام ١٧٥٠م على إبعاد القتال عن مدن بلجيكا والنورد وإقليم الرور وسيليزيا وضواحي العواصم الكبرى . ولقد دفعت خبرة الحرب العالمية الأولى وإدراك الأهمية المتزايدة لوظائف المناطق الحضرية على الاقتصاد والقوة الوطنية المفكر العكسري البريطاني ليدل هارت وزميله الفرنسي دوهيه **Douhet** إلى صياغة نظريتهما في استراتيجية قصف المدن بالقنابل .

ولقد أدت تكلفة القتال في المدن خلال الحرب العالمية الثانية وما يترتب عليه من خسائر فادحة يحرص أي غازي على تجنبها قدر الإمكان حتى يتمتع

بثمار نصره ، إلى الاتفاق المشترك على تقييد مجالات الحرب ، والإعلان الصريح أو الضمني عن المدن المفتوحة مثل باريس وروما ومانيللا . ولقد انسحب الجنرال ماك آرثر إلى باتان وكورجيدور ليتجنب تدمير مانيللا ويمد من أمد دفاعه . وبعودة ماك آرثر إلى لوزون أعلن ياماشيتا أن المدينة مفتوحة رغم استمرار بعض الجند اليابانيين غير التابعين له في القتال داخلها . وفي عام ١٩٤٠م اجتاح الجيش الألماني المناطق السكنية بالأراضي الواطئة (هولندا وبلجيكا) بعمليات مشتركة من المظليين والدبابات التي نجحت في الاستيلاء على النقاط الحاكمة في هذا الممر الذي عانى من توالي الصراعات فوقه .

وكان القصف غير المقصود للمدنيين من سكان لندن في منتصف عام ١٩٤٠م سببا في قيام تشرشل بالانتقام وقصف برلين . ورد هتلر بالقصف الجوي المركز معتمدا على نظرية دوهيه التي وضعها قيد التجربة . ومازال هدفه غير واضح إذ يؤكد البعض أنه كان يبغي الانتقام بينما يذهب آخرون إلى أنه كان يهدف إلى إرهاب المدنيين . أما الأمر الواضح فهو أن غورنغ Goering كان الوحيد الذي اعتبر هذا القصف فاتحة للغزو الذي لم يكن هتلر ولا أدميرالاته ولا جنرالاته جادين في شنه . وهكذا أثبت هذا القصف المركز للمدن ورد الحلفاء عليه فشلاً استراتيجيا ودافعا إلى تقوية الإرادة الوطنية للذين تعرضوا لويلاته . ورغم ذلك احتلت نظرية القصف الاستراتيجي موقع المذهب العسكري ووصلت في التطبيق إلى أقصى حدود القسوة التقنية بإبادة هيروشيما ونجازاكي . وقد زودت نظرية الانتقام الجسيم بالسلاح الباتر الذي وصل بالأمور إلى حد التدمير المتبادل المؤكد للمدن الرئيسية في أمريكا الشمالية وأوربا التي تعتبر أول الرهائن لهذه النظرية .

وكانت التجربة التي ستظل تثير إعجاب كل الجيوش التي تدعى للقتال داخل المدن هي معركة ستالينغراد في خريف عام ١٩٤٣م . لقد أمر هتلر الجنرال باولوس Paulus أن يحتل المدينة بجيشه السادس . وبرغم أنها لم تكن تتمتع بقيمة استراتيجية ذات وزن فإن ما يعنيه اسمها كان الحافز إلى إثبات تفوق الألمان والاشتراكية الوطنية على الشيوعية ، فضلا عن تحقيق نبوءة قديمة

تزعم أن من يعبر نهر الفولغا سوف يقهر روسيا ويتمكن من احتلالها . ولقد صادف الهجوم في مراحله الأولى على ضواحي المدينة مقاومة ضعيفة حتى بلغ قلب مناطقها السكنية ، وذلك رغم ما أبدته مجموعات العاصفة الروسية من مقاومة كانت تهدف إلى كسب الوقت بمزاولة القتال العنيد من منزل إلى منزل . وخلال أسبوع واحد نجح الغزاة النازيون في التسرب إلى قلب المدينة الذي استطاعوا احتلاله في الأسبوع التالي . إلّا أن الدفاعات الصامدة في الأحياء الصناعية داخل المدينة وقفت في وجه الهجوم مستغلة المباني الكثيفة تمارس القتال المتلاحم ، بينما حرم الغبار والتراب والدخان الألمان من استغلال تفوقهم الجوي . وهكذا ظل الروس يتمسكون بموطىء قدم مع استنزاف إمدادات باولوس من الأغذية والذخائر بينما زمهرير الشتاء يطبق على المدينة مع سبعة جيوش سوفيتية ناهز حجمها الإجمالي المليون جندي . وهكذا وقع جيش باولوس في الحصار الذي انتهى به إلى معسكرات الأسر .

ثم اندفع الروس غربا لاستعادة كييف ولينينغراد ووارسو فلم يتوقفوا حتى اجتاحوا برلين بفضل تفوقهم الكمي الساحق الذي نحت في النظرية العسكرية السوفيتية قاعدة مرعية تقضي بحتمية إحراز التفوق العددي على الخصم بما لا يقل عن ٣ :١ لاجتياح موقع دفاعي يقع في الريف ، و ١٠ :١ لإحراز النصر في المدن . وفي بودابست خاض الجيش السوفيتي تجربته الرئيسية الثانية عام ١٩٥٦م التي استلزمت شن عدة معارك على امتداد أربعة أيام في شوارع العاصمة ، وسقوط نحو ٢٥ ألف مجري قبل أن يتمكن الروس من سحق هذه الثورة .

ولقد مارس الحلفاء قتال المدن في كاسينو ، وبريست ، وآرنهايم ، وآخن ، وحوض الرور . ومنذ ذلك الوقت لم يلق الجيش الأمريكي إلّا تدريبا قليلا في سيئول وهيو خلال هجوم التيت عام ١٩٦٨م Tet offensive . ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الحرب الأخيرة قد أفرزت دروسا مستفادة عن القتال في العواصم العصرية . فسيول نسخة من كل من مدن آنام الكثيفة المخططة طبقا لتصميمات مدن الامبراطورية الصينية ، وكذلك من المستوطنات الاستعمارية

الفرنسية في القرن التاسع عشر . وقد مزج الجيش البريطاني بين مهام الشرطة وقمع المتظاهرين في مدن القدس ، ونيقوسيا ، وعدن ، وبلفاست ، ودرى وحذا الفرنسيون حذوهم في الجزائر . وانطبعت في ذاكرة الجيش الألماني ذكريات دفاعات المؤخرة عام ١٩٤٥م وضرورة ممارسة قتال المناطق المبنية داخل مدنهم في المستقبل .

ومهما كانت واقعية هذه الخبرة فقد استنبط منها المحللون والاستراتيجيون العسكريون درسا يؤكد أفضلية الدفاع في المناطق الحضرية على المناطق الريفية ، ومع أن النسب التي استخلصوها لا تماثل النسب التي استخلصها السوفيت فإن حجم التفوق العددي الذي يدور في تصورهم ليس بالقليل . ونستنتج مما سبق أن القانون الأول للقتال في المناطق المبنية ما زال على حاله منذ سكه صن تزو في مأثورته القديمة «انتظر في الخارج ، ثم داوم على التعسس» .

ويبدو أن وجهة النظر هذه قد بنيت على انطباعات المباني العالية الكثيفة المتلاصقة التي توفر ستائر دفاعية وشراكاً من الركام تمنع سير الدبابات . وما زالت هذه النظرة تعتبر صحيحة بالنسبة لخصائص وسط المدينة المبنية على الطراز القديم . ومن الطريف أن البارون هوسمان **Baron Houssmann** عندما أراد أن يجعل قلب باريس أقل مناعة بالنسبة للدفاع بواسطة الطبقة العاملة فإنه استخدم تصميمات مشابهة لما يصممه المهندسون لضواحي المدن في القرن العشرين . لقد شق هوسمان الطرق العريضة إلى قلب المدينة ليسهل على المشاة والضوء والهواء النقي الحركة عبرها . وزاد هوسمان من نسبة المساحات التي تشغلها الطرقات والمناطق المفتوحة بالنسبة للمساحات المبنية ليحد من إمكانات الدفاع بالمتاريس التقليدية . ورغم الاختلاف الجذري بين المظهر الطبيعي للمدن القديمة وبين مظهر الضواحي الحديثة فما زال حلف الناتو يعتنق المبدأ الرابع لكلاوفيتز الذي يؤكد بأن كل ما يقدمه مسرح الحرب من معاونات إنما ينصب على الدفاع ، كما أنه شديد الاعتقاد بأن المساحات الشاسعة من المباني التي استجدت منذ عام ١٩٤٥م سوف تبطىء من معدل

زحف جيوش حلف وارسو . ويحوي مرجع مدرسة المشاة الأمريكية المسمى «تقرير عن القتال في المدن» المذهب الراهن للتجريدة الأمريكية في حلف الناتو ومفاده :

« لقد أمد الاتساع الهائل في المناطق المبنية بغرب أوروبا الجيش الأمريكي بمزايا فريدة لا يستهان بها بالنسبة للدفاع عن هذه المنطقة ، إذ ترتب على الامتداد العمراني في وادي الرور ومنطقة هامبورغ المرتبطة دفاعيا بجبال تاونس Taunus Mountains وشريحة فرانكفورت أن توفرت دعائم الدفاع المنيع بفضل المباني الكبيرة التي شكلت عوائق رئيسة في وجه أي عدوان محتمل يتحتم عليه اجتيازها ليواصل زحفه » .

وقد انتشرت المناطق السكنية والتجارية في الضواحي منذ عام ١٩٤٥م بكثافات قليلة بفضل شبكة الطرق الممتازة واعتياد الأهالي على سياراتهم الخاصة في الانتقال بين مساكنهم وأماكن عملهم . ويلاحظ أن هذه المساكن متباعدة بعضها عن بعض وتحيط بها فراغات كبيرة ، ولا تزيد هياكلها المتينة البنيان عن طابق أو طابقين . وهناك العديد من المناطق السكنية المشابهة التي صنعتها يد الإنسان هنا وهناك في مختلف الهيئات الاستراتيجية وخاصة في شمال غرب أوروبا . وقد تختلف النظرة إلى مدى سهولة اجتياح مثل هذه الضواحي أو سهولة الدفاع عنها من وجهة النظر التكتيكية . وتبعا لذلك تصبح المترتبات الاستراتيجية لمثل هذه الضواحي سنداً لأي هجوم سوفيتي على أوروبا الغربية . وهي حقيقة تناقض نظرة الناتو إليها كعائق في وجه قوات حلف وارسو يكفي لتعطيلها عن الوصول إلى ساحل الأطلسي قبل إنهاء مفاوضات وقف النيران . ولاختبار مدى واقعية هذه الفرصة يلزم فحص مدى تعرض هذه الضواحي للاختراق الفعلي .

تقويم طبيعة الأرض في المناطق الحضرية : The Evaluation of Urban Terrain

يمكن تحليل كل من الظاهرات الطبيعية والظاهرات البشرية بغرض معاونة

القائد على اتخاذ قراره التكتيكي واستغلال الأرض لصالحه وضد خصمه . وكأساس مبدئي فإن اختيار أفضل محور للتقدم يتوقف على حسن تقويم صلاحية الأرض للسير عبرها . وتنشأ ضرورة دراسة صلاحية الأرض للتحركات من واقع أهمية الموازنة بين خفة الحركة ودرجة الاستتار التي توفرها الأرض . وتتأثر سرعة الحركة عبر الأراضي بالمزايا التي توفرها من وجهة نظر خفة الحركة التي تخدم المهاجم وكذا تسهيلات الاستتار التي تخدم المدافع . فالاستتار قد يضر بخفة الحركة والعكس بالعكس . ومن نافلة القول أن الإخفاء يستر القوات من الملاحظة بالآلات والأجهزة وهو يخدم كُلًا من الدفاع والهجوم معا . وتعتبر المفاجأة التي قد يحققها المهاجم بحسن استغلال مزايا الاستتار والإخفاء عاملا حاسماً وإن كانت وجهات النظر المحافظة تعتبرها عاملا محايداً .

فإذا ما بدأنا بفحص عنصر خفة الحركة أولا فسوف يتضح لنا أن سهولة كسب الأرض بقوة السلاح ليست مرتبطة فقط بمدى توفر الطرق التي تؤدي من نقطة البداية إلى الهدف ولا بمقدار سعتها ، ذلك لأن عنصر خفة الحركة يعتمد إلى جانب ذلك على سهولة الوصول إلى طرق الاقتراب المختلفة في مواجهة المقاومات التي قد تصادفها على خط التقدم . وبالنسبة للقوة المضادة فإن هذه الطرق لا تعدو كونها شبكة من محاور الحركة التي كلما زادت كثافتها سهل تجنب المقاومات التي قد تصادفها القوات المتقدمة في طريقها أو الالتفاف حولها . وإذا أخذنا حالة شبكة طرق طولية وعرضية ممتدة داخل مربع من الأرض فسوف نجد أن الوقت الإضافي اللازم لقطع مسافة محددة داخل هذا المربع في مواجهة مقاومة الخصم على أحد أضلاعه تعادل طول إحدى هذه الوصلات الطولية أو العرضية داخل المربع . وكلما كانت شبكة الطرق أفضل كلما قلت هذه المسافة وزادت بالتالي كثافة الطرق داخل الشبكة ومن وجهة النظر هذه وحدها يمكن أن نستنتج أن المناطق السكنية التي تقطعها شبكة كثيفة من الطرق تصب في قلب المنطقة توفر محورا جيدا للهجوم عندما تكون السرعة من الأهمية بمكان .

ويتضح من الشكل رقم (٣) أن العلاقة بين خفة الحركة والمسافة من قلب

المنطقة المبنية تكون سالبة . ومن نافلة القول أن العملية الهجومية التي تشكل المدرعات رأس حربتها كما هو متوقع من القوات السوفيتية ، سوف تلتزم بالطرق قدر ما تسمح به الظروف . فالسرعات على الطرق المزفتة تزيد على ضعف السرعات عبر الأراضي غير الممهدة ، ويكون هذا الفارق أكبر في الجو الممطر . ويعني ذلك أن الدفاع عن المناطق الريفية يستطيع بنفس القوة أن يحمي مواجهة أوسع شريطة أن تكون شبكة الطرق التي تخدمها أقل كثافة عن مثيلتها في المناطق الحضرية .

وتوفر المناطق الحضرية ، من وجهة نظر المدافع ، ساتراً أفضل ومواد أكثر مناسبة لقفل طرق الاقتراب . ويمكن جمع ما بوسط المدينة من مواد لعمل حاجز عظيم يجبر المهاجم على التوقف ، كما توفر المباني والمنشئات مراكز مرتفعة للمراقبة ونقطا جيدة لتصويب النيران بإحكام . إن صفوف مساكن مدن القرن التاسع عشر المقامة على شكل شبه الظل الذي يحيط بقلبها توفر إمكانية جيدة لبث الكمائن وإقامة الحواجز والمتاريس .

أما مساكن الضواحي المنعزلة بعضها عن بعض فيمكن الالتفاف حولها بسهولة كما أنها لاتوفر ركاما كافيا لعمل حواجز أوعراقيل في وجه الجيوش الزاحفة . وبينما يوفر قبو المساكن الألمانية ملجأ للوقاية والاستتار فإنه يحد من نوعية الأسلحة التي يمكن إطلاقها منه بسبب ما ينتج عنها من لهب خلفي .

ورغم إصرار الجيش الأمريكي على اعتبار أن هذه الضواحي تشكل مناطق دفاعية فإنه يدرك أن السواتر والموانع التي توفرها محدودة للغاية . ويظهر ذلك جليا من واقع منهج التدريب التكتيكي الذي يدرسه ضباط الأركان والضباط المقاتلون في كلية القيادة والأركان خاصة ما هو مذكور في مرجع عمليات الفتح في المناطق الأمامية بالمسرح الأوربي الصادر عام ١٩٧٨م ، ومرجع العمليات الحربية في الأراضي المبنية بالنسبة للدفاع الإيجابي . ويعتبر المرجع الأخير أن تصميم البيت العائلي يوفر ميدان نيران جيداً لمسافة ٢٥٠ ياردة من الطريق وميداناً متعامداً عليه يناهز ١٢٥ ياردة . ومن الواضح أن هذا يقلل

من الوقت المتاح أمام المدافعين لمشاهدة القوة المهاجمة والتعامل معها بالنيران . ويبلغ معدل عرض الطرق في هذه المناطق نحو ١٥ ياردة إلّا أن إقامة البيوت إلى الخلف قليلا من حافة الطريق يزيد من هذا الفضاء إلى ٣٠ ياردة . ويبدو أن ذلك يخدم المدرعات على وجه الخصوص . ومن المعروف أن غالبية أسلحة حلف الناتو مصممة للاستخدام في المناطق المفتوحة وحتى مسافة ميل أو نحو ذلك ، وأنها لا تصلح للعمل في المناطق المبنية التي يقل ميدان المراقبة والنيران فيها بما لا يتعدى المائة ياردة . ولا يستطيع الصاروخ تاو TOW المضاد للدبابات أن يعمل في المناطق المقفولة دون الإضرار بمن يستخدمه أو حتى التسبب في قتله بوميضه الخلفي . ولأنه يوجه بالسلك فلا يمكن إحكام إصابته للهدف خلال المسافة القصيرة التي توفرها المدن . والواقع أن البازوكا عيار ٣٫٥ بوصة التي بطل استخدامها تعتبر أكثر مناسبة للعمل تحت هذه الظروف . أما خلفها القصير المدى فلن يعطل دبابة إلّا إذا أصابها في جنزيرها كما أنه يشتهر بأنه يلحق الضرر بصاحبه عندما يشد زنبركه فضلا عن كثرة أعطاله .

ويكشف وصف مرجع كلية القيادة والأركان سالف الذكر عن قلة جدوى الموانع التي تقام في طرقات الضواحي نظراً لسهولة الالتفاف حولها لكثرة المحاور التي تصلح لاقتراب المدرعات والمشاة خلال مثل تلك المناطق فضلا عن ضعف تأثير ركام الأنقاض على خفة حركة القوات الزاحفة خلالها . ورغم هذه المزاعم فإن المرجع نفسه عندما ينتهي إلى تقويم الموضوع يعود فيشير إلى اقتناع الجيش الأمريكي بصلاحية هذه الضواحي لممارسة الدفاع بالمشاة المترجلين وعدم مناسبتها إلى حد ما للهجوم أو الدفاع بالعربات المدرعة . وبوضع أسلوب الناتو وأسلحته موضع الاعتبار فإنه سوف يتضح لنا عكس ذلك على خط مستقيم ، إذ توفر الضواحي ساترا جيدا لهجوم مدرع . وطالما ظلت قوات حلف وارسو مولعة بامتلاك العربات ذات الدواليب فسوف تضطر إلى التقيد بالطرق المرصوفة التي تتجمع شبكاتها داخل المناطق المبنية . وهناك من الشواهد ما يرجح أن ظروف هذه الضواحي قد وضعت في

الاعتبار عند تصميم الدبابات السوفيتية الجديدة . فالاخفاء الذي توفره الكثافة القليلة للمساكن مع كثرة الأشجار تمد المهاجم بعدة مزايا على المدافع الذي يعاني من قصر ميدان الرؤية وإطلاق النيران . وفي الواقع فإن الضواحي تستطيع إخفاء تقدم المدرعات على نحو ما فعلته الحشائش الطويلة والأرض المشطورة إلى أقسام صغيرة مع تقدم مقاتلي الزولو حتى تمكنوا من مباغتة البريطانيين والإطباق عليهم فجأة في اساندلوانا Isandhlwana عام ١٨٧٩م .

وإذا ما ركزنا النظر على الساتر الذي توفره طبيعة الأرض في المناطق الحضرية فإنه يتضح لنا أنه يزداد جدوى كلما اتجهنا من الريف إلى الضواحي حتى يصل إلى ذروته العسكرية قرب قلب المدينة حيث تبلغ كثافة المساكن المقامة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أعلى معدلاتها . وباعتبار أن مزايا الساتر تخدم الدفاع بالدرجة الأولى فإن سرعة الحركة التي يستطيع المدافع أن يجبر بها المهاجم على إبطاء معدل زحفه تتناسب عكسيا مع مقدار ما توفره الأرض من سواتر . وعلى وجه العموم فإن هذه السرعة تقل تدريجيا بتحرك المهاجم من الريف إلى الضواحي ثم التوغل في قلب المدينة ذي الكثافة السكانية العالية (شكل رقم ٣) .

وإذا ما ربطنا بين تناقص عدد السواتر التي توفرها المناطق المبنية بعيدا عن قلب المدينة وبين تناقص خفة الحركة التي توفرها شبكة الطرق القليلة فسوف يتضح عندئذ أن قابلية الأرض للاختراق تزداد بزيادة القدرة على التغلب على الساتر عن طريق حُسن استغلال شبكة الطرق المتوفرة . وهكذا يصبح بياني السرعة الميدانية للغزو مشتملا على حافة دائرية تشبه التل المرتفع ولها انبعاج للداخل (فوهة بركان) يواجه الميول التي تلف حول قلب المدينة ، وتهبط مع انبطاح الحافة الحضرية ــ الريفية . وتقطع محاور المقاومة الأدنى هذه المنطقة متجهة إلى الأرض المرتفعة المبنية مع تحولها عن منخفض قلب المدينة .

العواقب الاستراتيجية Strategic Implications

إذا افترضنا صحة هذا التحليل وأن هذا التعميم ينطبق على الضواحي

الألمانية يصبح أفضل محور لتقدم الجيش الروسي على امتداد الممر الشرقي الغربي للحركة فيما بين المدن الألمانية بالاندفاع حول مناطق المدن الداخلية مع تجنب الريف المفتوح واستغلال مزايا هذه الضواحي لأقصى مدى ممكن . ويعني ذلك الاندفاع على طول خط هلويغ Hellweg الذي يشكل المحور التاريخي لألمانيا خلال الشريط الكثيف السكان ذي التربة الصفراء المحشور في الهضبة المركزية قرب الحافة الجنوبية لسهل أوربا . ويشتمل هذا الشريط على مدن برونزويك وهانوفر وهاملن وبادربورن ودورتموند ، ثم يلتف حول الحافة الجنوبية لحوض الرور ليصل إلى عقدة الاقتصاد الأوربي بنوردهاين قبل أن يهبط إلى المنطقة السكنية الكثيفة حول مصب نهر الراين . وهناك ميزة إضافية لمثل هذه الاستراتيجية تتمثل في إبطال جدوى الأسلحة النيوترونية لأن أغلب مراحل هذا التقدم تحتمي بسكان الضواحي وليس في مناطق الريف التي تقع بين المدن حيث تم التخطيط لاستخدام قنابل النيوترون ضدها . ويمكن أن يتحقق أفضل دفاع ضد مثل هذا الزحف الروسي عن طريق نشر قوات الناتو خلف مركز المدن لإجبار الأرتال الزاحفة على توسيع الفواصل بينها بالقدر الذي يهدد طاقة رأس حربة الهجوم ، ومن ثم زيادة درجة تعرض هذه الأرتال لقوة نيران الناتو . وحتى هذه الخطة قد لا تكون كافية لجعل الضواحي منيعة في وجه الغزو نحو ما يأمل الجيش الأمريكي .

وتركز برامج التدريب العسكري على التدريب على القتال في الأراضي المفتوحة بقدر ما تتوفر ميادين التدريب عليها وعلى نحو ما نصح به كل من جودريان وروميل وباتون . وقد تعتبر المناورات الحالمة للحرب في سهول ألمانيا نوعا عصريا من تقاليد الفرسان في ممارسة الهجوم بالسلاح الأبيض التي ظل الجيش البريطاني ينتهجها حتى عام ١٩١٤م . لقد كانت الرومانسية الحربية المزودة بالسلاح المفضل تناسب تماما الميادين العريضة للنيران رغم أنها تشكل نوعا من التورط الذي ينطوي على مفارقة تاريخية . والواقع أن التجربة التاريخية والسابقات المرعية لا تصلح كدرس مستفاد في مثل هذه الظروف . لقد تغير وجه الأرض فلم تعد المدن مجرد نقط على الخرائط بل شرائح كبيرة من الأرض

تصلح لأن تكون مسرحاً للحرب .

إن أساطين الحرب الغابرين لم يواجهوا هذه الظاهرة بفضل بعد نظرهم الذي جنبهم الوقوع في مثل هذه المواقف . وإذا أراد الروس مهاجمة المدن وجب عليهم الاسترشاد بمأثورة صن تزو ، التي تقضي بالبدء بالاستيلاء على هدف يعتبره الخصم ثمينا حتى تجبره بعدئذ على الرضوخ لإرادتك . وحتى إذا استمر الجيش الأمريكي ينظر إلى الضواحي كأرض تناسب الدفاع فإنه يتعين على الجيش والحكومة الألمانية أن يدركا أن قرار مهاجمة أي مدينة أو الدفاع عنها سوف يؤدي بالضرورة إلى تدميرها . ويؤكد مرجع الميدان الأمريكي أن الضواحي الألمانية تشكل الهدف الذي يلزم الدفاع عنه بنشر قوات الناتو في أقصى الأمام ، وذلك من وجهة نظرهم ، كما أن أي ميل إلى تجنب عواقب الدفاع وما يسببه من دمار يفتح الطريق أمام الهجوم الذي لم يصرف السوفيت النظر عنه البتة . إن المذهب العسكري السوفيتي يتضمن احتمالات ممارسة تكتيكات القتال في المدن لتجنب الأسلحة النووية التكتيكية واستغلال ما توفره هذه المدن من تسهيلات للإخفاء والاستتار . ويتوقع السوفيت أن يمارسوا الهجوم على المناطق المبنية واحتلال المدن بمعدل واحدة كل ٣٠ ميلاً تقريبا ، كما أنهم يدركون الحدود التي تعرضها منحنيات المناطق الحضرية وساحاتها على الوقت الذي تستغرقه عملية ضبط نيران الأسلحة المضادة للدبابات على أهدافها . وكما يبدو من موقف الناتو الحالي فإن استخدام الأسلحة النووية غير وارد ، كما أن مهمتها هي قفل الطريق في وجه أي هجوم سوفيتي محتمل ، وكسب الوقت بممارسة أعمال الدفاع الإيجابي حتى الوصول إلى حل سياسي . ولا يفصح تقديرهم لعامل طبيعة الأرض عن استعداد الناتو لإنجاز مثل هذه المهمة الاستراتيجية المحدودة .

الثورة في المناطق الحضرية :

هدفت قوات الفيت كونغ إبان هجوم (التيت) عام ١٩٦٨م إلى ضرب الحصار حول مدينة سايجون باحتلال ضواحيها دون التوغل حتى قلب المدينة .

والواقع أن غرض هذه العملية الهجومية كان رمزيا بقدر ماكان عسكريا . ولقد رغب الفيت كونغ في توسيع رقعة الصراع لتصل إلى أبواب المناطق السكنية كجزء من المعركة السياسية التي استهدفت السفارة الأمريكية في وسط المدينة خصوصا وأنها تمثل رمز التورط الأمريكي . كما أن حرب العصابات التي اشتعلت في أمريكا اللاتينية شاهدت تحولا جذريا نحو القتال في المدن في أواسط الستينيات . ويرجع الفضل الأكبر في نجاح كاسترو في كوبا إلى مؤازرة الأهالي لثورته وإن كان دورهم في دعم أعماله لم يأخذ حقه من الإعلام . وليس ثمة شك في أن الأحياء الفقيرة في المدينة وأرقى ضواحيها يوفران تسهيلات الإخفاء والاستتار بدرجة أفضل من التلال والمناطق الجبلية . فالمال والمدافع والمعلومات تتوفر بقدر أكبر وأسهل كما أن الأهداف تكون أشد كثافة في الأرض . وقد صرح غويلن Guillen أن حركة العصابات في أورغواي تحتاج إلى مساندة ٨٠٪ من الأهالي وأن مركز القوة يقع اليوم في ثالوث خفة الحركة ،وتكتيكات الضرب والهرب ، وحسن استخدام المتاريس بأسلوب الحرب الثورية . وقد سارعت جماعات التوبامارس في أوراغواي إلى الاستجابة لصيحة الثورة ولكنها وقعت في خطأ كبير بالتورط في داخل المناطق السكنية في العاصمة مونتفيديو مما أفقدها خفة الحركة . وقد أصبحت تلك المجموعات هدفا سهلا للقوات النظامية التي نجحت في قمع نشاطها تماما عام ١٩٧٢م . وقد نصح الزعيم ماريغللا بهز كيان الوضع القائم في البرازيل عن طريق شن القتال في المناطق السكنية بالعاصمة ريو دي جانيرو ومدن ساو باولو وبيلو هوريزونتي التي تشكل مثلثا من الأرض . ورغم أنه سقط قتيلا عام ١٩٦٩م فإن هدفه تحقق بإسقاط الحكومة الديموقراطية وإحلال دكتاتورية عرفية محلها . وفي عالم يكاد ينفجر بسكانه يصبح من الطبيعي أن يتجه أي صراع يرغب في كسب جماهير الشعب إلى القتال في المدن . وعلى سبيل المثال فإن مستقبل جنوب أفريقيا سوف يتقرر داخل مدينتي جوها نسبرج وكيب تاون وليس في صحراء ناميبيا .

ولن ينفرد القادة الامبرياليون أو أولئك الذين يسعون إلى قلب النظام من

الداخل بممارسة الصراع المسلح في الشوارع والمنازل ، بل وسوف يشاركهم في ذلك كل من يسعى إلى إقرار الأمن والنظام العالمي .

مراجع الفصل التاسع :

المصادر العسكرية المعنية بالحرب في المناطق الحضرية هي :

US Army Infantry School Combat Cities Report (Fort Benning, Georgia,1972)

US Army Command and General Staff College,Forward Deployed Force Operations (European Setting), Lesson 8, Military Operations on Urban Terrain (MOUNT) in the Active Defense (Fort Leavenworth, Kansas,1978)

US Army Field Manual 71-2, The Tank and Mechanized Infantry Task Force (Washington, DC,1977)Appendix F

نوقشت احتمالات الحرب في الضواحي في :

P.Bracken 'Urban Sprawl and NATO Defence' Survival vol.18,no.6, (1976),pp.254-60

B.Bruce-Briggs 'Suburban Warfare' Military Review vol.54,no.6.(1974),pp.3-10

الفصل العاشر

حلبات الصراع وإشاعات الحرب

ZONES OF CONFLICT AND RUMOURS OF WAR

«وكما أن الماء لا يبقى على هيئة واحدة ، فكذلك حال الحرب»

صن تزو (الفصل ٦ ، الفقرة ٢٩)

بعد أن أضنى الجنرال هاكيت **General Hackett** وزملاءه ومستشاريه في حلف الناتو البحثُ عن نقطة ساخنة على خريطة العالم تصلح لأن تكون مسرحا لحربهم العالمية الثالثة الخيالية ، وجدوا ضالتهم آخر المطاف في جنوب أفريقيا . وكان ظنهم بالعالم عام ١٩٨٥م من منظور سنة ١٩٧٧م أن شاه إيران لا يزال يقبض على زمام الأمور في طهران . وفي مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب وما تلاه من طبعات أعاد هاكيت التأكيد بأن التنبؤ الصحيح الوحيد الذي يستطيع أن يضمنه هو أن شيئا ما لن يحدث على نحو ما ورد في متن الكتاب ، وإن كانت الفرصة متاحة لبعض هذه الأمور أن تتحقق بالصدفة المحضة . لقد غاب عن الرئيس كارتر والسيد برزينسكي **Brzezinski** إدراك مغزى التطورات التي كانت تحدث في إيران عام ١٩٧٩م رغم امتلاكهما لأفضل جهاز لجمع المعلومات في العالم ، وتوفر الأنباء الكافية لديهما عن مجريات الأمور في إيران . وسوف تظل هذه العثرة درسا قاسيا في أية محادثات تعقد بشأن جغرافية أحداث المستقبل من وجهة النظر العسكرية . إن الأحداث المهمة تفرض القرارات التي لا تتكرر ، كما تحسم الصدفة المحضة نتيجة المباراة التي تدور في الحلبة بغرض الفوز بكل شيء أو ضياع كل شيء .

وتعمل دوافع الحيرة ومتاهات المنطق التي تخالط القرارات الإنسانية على جعل دوافع خيارات الماضي صعبة الإدراك ، ناهيك عن خيارات المستقبل .

كما أن استمرار الفشل في توقع المشكلات القادمة في المعترك الدولي يعتبر الترياق الشافي للتغلب على التعميم العشوائي الساذج . إن ما نواجهه من احتمالات المستقبل يبلغ من الكثرة حدا يتعذر معه توقع ما سوف يحدث فعلا . كما أننا لا نعلم بدقة كافية حقيقة ما جرى في التاريخ المعاصر أو القديم ، ناهيك عما يمكن أن يحدث في المستقبل . وقد نستطيع الحد من غلواء الحيرة التي نواجهها بتحسين كمية ونوعية المعلومات المتيسرة ، ثم سرعة جمعها وتحويلها إلى معلومات موثوق بصحتها . وعلى أية حال فإن المستقبل سوف يظل محتجبا عن مداركنا في ظهر الغيب ، يومض كفيض من التوقعات التي لا يحدد مسارها قوانين الاحتمالات رغم أنها لا تدفع بها نحو وجهة معينة ولا تخفض أية كمية من التحليلات أو النظريات هذا الفيض أو تحصره داخل قناة يمكن السيطرة عليها . وبناء على ذلك ينبغي إجراء كافة التحضيرات للمستقبل على اعتبار أنه رحله شديدة الاضطراب . وإذا ما حاول المرء ترتيب الأمور لتجري في أعنتها بيسر وسهولة فوق سطح من الماء الساكن كان كمن يهيء لوقوع الكارثة . وعلى وجه الخصوص فإن رسم الموقف الدبلوماسي والعسكري للشعب في شكل خريطة مبسطة أو رسم بياني لعلاقة جيوبوليتيكية يعتبر ضربا من تمهيد الطرق للترحيب بدول عديدة في المستقبل . إن ضعف المرونة وردود الفعل المبنية على التعميم الذي ينبثق عن خريطة ذهنية للعالم غير كاملة المعالم قد يؤديا إلى الدمار المتبادل .

مستويات الحروب : Classes of War

للصراع البشري أوجه متعددة . وتتوقف بداية فهم جغرافية هذا الصراع على تصنيف مستويات الحروب تبعا لظروف نشوبها . والواقع أن الأسماء التي أطلقت على أنواع الحروب مثقلة بالعواطف والمضامين المعنوية بالتداعي إن لم يكن بالقصد . وأوضح الأمثلة على ذلك هي الحرب المقدسة ، كما أن الحرب الثورية أطلقت على معارك أعتى الحركات الرجعية . وبينما تثير حرب العصابات في بعض الأذهان مشاعر طيبة عن النضال الشعبي ، فإنها تعني الخيانة والفوضى لدى البعض الآخر . وتترك العتبة الباردة للنواة انطباعا عن مشكلة

فنية تقوم صفوة من علماء الأطراف المتنازعة بحسمها . لقد كانت الحرب العالمية التي لا ترضى عن النصر المؤزر بديلاً هي أرق التعبيرات عما تبذله البشرية من مساعٍ للتغلب على الشر بالنسبة لجيل بأكمله من مواطني الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية . ومن يعتبره البعض إرهابيا ينظر إليه البعض الآخر كبطلٍ . وليس ثمة شك في أن الطيار الذي يحلق فوق أرض العدو المليئة بعناصر الدفاع الجوي ليلقي قنابله على هدفه يكون أكثر شجاعة ممن يدس قنبلة داخل حقيبة ليدمر طائرة . ومن الطبيعي أن ينشر خطر الدمار الشامل بالأسلحة النووية الاستراتيجية قدراً من الرعب والفزع أكبر مما تسببه الأعمال الوحشية الفردية . وإذا بدأ التحقيق في الخطايا التي ارتكبها بعض الناس فسوف يحدث الارتباك إذا ما اعتبرها البعض أعمالاً لا غبار عليها .

وبتعبيرات واقعية فإن التسميات التي تطلق على الحروب تخلط الأوصاف الجغرافية بالمضامين السياسية والاجتماعية ، وكذلك بنوعية الأرض والتكتيكات المستخدمة . وترتبط حرب العصابات بمجموعة متباينة من التكتيكات بمثل ما ترتبط الحرب في المناطق الحضرية بطبيعة الأرض ، والحرب العالمية بالمحتوى الجغرافي ، والحرب الأهلية بالقيود السياسية . وعادة ما تستخدم هذه المسميات بطريقة غير دقيقة ، إذ يستخدم الاصطلاح حرب العصابات بتوسع كبير بدءاً بأعمال العنف السياسي الفردية وحتى المناورات الكبرى بالتشكيلات الميدانية . وتشتعل بعض الحروب الأهلية بين بعض الطبقات الاجتماعية في شعب ما بينما يدور البعض الآخر من أجل مصالح إقليمية . وطبقا لوجهة النظر الكونفدرالية (الاتحادية) لم تكن الحرب الأهلية الأمريكية أهلية إذ لم تتطلع إلى السيطرة على الحكومة المركزية . وهكذا تختلط الأسباب فيحدث الخطأ في تسميات الحروب .

وحتى يمكن التمييز الصحيح بين الحروب بما يساعد على فهم منشئها وطبيعتها ، يتعين فحص أبعادها الثلاثة مع وضع خواصها السياسية والجغرافية موضع الاعتبار . ويمكن تحديد نسيجها الاجتماعي عن طريق الميزان الاجتماعي

الذي تقع على حافته السفلى أعمال العنف الفردية بالدوافع السياسية ، والتي إذا ما اشتركت فيها مجموعة صغيرةمن الأفراد صارت أعمالا إرهابية . لقد كانت الأسرة على امتداد معظم فترات التاريخ البشري هي وحدة القتال الأساسية ، ولم يكن ترابطها بسبب الاقطاع أو صيانة الشرف فحسب .

وبصرف النظر عن البنيان الشكلي للشرطة العسكرية أو عصبة الدفاع عن أولستر فإن الوحدة الأساسية المتورطة في القتال المباشر بين الأقلية في كل من بلفاست ودري Derry هي الأسرة دون شك . وليس من الضروري أن تنضوي الطبقات الاجتماعية المتنوعة خارج الأسرة في تنظيم وراثي واضح . وقد تكون الطبقات الاجتماعية أو المذاهب والجماعات العرقية والدينية مستقلة عن بعضها بحيث تضم مجموعة اجتماعية واحدة كل الجماعات الدينية . وقد تحتوي المعركة الدائرة بين الطبقات الاقتصادية على خليط من الجماعات العرقية والدينية . مثلما كان الحال في روسيا في السنوات التي أعقبت عام ١٩١٧م . وقد تفصل الحرب الدائرة بين الجماعات العرقية بين الطبقات الشعبية كما هو الحال في إيرلندا الشمالية . وعلى الجانب الآخر نجد أن الهوية العرقية أو الديانة قد تكون شديدة الارتباط بالوضع الاقتصادي كما وقع بين الانديوس واللادينوس أو المستيزو Indios and Ladinos or Mestizos في أمريكا اللاتينية ، أو في أقاليم البلقان داخل الامبراطورية العثمانية . ونتيجة طبيعية لهذه التعقيدات الكامنة فإن أي مقياس اجتماعي لكشف هوية المتحاربين ينبغي أن يكون متميزا بحيث يقبل الطبقات المشتركة . ولا يعني ترتيب هذا الميزان نظاما محدداً للعلاقات إذ قد تحتوي كل شريحة عريضة على بعض المجموعات الفرعية المحدودة من الطبقة التي تسبقها . ويظهر ذلك بصورة جلية عندما نضيف حدودا مكانية إلى الصورة. إن التعبير عن هذا الترابط بين قسم من الوطن قد يتعارض مع الخطوط الطبقية والعرقية والدينية وربما الأسرية على نحو ما حدث في الولايات إبان الحرب الأهلية الأمريكية . وإذا ما تجاوزنا المنظور الجزئي فاننا نصل إلى الهوية الرئيسية التي تقاتل بسببها البشر على مدى القرنين الماضيين ، ونعني بها الجنسية . وقد توزن الطبقات المثقفة بميزان اجتماعي يربط بين

الجنسيات المشتركة في السمات . ولا يكشف هذا بالضرورة عن هوية الأحلاف والمعاهدات المتشابهة . فالأمم المتماثلة شكلا قليلا ما تتورط في المنافسات على الموارد أو الأرض أو سيطرة بعضها على بعض . ونادرا ما تتعارض دروب المتعاهدين على مفاهيم ثقافية محددة .

ومن تناقضات التاريخ التي تدعو إلى السخرية أن ويليم أورانج William of Orange الذي هزم جيمس الثاني James II واتباعه الكاثوليكيين في معركة بويين Boyne كان يعتبر رمزاً لانتصار البروتستانت على البابوية التي كان هو نفسه صديقا حميما للجالس على عرشها وخصما لدوداً لأعدائه من البروتستانت الفرنسيين . ويبدو أن المنازعات الدائرة بين بعض الطوائف اليوم تكشف بدورها عن صراعات ثقافية حادة .

ومن الجلي أن بداية المحور السياسي لهذا التوصيف يجب أن تنطلق من مستوى أقل من الدولة التي تتطابق حدودها مع حدود الوطن Nation State حيث ينشأ الصراع نتيجة تطلّع بعض الجماعات إلى السيطرة على زمام الحكم وينبغي أن نضيف إلى هذا المستوى السياسي داخل الحكومة طبقة أممية للتمييز بين الظروف التي تتجاوز فيها مراكز القوة الحدود الوطنية ، كما هو الحال مع منظمة التحرير الفلسطينية . إن النوع التقليدي للحرب هو معركة دولة ضد أخرى . وقد يكون ذلك أو لا يكون في صورة نزاع بين شعبيتين . وتعتبر بعض الدول متعددة الجنسية مثل الدولة البريطانية والدولة السوفيتية . ويعتبر استخدام الجنسية كوسيلة دعاية لكسب الولاء خروجا قريب العهد على الأسلوب المرعي جاءت بدايته مع الثورة الفرنسية . ونادراً ما دخلت الدول ذات الجنسية الواحدة الحرب بمفردها ولكنها كانت تحرص عادة على تطويق أو حصار خصومها بالمعاهدات . ويجثم الخطر الرئيسي على وجودنا اليوم في هذه المرتبة من الحروب التي تشتعل بين التحالفات حيث يصل الحمق بها إلى نوع من الحمى ، وتنحرف السلطة والمسؤولية عن جادة المنطق السليم .

إن المقياس الجغرافي للعملية القتالية أو الموقف القتالي باعتباره البعد الثالث يتصاعد من المستوى المحلي إلى الإقليمي فبين الأقاليم فالقارة فعبر القارات حتى

يغطي كل أرجاء المعمورة . وقد يستشري أي صراع في المجال الجغرافي فيصيب المزيد من الشعوب بويلاته ويعرض شطرا كبيرا من المدنية لكوارث الدمار النووية . وتهدف منافسات القوى الكبرى اليوم إلى التغلب على المشكلات الراهنة وهي بسبيل تجنب القتال الفعلي أو حصره في أضيق الحدود الجغرافية الممكنة سعيا وراء الحد من احتمالات التصعيد . ومع ذلك فقد استخدم التهديد بالتصعيد وهو لا يزال في متناول اليد لمن يرغب التلويح به أو تطبيقه .

إن التسميات الجغرافية «المناطق الحضرية والمناطق الريفية» المستخدمة في وصف مسرح الحرب لا تميز جوهر المقياس الجغرافي ولكن نوعية الأرض التي قد تدور فوقها عدة أنواع من الصراعات الاجتماعية أو السياسية داخل شريحة مكانية عريضة .

ولا غنى لأي تحليل لوتيرة الحرب ومدى انتشارها عن استخدام تصنيف يبرز هذه العناصر الأساسية للتفاعلات الاجتماعية ، والمؤثرات السياسية ، والمقاييس الجغرافية ، مع تجنب النماذج الشخصية التي تعتمد على مجرد إدعاءات أيديولوجية . إن الحوافز إلى خوض الحرب توفر الخلفية المناسبة للصراع كأساس للتصنيف وللهيمنة على الأهالي والإقليم ، والموارد ، كما أنها تعتبر الأهداف الضمنية لها جميعا . وينشأ التعميم الجغرافي لتوزيعات الحروب من المجموعات التي تنبثق عن المحاور الثلاثة . إن الحروب تشتعل إذا ما اختل الميزان السياسي . وإذا ما استشرت المعارضة بين أفراد الشعب فيمكن التغلب عليها بافتعال خطر خارجي لاستعادة ترابطه . إن الجمع غير الملائم بين إقليم الدولة وقاعدة مواردها وبين طاقة الأمة الاقتصادية والسياسية قد يعرض السلام للخطر . ولم تكن المانيا أو اليابان تملك اقليما قليل السكان يدفعها في الثلاثينيات والأربعينيات إلى البحث عن مجال حيوي . وعلى الطرف الآخر فإن الشعب الذي يعاني من كثافة سكانية عالية ، وتضم حدوده مصالح حيوية متعددة قد يسعى إلى اكتساب عدو ليحكم الدائرة حوله . وقد يدفع الخوف من الفوضى شعبا تعرض للكثير من حملات الغزو والدمار مثل الشعب الروسي إلى بسط سلطانه على ما حوله بحثا عن حدود أكثر صلاحية للدفاع .

وقد ينشأ عدم الاستقرار السياسي من تصاعد تطلعات الشعب الذي يتحول نحو الاقتصاد المنظم على أسس تقليدية أو استعمارية عندما يصطدم بعناد الصفوة الذين يصرون على استمرار امتيازاتهم . وإذا ما هددت احتمالات هذا الوضع بتعطيل جزء رئيسي من إمدادات الطاقة للعالم الصناعي فسوف يلوح شبح الانفجار المترتب على ذلك . إن إغراء التعجيل بوقف الإمدادات للإضرار بعدو ما يساوي في أهميته محاولة المستورد تأمين إمداداته بقوة السلاح .

إن استقراء أحداث الماضي القريب للوصول إلى مكمن الخطر الداهم في أي حرب لن يوفر عصا قياس يوثق بدقتها . فمثل هذه الأحداث تحت الدراسة لا تقع بصورة عشوائية سواء بالنسبة للزمان أو المكان . ويساعد على فهم واستنباط الخطر المحتمل تجميع مختلف ظروف نشوب الحروب طبقا لتنظيم موضوعي وفحص ما أحاط بها من مؤثرات وأحوال . ومن الواضح أن معدل التكرار في مثل هذا التمرين ينبغي أن يوزن طبقا لعامل أهميته ، أما عدد الذين يسقطون قتلى من البشر فيبدو أنه يشكل تعبيرا سالبا لأهمية الحرب بالنسبة لبني الإنسان . ويبرز ذلك مشكلة أن القدرة على تبادل القتل بالأسلحة الأمريكية والسوفيتية لم تستغل على وجه الإطلاق ، كما أن العواقب المترتبة على استخدامها لا يمكن استنباطها من ملاحظات الماضي . وتعتبر القنابل الذرية التي أسقطها الأمريكيون على ناجازاكي وهيروشيما مجرد نماذج مبدئية للأسلحة النووية الحديثة . والواقع أن كل وسائل القتال الأخرى تتوارى أمام أهوال الحرب النووية . أما الأنواع الأخرى من الحروب فينحصر دورها في زيادة احتمالات المبارزات النووية أو الحد من هذه الاحتمالات . وهكذا يمكن القول بأن بعض الحروب تكون ذات فائدة إنسانية للبشرية جمعاء . وإذا نجحت مناوشة محلية بين حلفي الناتو ووارسو في تجنب الحرب الشاملة فإنها تكون قد أسهمت في خفض العواقب المفزعة لضياع مئات الملايين من أرواح البشر هباء . هذا مع افتراض أن نتيجة مثل تلك المناوشة لم تترك أحد الجانبين متعطشا للانتقام أو استعادة التوازن في القوى الذي أفقده إياه خصمه . ولما

كان ذلك غير مضمون في بدايته فإن الخطر الماثل من جراء التصعيد يكفي للحض على الجنوح إلى التهدئة كأكثر التصرفات جلباً للسلامة .

إن النظرة إلى كل حرب تنشب كفرصة لتنافس القوى الكبرى ، والتلاعب بمسير الصراعات الصغيرة للكيد بالخصوم أسلوب قديم للتنافس اعتادت عليه القلة العسكرية ، وقد ترتب على التقدم التقني والاقتصادي هبوط الصراع إلى مستوى الحوار الثنائي الساذج مما سبب عدم الاستقرار الجذري في موقف الجانبين المتصارعين . ورغم أن الصراع الذي يدور بين طرفين يمتلكان مؤسسات سياسية ناضجة يكون مستقرا على أساس الأمثلة الأمريكية والبريطانية ، فإن التنافس الحقيقي بين جانبين لا يترك مجالاً للحلول الوسطى وبخاصة إذا كانت الجائزة هي الفوز بكل شيء أو لا شيء . إن الحكومة الأمريكية تضم في الواقع أكثر من خمسين حزباً ، كما أن الحكومة البريطانية تواجه خطراً حقيقياً بأن ينجح حزب ثالث في كسب شريحة الناخبين غير المقتنعين ببرامج الحزبين الأساسيين رغم أن الانتخابات التمهيدية تنجح إلى حد ما في الكشف عن الاتجاه العام في السياسة البريطانية . وطبقا للمعايير العسكرية ، فإن التنمية الاقتصادية والتطور السياسي يضاعفان من قوة اليابان وأوربا والصين والهند وشعوب الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بالقدر الذي يجعل المزيد من انتشار القوة عاملاً على عودة القيود التي سبق فرضها على الحرب فصانت المدنية الأوربية منذ معاهدة أوترخت **Treaty of Utrecht** حتى عام ١٩١٤م . وعادة ما يترتب على احتدام المنافسة بين طرفين يسعيان إلى المزيد من الهيمنة على أكبر قدر من العالم الجنوح إلى التطرف الأيديولوجي . وإذا ماكان ثمن الحفاظ على الولاء فادحا فسوف يعمل كل متنافس على مضاعفة درجة الثقة التي تربط بينه وبين عملائه من الحكومات الأخرى . فإذا ما هيأ كل متنافس منصة سياسية تشبه منصة غريمه فإنه يزيد من فرص اجتذاب العملاء للانضمام إلى شريحته الجغرافية ولكنه بذلك يقلل من درجة الثقة في مؤازرتهم له مادامت الاختلافات بين المتنافسين صارت غير واضحة . إن اتخاذ موقف سياسي متطرف يقلل من قوة جاذبيته غير أنه يضمن اتباعا

موثوق بمؤازرتهم . وعادة ما تجذب الدعوة إلى اتخاذ حلول مركزية لمشكلة الفقر سكان أشد المناطق عوزا بينما تلقى الدعوة إلى حرية التجارة تأييدا من طبقة التجار . وبمجرد كسب هذا التأييد يصبح الحفاظ عليه أمراً سهلا سواء عن طريق الرشوة أو التنازلات أو القوة . وتحمل هذه النزعة إلى التطرف جذوة أمل فيما تمهده من أرض ليخطو عليها المعتدلون ويحتلوا المجنبات الداخلية بين الطرفين المتضادين ، فضلا عن جذب جزء كبير من انتباههم .

نقط الوميض (النقط المتفجرة) Flash Points

مهما بذلنا من جهد في مجال التنبؤ التجريدي العام فإن مناطق الخطر الرئيسة على سطح الأرض تقع فوق سهول أوروبا الشمالية ، وحقول النفط وطرق المواصلات في جنوب غرب آسيا ، والأراضي المنخفضة عند الجناح الشرقي لقارة أوراسيا حيث يمر نهر الآمور والآسوري . وتعتبر هذه النقط مناطق الخطر المحتمل الذي تخشاه القوى الكبرى نتيجة قربها من الأرض المكشوفة أو الغنية بالموارد التي تفرض عليها الرد بعنف على أي خطر حقيقي أو متخيّل . ومن الطبيعي أن تكون هناك مناطق عديدة أخرى للاحتكاك الذي قد يتصاعد إلى مستوى الحرب العالمية ، إلا أن أيا منها لا يرقى إلى مرتبة التأثير الكافي على رفاهية أو كرامة القوى الكبرى بما يدفعها إلى أن يبارز بعضها بعضاً في حرب نووية .

وكما تبدو الأمور الآن فإن الموقف الذي يكشف عن الاستراتيجية المهيمنة للأسلحة النووية يمر بحالة تغيّر خطير . فالفكرة الأمريكية التي تعتنق مذهب التدمير المتبادل الأكيد (MAD) المرتكز على التعادل التقريبي في الأسلحة قد أصابها الخلل نتيجة ما حققه السوفيت أخيراً من تفوق . ويعتقد بعض العالمين ببواطن الأمور أن الأعداد المتزايدة من الصواريخ السوفيتية التي تتميز بالقوة والدقة يمكنها أن تقضي على الجزء الأكبر من صوامع الصواريخ مينوتمان فتتلاشى بالتالي قدرة الولايات المتحدة على شن الضربة الثانية . كما أنهم يعتقدون أيضا بأن ثمة فجوة تحدث الآن في سلم الدمار الشامل . إن طيف

الاحتمالات الكثيرة لنجاح ضربة الإجهاض السوفيتية تبتر أغلب الفرص الأمريكية في استخدام الصواريخ الحاملة لرؤوس العودة . وعلى حين يزعم الاتحاد السوفيتي أن هدفه هو مجرد تحقيق التعادل يسخر علماؤه من فكرة استخدام رؤوس العودة التي لن تجد شيئا ذا قيمة لتصيبه . ويعتبر البعض أن هذا المفهوم وما يصاحبه من احتمالات الموت داخل سحابة الإشعاع التي تلتف به كاف تماما للردع .

وقد جاء رد الفعل البالغ التطرف في دوائر الدفاع الأمريكية في صورة التلويح بسياسة قذف الصواريخ بمجرد الإنذار ، والتهديد بإطلاقها كلها بمجرد الشعور بأي بادرة هجوم كشرط لكسب الحرب النووية . ويبدو أن هذا تقليد لمفهوم الاستراتيجية السوفيتية . ويزعم البعض بأن الاتحاد السوفيتي لم يكن أبداً طرفا في مذبحة الانتحار المتبادل المؤكد ، بل ظل مذهبه يلتزم طول الوقت بضرورة الاستعداد لخوض حرب نووية قادمة على أن يبذل خلالها كل الجهد ليخرج غالبا بفضل استخدام الصواريخ الأكثر عدداً والأشد قوة ودقة ، إلى جانب ما يتخذه من تدابير الدفاع المدني . ومن الطبيعي أن يجهر قادة السوفيت بالحقيقة التي يؤيدها التاريخ بأنهم كانوا الطرف الذي يتعرض دائما للتهديد وأنهم يسعون إلى حماية أنفسهم من تهديد الولايات المتحدة الأمريكية بمذهبيها المعروفين : الانتقام والرد المرن . ولا يستبعد السوفيت احتمال الزج بكل قوتهم في مواجهة أي هجوم أمريكي وإن كانوا يستهجنون فكرة خروج أحد الأطراف منتصراً من حرب نووية ويلتزمون بمذهب الردع المرتكز على حرمان المعتدي من النصر . ويتطلب ذلك عمل كل ما في الإمكان لإقناع المهاجم بأن أحداً لن يظل حياً إذا ما اشتعلت الحرب النووية .

أوربا :

تعتبر أوربا المثل الواضح لهذه الأحوال المضطربة وغير المستقرة . أما قيام أي من الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة بمهاجمة الآخر فبعيد الاحتمال . وهناك التزام من الولايات المتحدة بمد قوتها الرادعة لحماية حلفائها من دول

الناتو الأوربية . أما الخطر الماثل ضد هذا الحلف فيأتي من حلف وارسو واحتمال أن يشن هجوما خاطفا ضد المانيا مما يدفع الولايات المتحدة إلى تصعيد وسائل الدفاع من المستوى التقليدي إلى الأسلحة النووية التكتيكية ، ثم إلى الأسلحة النووية التعبوية مثل الصاروخ بيرشنغ المتوسط المدى وانتهاءً باستخدام الأسلحة العابرة للقارات الموجهة ضد صوامع الصواريخ السوفيتية . وتسمى هذه السياسة «بالرد المرن» الذي يفقد جدواه إذا ماكانت صواريخ الولايات المتحدة معرضة للتدمير بالضربة السوفيتية المسبقة (ضربة الإجهاض Preemptive strike) . وفي هذه الحالة لن يبقى في يد الولايات المتحدة للدفاع عن أوربا سوى قاذفاتها وغواصاتها التي تستطيع توجيه صواريخها ضد المدن السوفيتية بما يدفع الكرملين إلى الرد بالمثل وتدمير المدن الأمريكية . ويستبعد كل من الروس والأوربيين أن يقبل أي رئيس أمريكي التضحية بحياة ملايين المدنيين الأمريكيين مقابل منع السوفيت من احتلال المانيا والأراضي الواطئة (هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج) .

لقد أمكن التغلب على الثغرة التي فتحها تفوق السوفيت في القوات النووية بقرار حلف الناتو الذي صدر في شهر ديسمبر ١٩٧٩م بنشر الصواريخ بيرشنغ ٢ ، والصواريخ كروز في إقليم المانيا الاتحادية حيث تستطيع الوصول إلى أوربا الشرقية وبعض أراضي غرب روسيا . وكان القصد من وراء ذلك هو تحييد خطر الصواريخ السوفيتية (سطح ــ سطح ــ ٢٠) التي نشرها الاتحاد السوفيتي وصوبها نحو المانيا الاتحادية . لقد سد ما فعله حلف الناتو الثغرة بين الأسلحة النووية التكتيكية والعابرة للقارات لطمأنة دوله الأعضاء بأن الولايات المتحدة لن تنتهز فرصة تبادل النيران لتنجو بجلدها من صراع أوربا ، وتتجنب تصعيده إلى مرتبة الحرب بين القارات . ولم يحدث أن أبدى أي رئيس أمريكي استعداده بوضوح لتعريض المناطق الأمريكية المأهولة بالسكان مقابل إبعاد الروس عن حوض الرور . بل إن الخدعة الافتتاحية للرئيس ريغان في مباحثات الحد من الأسلحة مع الاتحاد السوفيتي في شهر نوفمبر ١٩٨١م ، عمدت إلى التلويح بخيار الصفر «Zero option» في أوربا . وكان هذا يعني

صرف النظر عن نشر الصواريخ بيرشنج مقابل فك الروس لكافة منصات إطلاق الصواريخ المتوسطة المدى حيثما وجدت . وكان الشرط الأقل حدّة أن يطالب السوفيت بسحب صواريخهم طراز سطح ــ سطح ٤ ، ٥ ، ٢٠ خارج مدى أوربا الغربية . أما الحل الأخير فكان مقايضة سحب روسيا لأسلحتها المتوسطة المدى إلى شرق جبال الأورال حيث يبقى في إمكانها إصابة بعض الأهداف في أوربا الغربية . أما الصاروخ السوفيتي سطح ــ سطح ــ ٢٢ القصير المدى فلم يدخل ضمن هذه المباحثات رغم أن مداه الذي يناهز ٦٠٠ ميل يجعله قادراً على إصابة الأهداف داخل المانيا الغربية والدنمرك والنرويج وشمال ايطاليا من منصات إطلاقه بالأراضي الروسية . ثم أن هذه الصواريخ يسهل نقلها بالجرارات بسرعة ٢٥ ميلا في الساعة يعني إمكان نشرها داخل أراضي المانيا الشرقية خلال عدة ساعات ودخول كل الأهداف الأوربية تحت طائلتها بما في ذلك بريطانيا العظمى .

لقد أجاب الرئيس بريجنيف على مبادرة خيار الصفر في شهر مارس ١٩٨٢م بإعلانه قرار تجميد نشر الصواريخ سطح ــ سطح ــ ٢٠ إلى الغرب من جبال الأورال مع تأجيل برنامج تبديل الصواريخ العتيقة سطح ــ سطح ــ ٤ ، ٥ الموجهة ضد أوربا الغربية بصواريخ أحدث من طراز سطح ــ سطح ــ ٢٠ شرق الأورال ووجهها ضد أهدافها في أوربا الغربية فإن اقتراح بريجنيف سالف الذكر لم يكن يعدو خدعة في المبارزة الدعائية دون أن يتحمل أي تضحية فعلية من جانبه . كما كان اقتراح بريجنيف بتقييد مدى عمل الغواصات حاملة الصواريخ في المحيطات ، وكذلك تقييد عملية نشر المزيد من صواريخ كروز في غير صالح الولايات المتحدة التي تعتمد بدرجة أشد على سلاح الغواصات ولم تستكمل بعد عملية تشغيل الصواريخ كروز على نحو ما فعل السوفيت . وكان الخطر الكامن داخل هذه المقترحات التي ظاهرها الأريحية أن أية خطوة لنشر صواريخ جديدة بمعرفة الناتو في أوربا الغربية سوف تغري الروس باتخاذ خطوة مماثلة ، وربما بنشر الصواريخ في كوبا أو نيكارغوا .

إن اختلاط مشاعر الشك والخوف من مخاطر الأسلحة النووية جعلت

العديد من شعوب أوربا ينفر من المبارزات . لقد كشفت الاستبيانات التي جرت في شهر ابريل ١٩٨١م عن أن نصف الشعب الأمريكي وثلثي شعوب بلجيكا وهولندا يعارضون نشر الصواريخ كروز وبيرشنغ في أوربا . كما أن زهاء ثلث شعب المانيا الغربية يقف ضد الصواريخ ويعترض نحو ٧٠٪ من الشباب تحت سن العشرين على نشرها في بلادهم . وفي بريطانيا زاد عدد المؤيدين لنزع السلاح المتبادل من أقل من الربع إلى نحو الثلث وذلك فيما بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١م . ويفضل أغلبية الفرنسيين الوقوف بمنجاة من أي حرب تنشب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ويرغب ٤٠٪ منهم في اتخاذ موقف الحياد بدلا من التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية . ويبدو أن أغلبية الأوربيين لا يعتبرون الروس مصدر خطر كبير للغزو كما أنهم لا يحبذون اتخاذ موقف الدفاع الذي قد يتضمن استخدام الأسلحة النووية .

وتهدف الخطة الأطول مدى للولايات المتحدة إلى تحقيق درجة من التعادل في الأسلحة العابرة للقارات تشتمل على صواريخ ام . اكس وبعض الوسائل التي تضمن بقاء عدد منها بعد وقوع الضربة السوفيتية . ويعزى كل هذا الخوف والذعر الذي تبديه الولايات المتحدة إلى اعتقادها بأن قائمة الكرملين الخفية تتضمن احتلال أوربا . ومع أن الماركسية قامت بدورها في سياسة خروتشوف وبريجنيف الخارجية بما يفصح عن بعض الميل الأيديولوجي لصالح التغيير بدلا من الاستمرار على الحالة الراهنة ، فإنه لا تتوفر أية شواهد على وجود خطة عامة ترمي إلى الاستيلاء على العالم . والواقع أن هناك حواجز عالية في الدستور السوفيتي والممارسات السياسية تفصل بين الأمور السياسية والعسكرية بصورة أقوى من الحكومة الأمريكية . وقد بدت الدلائل أخيرا على الاهتمام المتزايد في المجالس السوفيتية بالاستقرار العالمي . ويظهر هذا الاهتمام الكبير فيما يبديه من نفاذ صبر الروس حيال مراوغات حكومة كارتر في تعاملها مع العالم .

إن تنامي الرغبة في السلام في أوربا الغربية واستقرار المجتمعات التركية والإيطالية واليونانية والأسبانية رغم الاضطرابات المستمرة يتيحان الفرصة

أمام الولايات المتحدة لتقليل مدى مسؤولياتها عن الردع . فإذا ظلت كل من يوغسلافيا واليونان ملتزمتين بالهدوء صارت احتمالات استقرار الأمور على الجانب الغربي من قارة أوراسيا جيدة ، وقلّت بالتالي ذرائع التدخل السوفيتي . إن الحل العقلاني الذي يمكن للولايات المتحدة انتهاجه لتوفير فرص البقاء للجميع هو أن تقطع الطريق على أي احتمال لاشتعال الحرب النووية .

وطالما أن الروس لديهم ما يكفيهم من المتاعب في الهيمنة على الدول التي تسير في ركابهم الآن فليس هناك أي سبب يدعو إلى الظن بسعيهم إلى التهام المزيد من الأراضي . ويبدو أن احتمال خوض معركة مع الجيش البولندي الذي يفتقر إلى الذخيرة قد صرفت روسيا عن التدخل عسكريا في صيف عام ١٩٨١م لإسقاط حزب التضامن Solidarity . فلما قام الجيش البولندي بتحركاته السياسية في ديسمبر ١٩٨١م لم يبق للاتحاد السوفيتي أية ذريعة لهذا التدخل . وتضرب دواعي الخوف الروسي وجنوحه إلى العدوان على أوربا الغربية في أغوار التاريخ كنتيجة طبيعية للغزوات الكثيرة التي جاءته من هذا الاتجاه . لقد تعرضت روسيا في وقتنا المعاصر لحملتين عدوانيتين من قبل المانيا التوسعية ، جاءت كلتاهما من اتجاه الغرب . ثم انطوت المانيا الغربية على نفسها بعد ذلك واتخذت موقفا يساعد على تبديد ذلك الخوف . وقد أبدى عدد كبير من مواطني المانيا والأراضي الواطئة والدنمرك وفرنسا وايطاليا والمملكة المتحدة رغبتهم في الحياد أو اتخاذ موقف فنلندة في الصراع العالمي الراهن . وقد كانت المانيا على وجه الخصوص شديدة الرغبة في التوفيق بسياستها حيال الغرب . وهكذا يتضح أن الخطر الرئيسي يتمثل في الدول التابعة التي تحتاج روسيا إليها كنطاق أمن مضمون الولاء . وبناء على ذلك فإن أية حركات جماهيرية تحدث داخل هذه الدول التابعة مثل حركة حزب التضامن أو تلك القلاقل التي يتفاقم أمرها في رومانيا ضد دكتاتورية الحزب الحاكم والتي يسمع شعب الاتحاد السوفيتي أصداءها تعتبر شديدة الخطر على الأمن والاستقرار بالقدر الذي يستلزم قمعه . وتبدو عندئذ حقيقة الخطر الذي قد يترتب على محاولة الناتو اقتناص الفرصة للتدخل بضربة ساحقة

للتخلص من الشيوعية رغم كل ما يقال عن التعايش السلمي والوفاق . وليست بولندة الحالة البالغة التطرف لأن المانيا الشرقية تفصل بينها وبين الغرب . فإذا ما ثارت القلاقل في المانيا الشرقية أو تشيكوسلوفاكيا فإن رد الفعل السوفيتي قد يكون أكثر عنفا . أما الممر الممتد بمحاذاة نهر الدانوب فيقع عليه نطاق الأمن النمساوي إلى الأسفل من المجر .

شرق آسيـــا :

لقد اكتشفت الولايات المتحدة بعد تجربتها المريرة في الحافة الآسيوية للمحيط الهادي أن الهند الصينية الفقيرة في الموارد الأساسية لا تشكل أهمية استراتيجية بالنسبة لمصالحها الحيوية . لقد فقدت أسطورة التوسع الصيني بريقها وتجلى بأس مراكز القوة المستقلة في الإقليم . ورغم استمرار العداء بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية فإنه يبدو أن الصين أصبحت أكثر ميلا إلى المصالحة مع تايوان . وتستمر الصين على تعاونها المتزايد مع الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٢م في كل الأمور الاقتصادية والتقنية والمخابرات . وكان وزير الخارجية الكسندر هيغ قد أعلن في شهر يوليو ١٩٨١م رفع الحظر عن مبيعات الأسلحة إلى الصين . وفي الآونة الراهنة تتبادل الصين والاتحاد السوفيتي الخطوات الأولية في اتجاه المصالحة . ويمكن أن يوفر كل ذلك شبكة مكتملة يستطيع كل طرف أن يحقق من خلالها أفضل المزايا الدبلوماسية في التباحث مع الولايات المتحدة . لقد صمد الإبداع الثقافي الصيني لعدة آلاف من السنين بفضل مرونته في التعامل مع البرابرة . ومجرد الظن بأن الصين ترضى أن تصبح ورقة يتقاذفها العملاقان يعتبر نوعا من السذاجة الفكرية . لقد كانت تقاليد الصين دائما عملية وليست ايديوليوجية . ومن الواضح أن نجاحها في تحقيق الوفاق مع قلاع الاستعمار لصالحها يكفي لإثبات قدرتها على التعاون مع عدو قديم ، ونصير سابق ، وخصم متسلط حالي ، مثل الاتحاد السوفيتي .

وفيما عدا ذلك من الإقليم فإن تماسك المجتمع الفلبيني يستطيع أن يقاوم

أي استقرار سياسي . وقد أظهرت أندونيسيا قدرة مماثلة على امتداد الحقب الماضية . إن الوجود السوفيتي المتزايد في المحيط الهادي يثير قلق اليابان والولايات المتحدة وإن كان لا يسبب بؤرة نزاع . ولا يرى الساسة اليابانيون خطراً حقيقيا من جهة روسيا ، ولا هم يعدون أنفسهم لخوض معركة معها .

إن أكثر من ثلثي المواطنين اليابانيين سعداء بالمستوى المتهاود في الإنفاق العسكري . وينظر الزعماء اليابانيون إلى الخلاف مع روسيا حول جزر كوريل Kuril Islands كمسألة محلية يجدر بالولايات المتحدة ألّا تجعل منها قضية كبيرة . إن نقط الوميض الخطرة في الجناح الشرقي لأوراسيا تنحصر داخل أودية الآمور والآسوري حيث يحملق آلاف من الجند الروس والصينيين في وجوه بعضهم البعض عبر حدودهما المشتركة . ويتمركز ربع الطيران والجيش السوفيتي على امتداد الحدود مع الصين ، كما أن خط السكة الحديدية الرئيسي الجديد الذي سوف يربط بيكال بالآمور سيوفر الدعم اللوجستيكي لهذا المسرح . ولقد سبق التنويه عن الجذور التاريخية لهذه المعارضة التي يتضح أن الكبرياء الوطنية وليس الهيمنة الأيديولوجية هي التي تتعرض للخطر هناك .

وطالما أن الولايات المتحدة قد بدأت اللعب بورقة الصين في محاولة حصار روسيا فقد تورطت عسكريا في هذا الصراع . وعندما تستطيع الصين أن تطوع السلاح النووي بحجم كافٍ فقد يتحول هذا إلى مصدر خطر داهم بنشر الاتحاد السوفيتي الصواريخ سطح ــ سطح ــ ٢٠ في الإقليم لمواجهة أي صواريخ صينية .

لقد كانت النزاعات التي دارت بين الصين والهند ذات دافع تاريخي وليست أمثلة على الأيديولوجية العدوانية التي ترق إلى إقامة امبراطورية . ويبدو أن رغبة الهند في الاعتراف بها كان الشرارة التي أشعلت الحرب . وبفضل كبح ماو لجماح الامبريالية التي أذكتها أسرة هان في التبت وسنكيانغ ومنغوليا الداخلية ارتخت التوترات التي كانت قد بلغت حدها الأقصى حتى صارت تهدد بانفجار العنف حول هذه الأراضي المتاخمة لحدود الصين .

جنوب آسيا وشمال أفريقيا :

طالما ظلت الهند وباكستان لا تمتلكان ترسانة نووية كبيرة فلن يهتم أحد بما تفعله إحداهما بالأخرى . وطبقا لتعريف الرئيس ترومان لمناطق النفوذ **Spheres of influence** فإن الباكستان تشكل نقطة توقف لأي عداون سوفيتي عبر سلسلة هندوكوش . أما أفغانستان فقد تركها هذا التعريف داخل منطقة النفوذ السوفيتي . وليس من الواضح تماما حاجة السوفيت إلى الباكستان وإن كان قد سبق له اجتياز حدودها لمطاردة القبائل الثائرة . ويعتبر الطريق الذي يؤدي إلى نهر السند عبر ممر خيبر وممر خوجاك شاقا وشديد الجفاف .

أما الطرق التي تجتاز إقليم بلوخستان فطويلة وتمتد فوق صحارى عديمة المياه فضلا عن أنها تعتبر محور التفاف بعيد للوصول إلى موقع يمكن السيطرة منه على مضيق هرمز . لقد أثارت الأعمال السوفيتية في أفغانستان غضب الولايات المتحدة . ويتجسم اتجاه الخطر الرئيسي على السلام العام هنا في انتشار القلاقل بين الأتراك المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي وما قد تسببه من ذعر بين السلافيين . لقد شجع الاتحاد السوفيتي على التورط في جنوب غرب آسيا تلك الروح المغامرة التي يتصف بها شعوبه التركية ، وما لها من صلات ثقافية ببني جلدتها عبر الحدود المشتركة . لقد اكتسب الاتحاد السوفيتي صفة المناصر للإسلام كما يعتقد زعماء المسلمين لديه . وقد لقي العدوان السوفيتي على أفغانستان مساندة من بعض المسلمين السوفيت . ويكمن تحت القشرة المخادعة لب المشاعر السائدة في الجمهوريات القوقازية والتركية التي تنضح بالقومية المنتظمة حول المذهب الصوفي المحظور . لقد أثارت أحداث إيران ونضال مجاهدي أفغانستان والدعاية الموجهة في مقاطعة سنكيانغ عبر حدود الصين مشاعر المسلمين بالقدر الذي دفع الروس إلى شن حملة معادية للإسلام قد تهيء الظروف لاندلاع العنف .

وبالنظر إلى صعوبات فرض السيطرة الحكومية على القبائل الإيرانية فإن التورط في المشاكل الإيرانية أمر يحجم عنه كل ذي بصيرة سليمة بالغاً

ما بلغت شهيته إلى أرصدة النفط . ومع ذلك فإن الحماقة الأمريكية التي تركت فراغا في المنطقة قد هيأت الظروف للمعسكر الشيوعي للفوز بالخطوة . وينصح مسلمو السوفيت بالضرب على أيدي المجهادين الأفغان ، كما تبذل المانيا الشرقية معونتها لتصحيح مسارها الاقتصادي . لقد نأت القوى الكبرى عن التدخل في الحرب الناشبة بين العراق وإيران ، والتي تقدم الدرس الموضوعي عن القيود والتكاليف المترتبة على القتال التقليدي في هذه الأزمنة الراهنة . إن هذا الصراع وعدم الاستقرار الذي يعاني منه الحكم في كلا البلدين يوفران الذريعة لوصول السوفيت إلى الخليج للهيمنة على مورد أوربا الغربية الرئيسي من النفط . كما أن نضوب موارد السوفيت الوطنية يُشكل حافزاً إيجابيا أشد الحافا من مجرد الإضرار بإقتصاديات الناتو . ولا يخفى عن البال أسطورة سعي الاتحاد السوفيتي من قديم للوصول إلى المياه الدافئة كحافز إضافي لتحركاته .

ويعود اهتمام الاتحاد السوفيتي بالشرق الأوسط خلال حقبة الستينيات إلى أسباب استراتيجية ولمواجهة خطر الصواريخ طراز بولاريس التي تحملها الغواصات الأمريكية مما جعل الاتحاد السوفيتي يزيد من مدى نفوذه البحري ليشمل البحر المتوسط الذي خصص له سربا من السفن الحربية . وقد عزز ذلك رغبة قديمة لدى السوفيت بتأمين حقهم في المرور خلال الدردنيل . وكان قرار الاتحاد السوفيتي بعدم بناء حاملات للطائرات دافعا له إلى امتلاك قواعد جوية على البحر ليحمي منها سفنه بدءاً بمصر فسوريا ثم ليبيا . ولترسيخ قدمه سعى الاتحاد السوفيتي إلى كسب مؤازرة العسكريين ثم السياسيين فضلا عن عقد المعاهدات . ومع أن الكرملين حاول إثارة بعض الحركات الشيوعية للاستيلاء على الحكم فإنه تجنب ممارسة ذلك حيثما تعارضت مع أهدافه الاستراتيجية . فإذا ما كان الخطر من المعارضة الأمريكية واهيا ، وكانت الفرصة مواتية كما هو الحال مع عدن ، ترك لها السوفيت العنان كاملا . لقد انتهز السوفيت انسحاب الاستعمار البريطاني عن المنطقة وضعف الاهتمام الأمريكي بها على امتداد حقبتي الخمسينيات والستينيات ليغمرها بمعوناته

السخية وينشر نفوذه المشوب بلمسة سياسية خفيفة . وقد وفرت حاجة العرب الماسة إلى السلاح لخوض صراعهم مع إسرائيل الفرصة للتغلغل والحصول على التسهيلات البحرية والجوية لخدمة أغراضه الاستراتيجية وكان الدعم الأمريكي لإسرائيل عاملاً على صبغ الاتحاد السوفيتي بصورة صديق العرب .

وبتحول الوجود السوفيتي إلى شكل من الاستعمار بردت مشاعر الترحيب به حتى قام الرئيس السادات بطرد المستشارين السوفيت عن مصر عام ١٩٧٢م وألغى معاهدة الصداقة التي كان قد عقدها بين البلدين . ورفضت سوريا عقد مثل هذه المعاهدة ، وزادت من عمليات ملاحقة المواطنين الشيوعيين من آن لآخر ، واتخذت سياسة مستقلة إزاء مشكلة لبنان ، كما رفضت العراق أيضاً أن تمنح السوفيت قاعدة بحرية على رأس الخليج العربي . وقد تعذر على الاتحاد السوفيتي الاحتفاظ بمركزه في المنطقة بسبب كثرة الاحتكاكات وتغيير المواقف بالنسبة إلى كل من سوريا والعراق ومصر ، وليبيا والسودان ومنظمة التحرير والأردن ولبنان . فهو لا يستطيع أن يرضي طرفي النزاع الذي تكرر نشوبه بين هذه الدول ولا أن يحتفظ بولاء كل الأحزاب لمدة طويلة . وإزاء هذه الأوضاع يصبح عكس نظرية «فرق تسد» هي الأكثر مناسبة للتطبيق طالما أنه يستحيل ضمان مثل هذه الحكومات المتنافرة . وكان ظهور المملكة العربية السعودية بما تملكه من موارد نفط هائلة تتحكم في الأمور عاملا على إضعاف النفوذ السوفيتي ، كما أن الدين الإسلامي في إيران جعل المبادىء الإسلامية تقف شامخة في وجه الماركسية اللينينية .

إن المؤثرات التي أتت بالسوفيت إلى البحر المتوسط والعالم العربي هي نفسها التي تدفعهم الآن في اتجاه الشرق والجنوب للحد من حرية الغواصات الأمريكية في المحيط الهندي . ويعتبر القرن الأفريقي موقعا مسيطراً على الخطوط الملاحية والعمليات الحربية في المحيط والبحر الأحمر والخليج العربي . وكان الاتحاد السوفيتي منذ حصل على حق استخدام ميناء بربرة الصومالي في مطلع السبعينيات عندما كان الرئيس سياد بري في مسيس الحاجة إلى الأسلحة

ليقف في وجه أثيوبيا في إقليم أوغادين وما تقدمه الولايات المتحدة لها من مساعدة في هذا الإقليم الصومالي الذي منحته بريطانيا لإثيوبيا ، والذي تسكنه القبائل الصومالية . وما أن أمسك منجستو Mengistu بزمام السلطة في أثيوبيا عام ١٩٧٤م حتى سارع إلى قطع العلاقات الأمريكية التي كان يحرص عليها الامبراطور هيلاسلاسي ، ثم راح يلتمس العون السوفيتي لإجلاء الصوماليين عن أوغادين وسحق ثورة شعب اريتريا المسلم الذي يشكل جبهة أثيوبيا على البحر الأحمر . وقد أمد الروس والكوبيون منجستو بالسلاح والقوات مما دعا الصوماليين إلى التوجه إلى مصر والولايات المتحدة طلبا للمساعدة وعرض قاعدة بربرة لاستخدام قوة الانتشار السريع الأمريكية . ولكن الولايات المتحدة كانت تشعر بالحذر من تقلبات سياد بري ولا ترغب في التورط في المشكلة الصومالية . وعلى نحو ما أضرت مساعدة الروس لمسيحيي أثيوبيا ضد مسلمي أرتيريا بمنزلتهم في سوريا والعراق فقد أفقدت المؤامرات الروسية والكوبية ضد منجستو ماكان لهما من نفوذ عليه وجعلته يجنح إلى المزيد من الاستقلال عنهما ، وإحكام يده على السلطة . وفي أغسطس ١٩٨١م وقعت اليمن الجنوبية معاهدة دفاع مشترك مع الجماهيرية الليبية ، وفي الوقت نفسه تقارب السودان مع أثيوبيا بصورة غير رسمية ، إذ عرض السودان مساعداته ضد ثوار أثيوبيا المتمركزتين في جنوب السودان مقابل بذل أثيوبيا نفوذها لوقف أطماع ليبيا التوسعية في الأراضي السودانية ، والتي تدبر خططها من تشاد . ويشير كل ذلك إلى أنه بينما يمد الاتحاد السوفيتي من محيط تدخلاته فإن النزاعات البالغة التعقيد والمصالح المشتركة داخل هذا المدى تمتص جدوى ذلك الوجود وتهدر فاعليته .

لقد عملت وزارة خارجية الولايات المتحدة على تنمية الشكوك إزاء جشع الاتحاد السوفيتي للنفط كعامل مؤثر على أفعاله في الشرق الأوسط . ولم يخل تقرير للمخابرات الأمريكية أو التصريحات التي تذيعها وكالة الاستخبارات المركزية من التركيز على حاجة الروس الماسة إلى نفط الخليج في المستقبل . ومن الحكمة أن تؤخذ مثل هذه الدعاوى المبالغ فيها بشيء من الحذر لا سيما أن

تعاليم لينين نفسها تقضي بعدم الاعتماد على مورد أجنبي خشية الوقوع في حبائله . ثم أنه لا تتوفر أية شواهد على وجود خطط سوفيتية لاستيراد كميات ضخمة من نفط الخليج . أما حلفاء السوفييت من دول أوربا الشرقية فيحثهم الكرملين على شراء نفط الشرق الأوسط حتى لا يجبروا على دفع ثمنه بالدولار مثلما يفعل السوفيت معهم . ومع ذلك فلا تزال غالبية النفط الذي تحتاجه أوربا الشرقية يأتي إليها من الاتحاد السوفيتي . أما محاولة قطع إمدادات اليابان أو أوربا الغربية أو الولايات المتحدة من نفط الشرق الأوسط فسوف تشعل صراعا عسكريا مباشراً مع الولايات المتحدة .

إن خير الشواهد على موقف السوفيت بالمنطقة يبدو من تصرفاته في القضية العربية الإسرائيلية . ومع أنه لا يستبعد أن يكون غروميكو هو الذي تسبب في إشعال حرب الأيام الستة في صيف عام ١٩٦٧م بهدف دعم موقف السوفيت مع العرب فإن احتمالات المواجهة مع الولايات المتحدة منذ ذلك الحين كانت الحافز المباشر له إلى تجنبها . أما حرب أكتوبر ١٩٧٣م فقد انتهت بكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وهما يعملان سويا على فرض إيقاف النار . وللحد من احتمالات اندلاعها مرة أخرى في المنطقة بذل الكرملين جهده للوصول إلى تسوية بين العرب وإسرائيل يكون هو أحد أطرافها ليؤكد شرعية وجوده في المنطقة . ويثير موقفه هذا غضب عملائه المتطرفين في سوريا والعراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية . وبرغم ذلك فإنه يحافظ على صلاته بهم كيما يضمن لنفسه مركز القوة في أية مفاوضات قادمة .

ويبدو أن بؤرة تدخل السوفيت قد واكبت حاجته إلى الانتشار جنوباً . وقد جنح صانعو السياسة الأمريكية إلى ترجمة ذلك بالأطماع الإقليمية وليس الانتشار الاستراتيجي ، ثم رسموا لها صورة خطة سوفيتية لامتلاك حقول النفط والممرات البحرية المؤدية إلى الخليج العربي . وقد ظهرت ثلاثة اتجاهات مباشرة لعملية الاقتحام السوفيتي للخليج ، يمر أولها بمقاطعة بلوخستان والساحل الإيراني حتى مضيق هرمز . ويعبر الثاني هضبة فارس وجبال زاغروس إلى شط العرب على قمة الخليج . وقد أكدت العملية الزرقاء Operation Blue لإنقاذ

الرهائن الأمريكيين مدى عدم مؤازرة طبيعية الأرض لإنجاح مثل تلك العملية . أما الاتجاه المباشر الثالث فيبدأ من أرمينيا إلى منابع نهر دجلة عبر العراق حتى رأس الخليج العربي . وكل هذه الاتجاهات تعتبر صعبة فضلا عما يتوقع مصادفته من مقاومات عنيفة من قبل الأهالي . ولا تستبعد الولايات المتحدة أن يكون أحد طرق الاقتراب غير المباشر إلى الخليج العربي بإثارة القلاقل داخل وخارج المنطقة . كما أن استمرار الصراع العربي الإسرائيلي يشكل مصدرا إضافيا لعدم الاستقرار . وهناك شك في أن يستطيع الرئيس مبارك الاستمرار في مواجهة الصحوة الإسلامية ، وكذلك تقليص النفوذ الروسي في المنطقة . والواقع أن هذه المجموعة من الشكوك والمخاوف هي التي حدت بالولايات المتحدة إلى حل مشكلاتها اللوجستيكية في المنطقة التي تبعد كثيرا عن سواحلها بإنشاء قوة الانتشار السريع Rapid Deployment Force حتى تعمل كسلك إعثار يردع السوفيت عن التقدم . ويمتد العمق الجغرافي لهذا المسرح المضطرب لمسافة طويلة بعيدا عن حقول النفط على الخليج العربي ، كما يعتبر القرن الأفريقي المفتاح الاستراتيجي لتمركز القوات التي تكلف بالسيطرة على مياه وسواحل البحر الأحمر وبحر العرب . ويزيد هذا من مدى مجال أعمال التدخل العسكري والدبلوماسي ليشمل كلا من أثيوبيا والصومال وكينيا . كما تعتبر كينيا متورطة بتقديم تسهيلات ميناء ممباسا ومدارج هبوط قاعدة نيروبي الجوية لخدمة قوة الانتشار السريع الأمريكية .

إن الأهمية الدولية للصراعات المحلية تتناقص مع طول المسافة من محور التاريخ الحالي أعني حقول النفط حول الخليج العربي . وهناك مغزى حقيقي من وقوع نقطة الالتقاء لأوراسيا وأفريقيا عن كثب من هذا المكان الذي يعتبر محور التاريخ في الوقت الحاضر Pivot of history . ويمتد محيط الخطر تحت الظروف الراهنة حول أفغانستان وعبر جبال البرز إلى القوقاز وتركيا وساحل الشام وحوض النيل وليبيا وجنوبا حتى القرن لأفريقي . أما محور التاريخ الذي جاء به ماكيندر سنة ١٩٠٤م فقد كان يتمثل في الإقليم الذي اجتاحه فرسان قبائل الاستبس تحت ندرة الموارد الطبيعية ، والتنافس المتبادل المهلك بينهم ،

وكانت الجائزة التي يسعون إليها تقع في الإقليم السابق ذكره والذي أصبح اليوم منقسما بين الطوائف المسلمة التي خلفتها جموع فرسان السهوب.ويتجسد مصدر عدم الاستقرار حاليا في ضرورة مواجهة ٤٠٠ سنة من التطور التقني والاجتماعي والسياسي في وقت واحد. كما يوجد رد فعل آخر لانكار الجانب الخلقي مما حدث من تطور بالاحتماء في الماضي على نحو ما يفعله الخوميني.

وعلى الطرف النقيض يتمثل أسلوب أتاتورك المتطرف. وقد حاول الشاه رضا بهلوي أن يفعل مثل أتاتورك إلا أنه لم ينجح. ومهما كانت الحيلة التي تعمد إليها الحكومة فسوف يجد الشعب نفسه في مأزق السير في طريقين معا الأمر الذي يصيبه بانفصام شخصيته الاجتماعية ومن ثم ارتكاب الأفعال وردود الأفعال الوحشية. إن اختلال الموازين بالإضافة إلى وجود النفط والكيان الصهيوني يحيل كل هذا إلى جهاز تفجير يهدد العالم. وقد نجحت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حتى الآن في احتواء الصراع وقصره على المستوى المحلي. وتتحمل الولايات المتحدة ضغوط تنسيق أهداف استراتيجيتها العليا مع مطالب السياسات الداخلية وزمرة المشايعين للكيان الصهيوني. ولا تساعد الانتهازية الصهيونية على جعل هذه المهمة أقل صعوبة.

جنوب أفريقيا:

يقف البوير إلى الجنوب من الصحارى الأفريقية في وجه أي محاولة للزنوج للتحرر من العبودية أو أي أمل في بدء الارهاصات القومية داخل دول خط الجبهة. ولسوف تظل النيران التي أذكت لهيبها هذه الاحتكاكات تضرى وتضطرم. ومع ذلك، فالأرجح أن تنجح العسكرية المتفوقة للأفارقة الجنوبيين في إهدار جدوى كل جهد يبذله السود لإخراج القبيلة البيضاء من ليمبوبو، وذلك لفترة أخرى من الزمن. وليس من المتوقع أن تنجح إمدادات الأسلحة والنصائح التي تأتي من الاتحاد السوفيتي وكوبا أو الصين في ترجيح كفة السود. إن القوة الصناعية المتطورة تتفوق لوجستيكيا على أي قوة تقنية مماثلة تبذل مساعدتها من مسافة بعيدة لتشد أزر معارضة ريفية محلية. إن الأعداء

الداخليين لسدنة الإبادة العنصرية الجدد يتعرضون لعمليات القمع القاسية كما أنهم منقسمون على أنفسهم حيث تعمل الأغلبية من الزولو في الوقت الحالي لصالح استمرار السيادة الوطنية .

إن إجماع رأي خبراء الاستراتيجية الجغرافية يؤكد على تركيز اهتمام الاتحاد السوفيتي بالدرجة الأولى في أوربا . ولا يوجد مخطط واضح للسيطرة على العالم من قبل حكومة السوفيت . فكل ما في الأمر أن هناك استجابة للفرص التي تسنح لبسط النفوذ السوفيتي شريطة أن تكون أخطارها ضئيلة . ولقد ترك نزوح الاستعمار عن أفريقيا الكثير من الثغرات أمام النفوذ الروسي للتغلغل داخل القارة التي كانت اهتمامات الولايات المتحدة بها عشوائية أو مشوَّشة . كما أن هناك باحثين آخرين عن ولاء الشعوب الأفريقية الجديدة أو كسب احترامها على أقل تقدير . ولا تزال فرنسا وانجلترا تؤديان إلى جانب جنوب أفريقيا ـــ أدوارهما في أفريقيا وكذلك الصين وكوبا وليبيا ومصر التي تمتد أنشطتها عبر الصحراء .

ويعتبر التنافس الذي احتدم بين روسيا والصين نتيجة الشقاق الذي وقع بينهما عام ١٩٥٩م أشد مصادر هذا الاضطراب ، كما تقوم كوبا في بعض الحالات بدور مستقل ، وبالوكالة عن روسيا في البعض الآخر . وتصادف الحركات السوداء في أنغولا تأييداً شعبيا واسعاً من الجماعات المناضلة أمثال يونيتا ، إلى جانب المساعدة البعيدة التي تصل إليها بين الفينة والفينة من زائير والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا والصين . لقد كسبت عصابات نيتو وكوادرها من المولاتو مؤازرة المتطرفين من جيش البرتغال والسوفيت . كما وصلت قوة كبيرة من الكوبيين لتفرض سيطرة نيتو على لواندا والجزء الأكبر من البلد وإن كان سافيمبي مازال صامدا في الجنوب . ويهدف التدخل الأخير من جانب جنوب أفريقيا في أنغولا عبر ناميبيا إلى استعراض قوتها وتفوقها على عصابات سوابو المدعومة من روسيا ، وذلك قبيل إجراء الانتخابات التي سوف تشرف عليها الولايات المتحدة في ناميبيا . وهو يقدم في الوقت نفسه دليلا واضحا عن غياب أي وحدة إقليمية حقيقية . وخلال التعقيدات التي

أخرجت زيمبابوى انتصر موغابي Mugabe قائد حزب الزانلا ZANLA المتمركز في شونا والذي كان يعتمد إلى حد كبير على مساعدة الصين وأسلحتها . أما حزب زيبرا المضاد فكان يتمركز في نديبلا Ndebele ، ويحصل على الأسلحة السوفيتية والتدريب الكوبي في زامبيا . وقد استمر الطرفان في الخصام بعد الاتفاق على حل المشكلة ، وراح كل منهما يعادي الآخر داخل جيش زيمبابوي ويتبادل النيران معه بين الآونة والأخرى . وفي سبتمبر ١٩٨١ قام موغابي بإيقاع نكومو زعيم حزب نديبلا في مشكلة كبيرة عندما استقدم مستشارين وأسلحة كورية لدعم لواءات الشونا بالجيش . ولا يترتب على استمرار الحرب القبلية أي قاعدة مستقرة لممارسةالسياسة . وقد اتهمت القبيلة البيضاء بتدمير مركز الرئاسة السياسي لموغابي .

ورغم أن مروج الفيلد Veld بجنوب أفريقيا وفرت الملجأ للفدائيين التقليديين على نمط المحاربين البوير فإنها لا تمنح العصابات الحديثة نفس المزايا في وجود القوات النظامية الآلية التي تعاونها قوات جوية . إن حجم وخبرة الجنود البيض بجيش جنوب أفريقيا وشبكة الجاسوسية التي تخدمهم تجعل حرب العصابات الريفية أو الحضرية بالغة الصعوبة . ويبلغ وعاء التعبئة الكامل لجنوب أفريقيا من البيض ٤٠٤٥٠٠ مقاتل وهو ما يناهز ضعف عدد الجيش الذي تستطيع الشعوب السبعة السوداء المتاخمة لها شمالاً أن تحشده في المسرح فضلا عن كونه الأفضل من زاوية التسليح . ويبدو أن احتمالات نجاح القوات النظامية أو العصابات في القبض على زمام الأمور من خارج جنوب أفريقيا ليست كبيرة في الوقت الراهن . وذلك لأن الروابط الاقتصادية بين حكومات الخط الأمامي بجنوب أفريقيا تجعلها رهائن للوضع القائم من ناحية النقل والمواصلات والتجارة والهجرة المتبادلة . وتدور الشائعات حول تقوية جنوب أفريقيا لهذه الروابط عن طريق تشجيع العصابات في أنغولا وموزمبيق على قطع السكك الحديدية التي تصل زامبيا وزيمبابوى مع بنغويلا وبيرا . ويصادف أيضا الهدوء المترتب على الاعتماد الاقتصادي بين ذوي البشرة السوداء من الطبقة المستفيدة من الرخاء في جنوب أفريقيا . ويستخدم هؤلاء العمال

المستفيدون من الكيان القائم على إبادة الجنس الأسلحة الاقتصادية للاتحادات والإضرابات للحصول على المزيد من القوة والنصيب الأوفى من الثروة . وتختلف اهتماماتهم الآن بوضوح عمن ظل مقيما في الريف الفقير . وقد شجر بين هؤلاء الشك الطويل الأمد الذي فرق قاعدة القوة السوداء . كما تبدى قبائل أخرى نفورها من ازدياد قوة الرئيس بوثيلزي Buthelezi زعيم تنظيم انكاثا بالزولو الذي ترعرع داخل إطار الكيان العنصري القائم على إبادة الجنس .

إن الموارد المعدنية الاستراتيجية وطريق الملاحة حول رأس الرجاء الصالح والمشاعر العنصرية تجعل السياسيين الأمريكيين والأوربيين يجنحون إلى جانب البيض بجنوب أفريقيا . وهناك مشاعر حرة أخرى تعوض عن حدة تسلط البيض دون أن تفسد الوضع الراهن . ويترك ذلك فرصة لتدخل الاتحاد السوفيتي بشعارات أكثر تطرفا واحتمالات أكثر وضوحا لإثارة الصراع المباشر على جنوب أفريقيا بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

حوض البحر الكاريبي :

يتجسد الخطر الأكبر على السلام في الأمريكتين في السلفادور حيث تتعرض الولايات المتحدة لاحتمالات التورط العميق الذي قد يعوقها عن رفع يدها إذا ما بدأت الحكومة في الانهيار . ويميل السوفيت إلى تشجيع تدخل كوبا وتوريط نيكارغوا وهندوراس وغواتيمالا في المشكلة وطبقا لنظرية الضامة فقد تحدث سلسلة ردود فعل تصل إلى المكسيك وريو غراندي . وإذا ما وجدت الولايات المتحدة نفسها في موقف لوجستيكي سيء داخل خليج المكسيك فإن الاتحاد السوفيتي سوف يواجه أعظم أسطول بحري في العالم وهو يمخر عباب مياهه بما يجعل أي مغامرة سوفيتية عميقة داخل الكاريبي ضربا من الجنون . ثم إن اشتعال الحرب في هذا الإقليم سوف يتيح للولايات المتحدة أن تخرج كوبا من العمليات الحربية بسرعة وأن تقبض على خطوط الإمدادات بسهولة .

وليس هناك قوة تستطيع أن تشكل خطراً مباشرا على دفاعات الولايات

المتحدة بالأمريكتين سوى الاتحاد السوفيتي فقط ، إذ يمكن لبعض قطع من غواصاته البالغ عددها ٣٤٠ أن تقترب إلى مدى الضرب بالصواريخ عبر مياه الكاريبي حيث توفر لها الجزر بعض الاستتار من عمليات الكشف . أما دفع الهجوم التقليدي إلى أعماق أبعد بإبرار قوات الغزو فمن الواضح أنه غير ذي موضوع حتى ولو تم من قواعد كوبية . ولم يزل الكاريبي وفقا للمعايير الدولية يؤدي دورا رئيسيا على نحو ماكان يفعله في القرن الماضي ، ولم يعد لقناة بنما أية أهمية حربية حقيقية . أما قيمتها التجارية فقد تدهورت مع تجاوز التجارة العالمية لها ، ومرور أغلب بضائع الولايات المتحدة إلى أوربا عبر المحيط الأطلسي أو موانئ خليج المكسيك . وبالمثل فإن تجارة آسيا وأوربا تدور حول رأس الرجاء الصالح أو عبر قناة السويس . كما تبدأ غالبية خطوط الولايات المتحدة الملاحية مع آسيا من موانيها الواقعة على المحيط الهادي . ولقد ترتب على نمو سكان دول الساحل الغربي فوق العتبة التي تكفي لإعاشة القطاع الصناعي أن اضمحلت إمكانات التجارة في الحزام الصناعي للشمال الشرقي ، وحتى كاليفورنيا وأوريغون وواشنطن . ولما كانت قناة بنما صغيرة جدا بحيث لا تسمح بمرور السفن الأكبر من المدمرات فإن وظيفتها العسكرية لم تتحقق لمدة طويلة في السماح بمرور أسطول أمريكي واحد عبرها كيما يفرض سيطرته على المحيطين . وتبقى حركة التجارة الضخمة بين الولايات المتحدة وحوض الكاريبي وحافته مبعث اهتمام أمريكا التي تستورد ثلث حاجتها من النفط وثلثيها من البوكسيت من هذه المنطقة .

أما نقطة ضعف الولايات المتحدة في الجنوب منها فترجع إلى الفقر المتوطن وانعدام العدالة الاجتماعية واهتزاز الاستقرار السياسي الذي يعاني منه بعض عملائها من هذه الدول . لقد تدخلت الولايات المتحدة عام ١٩٤٨م لتوقف حركة اشتراكية كانت تسعى إلى القبض على زمام السلطة في كوستاريكا ، ثم تكرر الشيء نفسه في غواتيمالا عام ١٩٥٤م . ولقد اضطرت أحيانا إلى مساندة بعض النظم الاستبدادية لتحافظ على حالة من الهدوء . وبعد أن أذعنت لسقوط الجنرال باتيستا Batista على يد كاسترو حاولت الولايات

المتحدة عام ١٩٦١م أن تعيد تنصيب «الأحرار» الموجودين في المنفى بعملية فاشلة فتحت الطريق أمام السوفيت للتقرب مع كاسترو ، وفرض وجوده في كوبا . ولما واجهت كوبا الفشل في تصدير ثورتها إلى القارة حولت اهتمامها نحو أفريقيا وبرغم عدم نجاحها في وسط وجنوب أمريكا فإن نفوذ الولايات المتحدة أخذ يضمحل . وفي عام ١٩٧٩م نجحت عصابات الساندنيستا في إسقاط الأسرة الحاكمة في نيكارغوا ، وكان طرد سموزا بمثابة تحول جذري إلى اليسار في سياسات أمريكا الوسطى . ثم جاء دور السلفادور بعد عامين اثنين عندما وقعت الطبقة الحاكمة بقيادة دوارتي **Duarte** تحت ضربات العصابات اليسارية ويشاع أن القوات الثائرة تتلقى أسلحتها من كوبا عبر نيكارغوا بينما تستخدم قوات الطبقة الحاكمة الأسلحة والحوامات الأمريكية ، وتعتمد على مشورة خبراء أمريكيين .

وهناك في هذا الجزء من العالم دول أكبر مثل المكسيك وفنزويلا وجاميكا التي أبدت القدرة على نقل القوة بين الخصوم السياسيين على أساس دستوري متين حتى ولو شاب ذلك بعض العنف السياسي العشوائي . ويوفر هذا قالب الاستقرار الذي يستطيع أن يتحمل الاضطرابات ، وأن يبعد أية تدخلات من جانب الولايات المتحدة . ويقلل هذا بدوره من التطفل المباشر لروسيا أو كوبا . وتنقسم حكومة ريغان على نفسها الآن بشأن أفضل التصرفات الممكن اتباعها نحو المنطقة الواقعة جنوبي نهر ريو غراندي . فوزير الدفاع وينبرجر **Weinperger** يقف ضد التورط بينما يؤازره وزير الخارجية هيغ الذي يدعو إلى مد يد المساعدة للنظم المهددة . ومن سوء الحظ أن الاختيار قد لا يقع على التصرف العقلاني المبني على حساب أفضل مصالح الولايات التحدة إذ قد تحكمه مؤثرات السياسات الداخلية للأحزاب فضلا عن ميول مجموعة السياسيين بالبيت الأبيض .

ولقد تسبب النزاع بين الأرجنتين وبريطانيا في ابريل ١٩٨٢م حول جزر فوكلاند في تعقيد الأمور . وعندما اتخذت الولايات المتحدة موقف التصالح مع الأرجنتين استنتج البعض أنها تسعى بذلك للحفاظ على المعاونة التي بذرت

بذورها في حملتها ضد الشيوعية بأمريكا الوسطى وقد انتشرت الشائعات بوجود خطط أرجنتينية لمساعدة الولايات المتحدة في قمع قوات الساندينستا نيكاراجوا. ولم يكن هذا بالخبر المفرح لأي من المكسيك أو فنزويلا فضلا عن نيكاراجوا نفسها . ولهذا هب السوفيت لمساعدة الدكتاتورية العسكرية المضادة للشيوعية التي رحبت بهم ترحيبا حاراً . ورغم زعم الأرجنتين أنها تحتاج إلى جزر فوكلاند لتراقب منها الغواصات السوفيتية فإنها أسرعت إلى إمداد السوفيت بالحنطة التي منعتها حكومة كارتر عنها كبادرة احتجاج على أعمالها في أفغانستان . ومن الواضح أن المشاعر الغربية للقومية والمصالح الشخصية هي التي تحكم الأمور الدولية ، إذ أن أي حجر يقذف في جنوب المحيط الهادي سوف تصل الأمواج الناجمة عنه الكاريبي ونهر البوتوماك بل ودهاليز الكرملين .

مراجع الفصل العاشر :

يوجد وصف أساسي تحليلي للحرب المعاصرة في :

M.Carver War Since 1945 (Weidenfeld and Nicolson, London,1980)

المسار المحتمل لحرب تشتعل بين الناتو ووارسو مذكور في :

J,Hackett et.al.The Third World War (Macmillan, London,1979)

المصادر الرئيسية للمعلومات لهذا الفصل هي :

The Economist, Time and the TV networks

تم استعراض الاتجاهات السوفيتية بعمق في قرارات المؤتمر العشرين للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية المنعقد في سبتمبر ١٩٧٨م وقد نشرت هذه الدراسات تحت عنوان :

'Prospects of Soviet Power in the 1980's in the Adelphi papers numbers 151 and 152.

Number 151 included :

R.Legvold 'The Concept of Power and Security in Soviet History' pp. 1-12

A. Dallin 'The United States in the Soviet Perspective' pp. 13-21

J. Laloy 'Western Europe in the Soviet Perspective' pp. 22-9

L. Labedz 'Ideology and Soviet Foreign Policy' pp.37-45

Number 152 included :

P. Windsor 'The Soviet Union in the International System of the 1980's pp. 2-10

W.E. Griffith 'Soviet Power and Policies in the Third World: The Case of Africa' pp. 39-46

G. Golan 'Soviet Power and Policies in the Third World: The Middle East' pp. 47-54

The 'Crisis in the Caribbean' was featured in the October 1981 (vol. LIII,no. 3)

الخاتمـــــــة :

إن الاحتمال الذي يلوح اليوم في الأفق وينتظر أن يؤثر على مستقبل البشر هو ما سوف تختاره أوربا الغربية للنأي عن التورط في التنافس الدولي بين القوى الكبرى والجنوح إلى موقف الحياد . وسواء ترتب على ذلك اجتياح الجموع الشيوعية لأرضها أم لا فإن دمارها بالأسلحة النووية لن تجد له الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي مبررا . وتميل المشاعر في كل من المانيا والدنمرك والأراضي المنخفضة والمملكة المتحدة إلى ذلك الاختيار . ويشعر المستشار شميت Chancellor Schmidt أن أعدادا كبيرة من الديموقراطيين الاشتراكيين يرون نفس الرأي . ولقد خسر أنطـــوني ويدجـود بن Anthony Wedgwood Benn زعامة حزب العمال بسبب رأيه المخالف الذي عارضته غالبية الحزب وتبنت سياسة الحياد .

وعلى الجانب الآخر من الستار الحديدي لا تستطيع روسيا أن تعتمد على استعداد جنود بولندة و ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر للقتال من أجل احتلال أوربا الغربية . كما أن للاتحاد السوفيتي كل الحق في الشك في مدى قبول أجناس السلاف والترك الموت في سبيل الماركسية اللينينية .

إن التقارب الأمريكي الصيني والموقف الهادىء لليابان قد يقللان من حدة الجهود الأمريكية للانفراد بالوجود الوحيد في حوض المحيط الهادي والاندفاع إلى القتال الذي لا أمل في كسبه دون تصاعده إلى حافة الدمار الشامل للبشرية جمعاء .

وفيما يتعلق بحقول النفط في جنوب غربي آسيا فسوف يتابع تنقلها محليا من يد ليد تبعا لتغير الأوضاع . وسواء أكانت النظم محافظة أم متطرفة فإن المجتمعات والاقتصاد يعتمدان في هذه المنطقة على أرصدة النفط . ويحسن أن يُنظر إلى احتمال التدخل السوفيتي المباشر بأقرب طرق الاقتراب من المنطقة على نحو ما يظهر على الخرائط مرتبطا بحقيقة أن هذه الطرق وعرة وجافة ومجهدة . ولا يعني الاعتراف باعتماد الاقتصاد الغربي الشديد على نفط الخليج إنكار

توفر بعض البدائل التي قد تغني عنه . كما أن المجتمع الغربي لم تبلغ به درجة الاعتماد على هذا النفط حد المخاطرة بوجوده لتأمين مصادره منه . إن انقطاع الإمداد بنفط الخليج في السبعينيات لم يسبب كارثة ، بل شجع اتخاذ استراتيجية اقتصادية تميزت بالمرونة الفائقة .

ولن تصل أي حسابات لتكاليف وأرباح الحرب النووية إلّا إلى عجز شديد . كما أن النصر المؤزر للحلفاء في الحرب العالمية الثانية لا يبدو اليوم أفضل حالا . فإذا كان دافع المملكة المتحدة إلى الحرب هو الحفاظ على امبراطوريتها وفرض السلام البريطاني فإن فشلها في تحقيق أي منهما يبدو ماثلا اليوم للعيان . وإذا كانت المملكة المتحدة قد خاضت تلك الحرب لاحتواء محاولة المانيا فرض الهيمنة على قلب الأرض The heartland فإنها تكون قد نجحت في تسليمها لروسيا ، وبالمثل إذا كان قصد الولايات المتحدة أن تقاتل لتحتفظ بسيطرتها على المحيط الهادي وتمزيق أوصال القوة الصاعدة في شرق آسيا . فإن منطقة شرق آسيا هذه تنعم اليوم برواج اقتصادي عظيم . لقد كسبت أمريكا نفوذها في آسيا بخوضها الحرب على الجانب الخطأ وبتوثيق علاقات الصداقة مع الحكومة الصينية . ولئن كانت الحرب قد دارت ليحتفظ الأسطول الملكي البريطاني والأسطول الأمريكي بسيطرتهما على البحار فقد أدت إلى انحسار الأسطول الملكي واحتدام المنافسة الروسية . وكانت التكاليف في الأرواح التي راحت ضحية الحرب ، والأشياء التي دمرتها والاقتصاد الذي تحطم ، والمجتمعات التي عانت من ويلات القتال فادحة للغاية . إن الشرور التي تحملها الاشتراكية الوطنية من الوضوح بما يجعل أي تفاؤل بخصوص الطبيعة البشرية يحمل بذور دمارها . وكان احتمال استمرار الهيمنة الألمانية رهناً بقوة الجيش الألماني الذي أُحسن إعداده للغزو وليس للاحتفاظ بامبراطورية واسعة الأرجاء . ولم يتحقق أبدا غزو بريطانيا الذي جعل المقاومة البريطانية تشتد وتتماسك لإحباطه ، واستدراج الولايات المتحدة للتورط في الحرب ضد المانيا .

وقد ترتب على الإرهاب الذي أشاعته أسنان التنين فيما بين ١٩٣٩ ،

١٩٤٥م استمرار نزيفه في طاقات المنتصرين الذين انقلبوا اليوم على بعضهم البعض . أما الحكم على جدوى الحرب بعد حدوثها فيتطلب بطبيعة الحال البحث عن بديل واقعي مضاد . فأنت لا تستطيع أن تقدر جدوى قرار عمل ما بالبحث فيما كان يمكن أن يحدث إذا لم يتخذ هذا القرار أصلا . فالتكاليف والجدوى سوف يقاسان عندئذ بمقياس الاختلاف بين تسلسل الحدثين . وقد ينكر رجال التاريخ جدوى التعبير القائل : ماذا ...... ولو ... ؟ «what ifs?» ، ولكن مثل هذه الأسئلة توفر القرينة الوحيدة للعقلانية التي يبحث عنها رجال السياسة . ويبدو أن الإجابة العامة عن مثل هذا التساؤل هي أن الحروب الحديثة ، لا تطرح نصرا ذا وزن ، فالنصر لا يعدو إنجازاً تزيد تكاليفه عن فوائده . كما أن ثمن النصر وتكاليف إعادة بناء كيان المهزومين تجعل أسلاب الحرب نزيفا لخزانة الدولة .

وربما يجدر بنا أن نعيد صياغة السؤال عن خوض الحرب أو عدم خوضها ليصبح ما الفائدة الحقيقية التي سوف نحصل عليها مقابل تدمير الحضارة الإنسانية ، وما الدافع العقلاني لأي رئيس دولة لإصدار أمر البدء في حرب نووية ؟ هل لنمنع إعادة وحدة ألمانيا ؟ أم لنخرج الجيش السوفيتي من بولنده ؟ أم لنضمن استمرار إمدادات النفط من الخليج العربي ، أم لنمنع تقدم الروس عبر نهر الآمور ؟ . إن أغلب المخاوف التي قد تشعل الحروب مبالغ فيها كثيرا بسبب الجهل بمدى الوقاية التي توفرها المسافات وطبيعة الأرض التي تجبر القوتين المتضادتين على الابتعاد عن بعضهما البعض . وإذا لم نتح لهذه المعلومات الجغرافية فرصة تهدئة مخاوفنا ، وضربنا صفحا عن حقيقة أن نتيجة الحرب لن تساوي ضخامة التدمير الذي سوف تحدثه فإننا نكون قد ابتعدنا عن العقلانية ، وتركنا الحبل على الغارب للخوف ليقود تصرفاتنا .

لقد بذلنا جهدنا في هذا الكتاب لتوضيح صورة جغرافية لدراسة الحرب . وقد يعقد مثل هذا التحليل بغرض شرح الأحداث الماضية أو إلقاء الضوء على مكنوناتها وطرق ممارسة القتال أو توقع ما يمكن أن يستجد عليها

من أمور . وكجغرافيين فقد حاولنا أن نتفهم تأثير حجم الأرض وحرف سكانها على مختلف الصراعات التي تدور بين مجموعات البشر .

فإذا نجحت هذه الآراء في إضافة جديد إلى جدواها النهائية نكون قد حققنا الفائدة منها .

• • •

الكشاف التحليلي

(ز)

(س)

(ل)

(م)

(هـ)

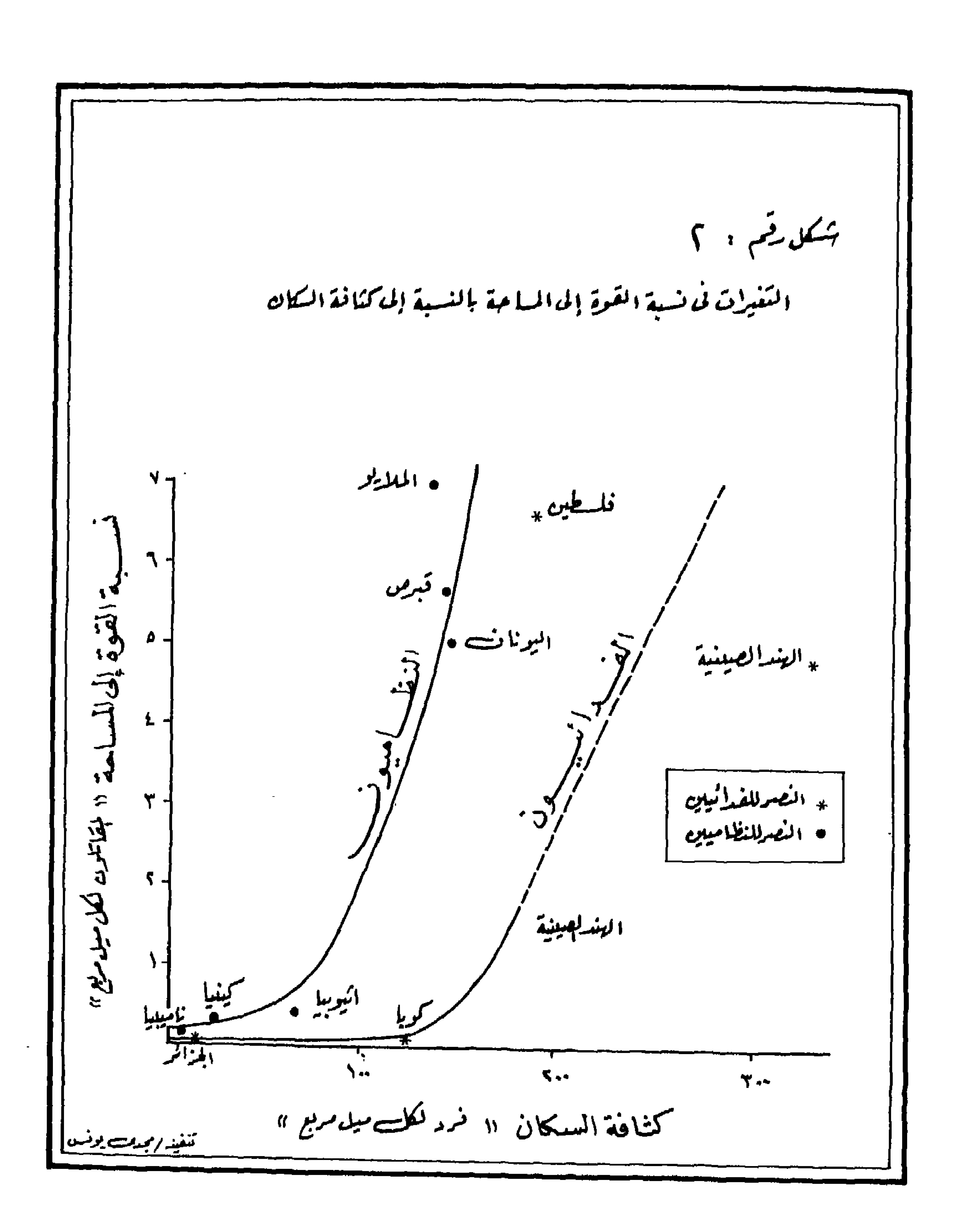
(و)

(ى)

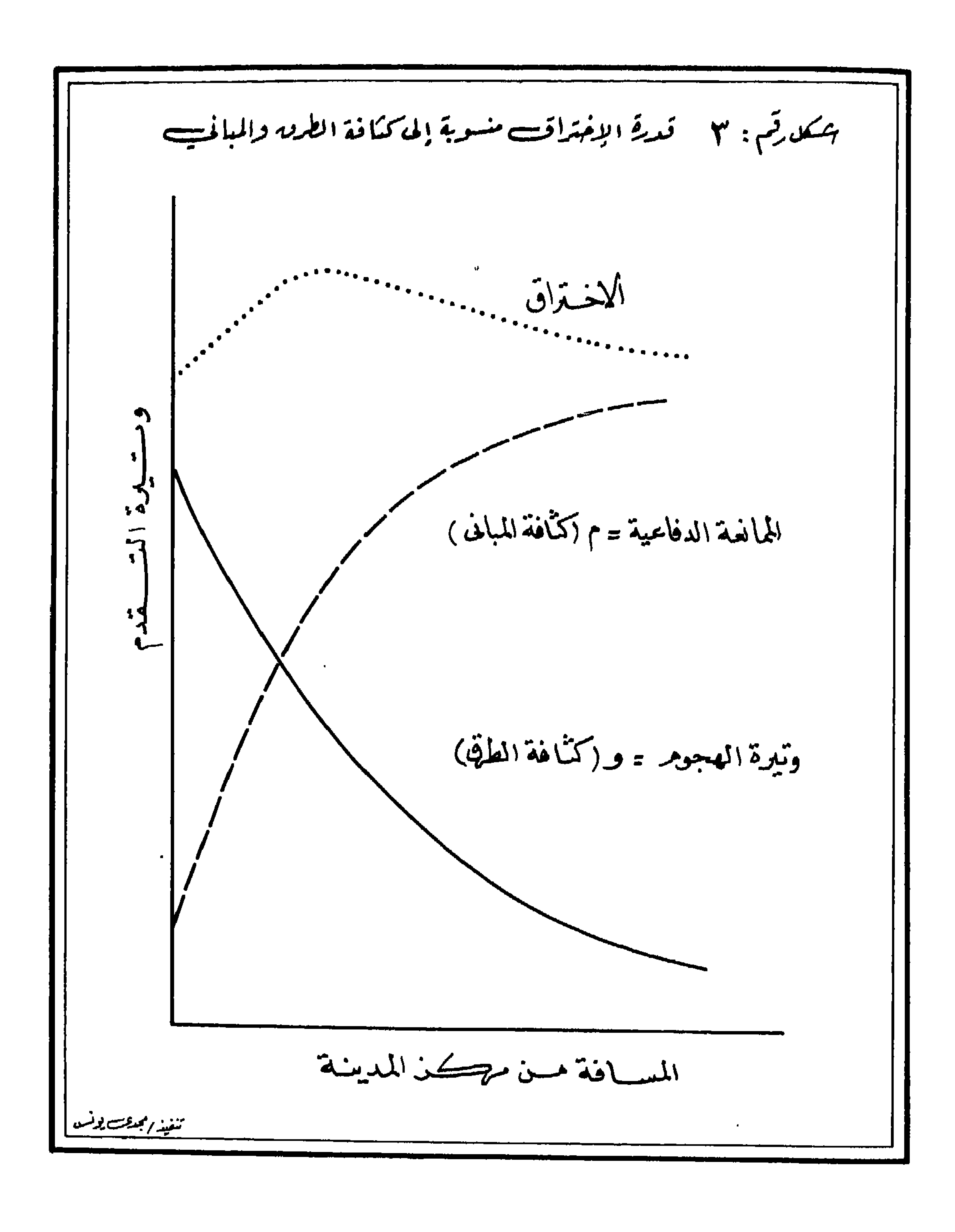
الأشكال

شكل رقم : ١

اللورين



شكل رقم : ٢
التغيرات في نسبة القوة إلى المساحة بالنسبة إلى كثافة السكان
نسبة القوة إلى المساحة ((بالآلاف لكل ميل مربع))
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١
الملايو
قبرص
اليونان
فلسطين
الهند الصينية
النظاميون
الفدائيون
الهند الصينية
كينيا
اثيوبيا
كوبا
ناميبيا
الجزائر
* النصر للفدائيين
• النصر للنظاميين
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠
كثافة السكان ((فرد لكل ميل مربع))
تنفيذ / مجدي يونس



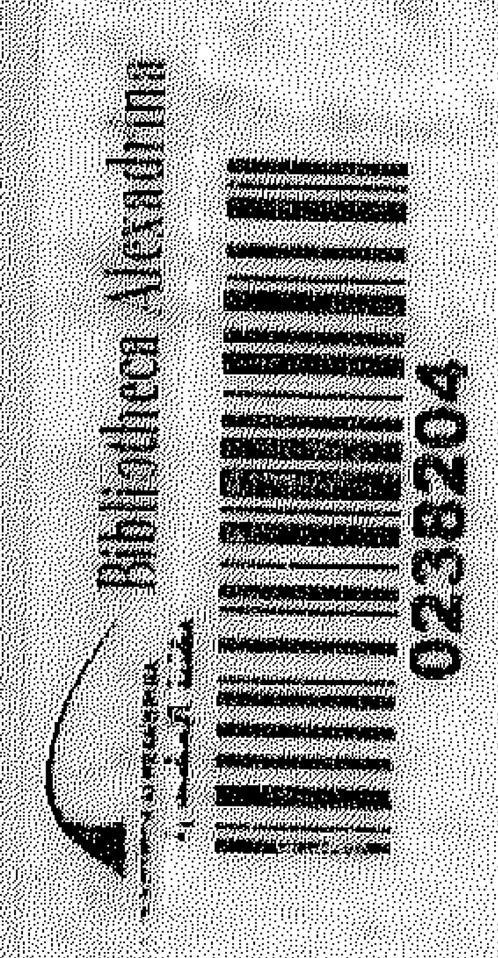
شكل رقم : ٣ قدرة الإختراق منسوبة إلى كثافة الطرق والمباني
الاختراق
الممانعة الدفاعية = م (كثافة المباني)
وتيرة الهجوم = و (كثافة الطرق)
وتيرة التقدم
المسافة من مركز المدينة
تنفيذ / مجدي يونس

THE GEOGRAPHY OF WARFARE

By

Patrick O'Sullivan and Jesse W. Miller

Croom Helm Ltd. Provident House, Burrell Row, Beckenham, Kent, 1983



مطابع الحرس الوطني
NATIONAL GUARD PRINTING PRESS